ميكال يان دي خويه

القرامطة

نشأتهم ، دولتهم ، وعلاقاتهم بالفاطميين



ترجمة وتحقيق : حسيني زينه

القرامطة

بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
هاتف ٣١٢٣٣٥
ص.ب ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى

سبتمبر (ايلول) ١٩٧٨

ميكال يان دي خويه

القرامطة

نشأتهم ، دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين

ترجمة وتحقيق

حسني زينه

دار ابن خلدون

الاهداء

الى أبي

الـذي مات عـلى أمل

أن يأتي ذلك اليوم ...

حسني

مقدمة المترجم

ان ضرورة دراسة الحركات الاجتماعية التي نشأت ردا على الظروف المعيشية الصعبة التي تردت فيها غالبيــة المكلفين في العصور العباسية المتأخرة لم تعد تخفى عــلى المهتمين بدراسة التاريخ الاجتماعي للحضارة الاسلامية أو بفهمــه . ولا مراء في ان الاسماعيلية كانت في طليعة هذه الحركات مـن حيث شمول الرؤية ودقة التنظيم وأهمية النتائج وتنوعهـــا : بدءا بتشجيع التكتلات الحرفية أو النقابات وانتهاء بانشاء الخلافة الفاطمية في مصر وافريقية الشمالية ، مرورا باقامة الدولـــة القرمطية في البحرين .

وقد حظي التأريخ لهذه الدولة القرمطية ولعلاقاتها بمؤسسي المذهبالاسماعيلي والخلافة الفاطمية بعناية المستشرقين المبكرة ، فبدأوا دراساتهم منذ أواسط القرن التاسع عشر — وتحديدا في العام ١٨٣٨ — من زوايا مختلفة . بيد ان أول معـــالجة مركزة ودقيقة للموضوع تمت على يد مستشرق هولندي هو «دي خويه» (De Goeje) عندما نشر في العام ١٨٦٢ « رسالة عن قرامطة البحرين » . وقد أعاد المؤلف النظر في كتابه قبل نشره الطبعة الثانية في العام ١٨٨٦ ، فاستدرك على بعض أخطائـه ، وعدّل بعضا منمواقفه السابقة على ضوء ما استجد من الابحاث وما نشر من المصادر الهامة منذ ذلك الحين ، حتى غدت هذه الطبعة مرجعا أساسيا لكل دراسة لاحقة للموضوع . وقد توخيت من ترجمتي الكتاب وضع هذا المرجع في متناول القارىء العربي .

كان على دي خويه ، في ذلك الوقت ، أن يستند في بحثه الى مصادر تاريخية مخطوطة في معظم الحـــالات . وقد تطلب ذلك منه جهدا شاقا لا تقلل منه معرفـــة صاحبه الوثيقة باللغة العربية وألفته الطويلة بجزء كبير مـــن مخطوطاتها التاريخية . أما وقد أصبح معظم مصادر الكتاب مطبـــوعا الآن ، فقد صار لزاما عليّ التحقيق في الاحالات والوقوف على مادتها في الكتب المطبوعة ثم تعديل الاشارة اليها في الحواشي بما يتلاءم وأرقام الصفحات التي تحتوي على تلك المادة . أما بالنسبة للمصادر التي لم تزل مخطوطة فقد بينت اسم المؤلف أو عنـــوان الكتاب في الحالات التي كانا فيها مجهولين لدى دي خويه ، كما اني أكملت تفاصيل المراجع الاجنبية التي كان بامكان الكاتب ، آنذاك ، أن يكتفي باشارة وجيزة اليها نظرا لندرتها وقلة المشتغلين بها . وقد أدخلت على بنية الكتاب بعض التعديلات التي رأيتها ضرورية أو مفيدة . فمنها اني فصّلت الكتاب فصــولا يسمح بها السياق ، اذ ان الاصل قطعة واحدة متصلة ، ومنها اني أسقطت مـــن متن النص استطرادا طويلا ـ والمؤلف يدعوه هكذا ـ عـــن التنجيم ، وألحقته بالملحقات لانه كان سيدخل شيئا مـــن الاضطراب على تسلسل الاحداث فيما لو بقي في موضعه الاصلي مـــن النص ، ومنها اني أسقطت من النصوص المثبتة فـــي الملحقات تلك التي كان لدي خويه فضـــل نشرها لاول مرة ولكنهـــا أصبحت الآن متوفرة في كتب مطبوعة ، كما اني قد أضفت نصوصا هامة كانت آنذاك مجهولة لدى دي خويه ، أو كان دي خويه يجهل مؤلفها ، فبينت صاحبهـــا ، ومنهـــا اني وضعت بعضا مـــن الحواشي التوضيحية أو المصادر الاضافية أو المراجع الحديثة . وقد أشرت الى سائر هذه الاضافات **بوضعها بين حاصرتين تمييزا لهـــا عن النص الاصلي .**

وغني عن البيان اني لم أقم بهذا الجهد وحدي ، فأنا مدين بالكثير للعديد من الاصدقاء الـــذين كانوا لي عـــونا في عملي ، وأخصّ منهم بالذكر الاب مارتن ماك درموت ، أمين مكتبة الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف ومعاونته الآنسة نهاد سلامة ،

والدكتور يوسف خوري ، أمين مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت ، ومعاونوه وبخاصة السيدة عايدة نعمان والسيد بيتر كلبرن ، والاستاذ آ. ج. و. هوسمان ، أمين مكتبة الاعمال الشرقية المطبوعة في جامعة ليدن ، والدكاترة وداد القاضي ، صادق جلال العظم وطريف الخالدي ، وأخيرا لا بد لي من شكر صديقي الاستاذ عبد الاحد الحناوي الذي تفضّل بمراجعة النص العربي وضبطه وابداء بعض الملاحظات المفيدة بشأنه .

١ — مقدمة

لم تعادل سرعة العرب المدهشة في فتح العـــالم ، خلال القرن الاول للهجرة ، سوى سرعة انحطاط سيطرتهم في النصف الثاني من القرن الثالث والنصف الاول من الرابع . مدينة واحدة شاهدت ولادة القوة التي جمعت المشرق والمغرب تحت صولجان واحد ، والى مدينة واحـــدة مع ما يليها ، اختزلت آنئـــذ تلك الامبراطورية العملاقة . ان أسباب ذلك التفكك السريع تكمن في طابع الفتح نفسه ، وفي نمط ادارة ذلك الجسم العظيم . ولكن أكثر من سلطة الحرس التركي المتصاعدة ، ومن تفاهة الخلفاء ، كانت الجرثومة القاتلة الاكثر فعالية تتمثل في قوة هائلة ، تحولت من فرقة مغمورة عند نشوئها الى سلالـــة ملكية آل أمرهـــا الى السيطرة على الشطر الغربي من الخلافة .

حقد قديم على العرب والاسلام وطموح بلا حدود أوحيا ، حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة ، الى رجل يدعى عبد الله بن ميمون ، قدّاح (طبيب عيون) من حيث المهنة ، فارسي الاصل والمنشأ ، بمشروع مدهش لا تقلّ جرأة صاحبـــــه وذكاؤه في التصور عن مهارته وقدرته على التنفيذ .

« أراد عبد الله بن ميمون أن يربط الغالبين والمغلوبين في حزمة واحدة ، أن يجمع في جمعية سرية واحدة ، تشتمل على درجات متفاوتة يرقاها السالكون ، كلا من المفكرين الاحرار الذين لم يروا في الدين سوى قيد كـــابح للشعب ، والمتعصبين للدين

من الفرق جميعها ، أن يستخدم المؤمنين ليسلّط غير المؤمنين ، ويستعمل الفاتحين للاطاحة بالامبراطورية التي أسسوا ، وأخيرا أن يؤلف حزبا وافر العدد ، متماسكا ومعتادا على الطاعة ، قادرا، متى آن الاوان ، على منح العرش امّا له واما لاولاده من بعده . لا غرو في كونها فكرة غريبة وجريئة ، بيد انه حققها بلباقة مذهلة ، وبراعة لا تضاهى ، ودراية عميقة بالنفس البشرية » (١) .

وللوصول الى هذه الغاية ابتكرت مجموعة من الوسائل التي يمكننا بحق أن نصفها بالشيطانية . اعتمد فيها على كل مواطن ضعف الانسان ، فأظهرت التقوى للورعين ، والحرية وحتى الاستهتار لغير المبالين ، والفلسفة للنفوس الكبيرة ، والآمال الصوفية المتعصبين والعجائب العامة . كذلك منح اليهود مسيحا ، والمسيحيون مختارا ، والمسلمون مهديا وأخيرا قدّم لاهوت فلسفي لأتباع الوثنية الفارسية والسورية . وقد وضع هذا النظام موضع التطبيق بهدوء وحزم يثيران الدهشة ، ويكادان، اذا غض النظر عن الهدف ، أن ينتزعا اعجابنا الشديد .

ان العرض الكامل لهذا المشروع والكيفية تنفيذه لحريّ بالاشتمال ، لا على تاريخ الخلفاء الفاطميين فحسب ، بل على تاريخ الاسماعيلية أو الحشاشين الذين طار صيتهم ابان الحروب الصليبية . بيد انه ليس في نيتنا أن ننجز هذا العمل ، لأننا سنقتصر على امتحان تأسيس هذه الفرقة ، واثبات كون القرامطة والفاطميين فرقة واحدة في الحقيقة ، ورواية تاريخ القرامطة في الشرق حتى بداية القرن الخامس للهجرة . ومع تحديد موضوعنا على هذا النحو ، فنحن لا نأمل أن نبلغ الكمال . عندما عالجنا الموضوع للمرة الاولى في العام ١٨٦٢ تحت عنوان أضيق حدودا ،

---

(١) Dozy , R. , Histoire des Musulmans d'Espagne, Nouv. édit. , revue et mise à jour par E. Levi Provençal, Leide, 1932 , Tone II , P 120 .

هو « قرامطة البحرين » ، قلنا ان الاجزاء الهامة من كتاب الشريف أخي محسن المذكورة في كتاب سيلفستر دي ساسي القيّم (٢) ، كانت حتى ذلك التاريخ مصدرنا الوحيد لمعرفة مشروع ابن ميمون، ولاحظنا انه على الرغم من التفاصيل العديدة التي يعطيها كل من دي ساسي ووايـل ودي فريمري عـن تنفيذ ذلك المشروع ، فالمعلومات ما زالت غير كافية . ولقد أضفنـا آنذاك الى تلك الوثائق نصين هامين لابن حوقل ، يمكن الرجـوع اليهما في طبعتنا (٣) لهـذا المؤلف (ص ٢١ ـ ٢٣ ، ٢١٠ وما يليها) ، ونصوصا أخرى مستقاة من كتب مختلفة . ومنـذ ذلك الحين ازدادت مصادرنا بفضل كتاب فقيـد العلم صديقنا غيّار :

Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis, Paris, 1874

وكتاب وستنفلد :

Geschichte der Fatimiden Chalifen, (Gœttingen) 1881 .

فضلا عن تقرير بالغ الاهميـة لناصر بن خسرو مدوّن فـي :

Sefr Nameh, relation du voyage de Nassir Khosrau, 1881 .

ومترجم بعناية فائقة بقلم شيفر . بالاضافـة الى ذلك ، فقـد وجدنا نحن ايضا بعض التفاصيل التي تلقي الضوء على أكثر من نقطة كانت غامضة . ولكن يستحيل علينا حتى الآن أن نعطي أكثر من صورة تمهيدية لاسباب عدة ، منها التحفظ المقصود من قبل الاعضاء الراسخين في المذهب ، ومنها افتراء أعدائها المنهجي ، حتى لتظهر أكاذيبهم وكأنها الحقيقة نتيجة لتكرار الرواية ولغياب الشهادات الحرية بالثقة . لن نتوسع في الكلام عـن الوقائع الا اذا كانت مما لم يتعرض له سلفنا ، أو لم يعالجه معالجة كافية ، فان فعل مررنا عليها مرور الكرام .

---

(٢) Exposé de la Religion des Druzes, Paris, 1838
سأشير اليه فيما بعد « بالدروز » .

(٣) [المسالك والممالك ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٧٣] .

٢ ـ اصل السلالة الفاطمية

يروي ابن خلكان (١) انه لما دخل المعزّ لدين الله ، رابع الخلفاء الفاطميين عاصمة مصر في العام ٣٦٢ ، سأله رئيس البيت العلوي عن أصله ، فوعده المعزّ أن يعطيه جوابا شافيا في خلوة يعقدها لكبراء العلويين . فلما انفرد بهم ، استلّ الامير سيفه من غمده وقال : « هذا نسبي » ثم نثر حفنات من القطع الذهبية حوله وأضاف : « وهذا حسبي » .

يشك دي سلاين في صحة هذه الرواية محتجا بأن المعزّ كان أحرص من أن يقضي على ادعاءات آله في حقهم في الخلافة، ثم يضيف ان الكتاب الذي اقتبس منه ابن خلكان روايته ، يحتوي ، فضلا عن ذلك ، على عدد من الاخطاء . ولقد لاحظ ابن خلكان نفسه ان رئيس البيت العلوي المشار اليه في هذه الرواية كان قد توفي منذ أربع عشرة سنة ، ولكنه يظن ان اسما مشهورا قد أحلّ محل اسم شخص مغمور (٢) . على أية حال ، فمما لا ريب فيه ان المعز لم يصرح بشيء من هذا القبيل في

---

(١) وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

(٢) قارن وستنفلد : Geschichte der Fatimiden Chalifen (تاريخ الخلفاء الفاطميين) ص ١١٩ . (فيما بعد ، وستنفلد ، فاطميين) .

مجلس علني . بيد انه من الجائز أن يحصل ذلك في مقابلة سرية مع وجوه العلويين . لقد دونت أنساب آل علي بأيدي رؤسائهم واعترف رسميا بصحة أقوالهم فيها (٣) . كان من حقهم ، اذن ، أن يسألوا كيف يمكن لعبيد الله أبي جد المعز ، أن يتحدر من محمد بن اسماعيل بن جعفر العلوي . ومن المحتمل الا يكونوا اكتفوا بما كان المعز يرويه لهم عن الائمة المستورين الثلاثة : عبد الله الرضا ، وأحمد الوافي ، وحسين التقي . كان جواب الامير ، اذن ، مختلقا ليناسب مبتغاه . ومهما يكن من الامر ، فالقصة تتسم تماما بسمات الوضع السائد . أما سلطان السيف والمال كان من العسير على أي كان في دولة الفاطميين أن يطعن علنا في صحة نسبهم .

ولكن ليس من الصواب أن نذهب مذهب المقريزي (٤) في اعتباره موافقة البيت العلوي الافريقي الرسمية دليلا على صحة ذلك النسب ، أو ان نجد هذا الدليل في كون الخليفة المعتضد ، قبيل وفاته ، قد آنس في عبيد الله رجلا خطيرا ، كما يريد المقريزي وابن خلدون (٥) . كان البيروني مصيبا عندما أشار (٦) الى انه على الرغم من اعتراف علويي المغرب ، فان فساد مزاعم الفاطميين لم يكن ليخفى على أحد . لن نولي كبير اهتمام للمحضر العلني المحرر في العام ٤٠٢ في بغداد والذي وقعه كبراء العلويين ، وصرحوا فيه بأن أسرة عبيد الله لا تمت الى

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٧٩ – ١٨٩٨ ، ٣/٣٦٤ .

(٤) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ص ٣٤٨ – ٣٤٩ .

(٥) المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٣٨٦ .

(٦) الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق زاخاو ، ليبزغ ، ١٨٧٨ ، ص ٣٩ .

بيت النبي بصلة (٧) كما اننا لن نتوقف أمــام محضر آخر حرر في العام ٤٤٤ (٨) ، بل أننا لنجد بيّنة جديرة بالملاحظة في عدم اعتراف العباسيين وأمويي الاندلس بنسب الفاطميين ، علما بأنهم لم ينكروا قط شرعية غيرهم من مدعي الانتمــاء الى آل علي ، كأمراء طبرستان في المشرق وأمراء فاس فــي المغرب . ويروي ان المعز ، رابع الخلفــاء الفاطميين ، بعث بكتــاب مهين الى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الاموي الملقب بالناصر ، فردّه هذا وقد خط في حاشيته : « عرفتنــا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجــوناك » (٩) . الا ان ابن الجوزي يروي عكس ذلك تماما فيقول (١٠) ان الحكم بن الناصر لدين الله الامــوي كتب للعزيز ابن المعز كتابا يشتمه فيه ويشتم آلــه ويتهمه بالافتخار بنسب كاذب ، وبأن جده هو القداح الباطني ، ويبدأ الكتــاب بهذيــن البيتيــن :

ألسنــا بنــي مروان كيف تبــدلت
بنا الحــال أو دارت علينا الدوائر
اذا ولــد المولود منــا تهللــت
له الارض واهتزت اليــه المنابر

فلما اتصــل ذلك بالعزيز أجاب : « أما بعد فانك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لهجوناك » . لما كان الحكم قد توفي في العام ٣٦٦ ، ولما كان العزيز لم يتسنم العرش الا في العام ٣٦٥ ،

---

(٧) De Sacy , S. , Chrestomathie Arabe, Paris, 1806 , II , P96
الدروز ، مقدمة ، ص ٢٥٣ وما يليها . وستنفلد ، فاطميين ، ص ١٩٧ وما يليها . ابن خلدون ، المقدمة ، ٣٨٦ . [المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٠] .

(٨) **وستنفلد ، فاطميين ، ص ٢٣٨ .**

(٩) De Sacy , Chrestomathie , P 24 **. [أبو الحسن الروحي ، بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ، القاهرة ، ١٩٠٩ ، ص ٣٥] .**

(١٠) **(مرآة الزمان) ، مخطوطة اكسفورد ، بودليانا ، آوري ٦٧٩ ، تحت العام ٣٧٦ ، [الروحي ، بلغة الظرفاء ، ص ٣٥] .**

فمن الواضح ان هذا التراسل لم يحصل الا في العـام ٣٦٥ . بيد ان الخاتمة التي تأتي في موضعها من جـواب عبد الرحمن الناصر تبدو مضحكة في الرواية الثانية ، اذ لا يعقل أن يشكّ أحد في شرعيـة أصل الامويين في الاندلس . هذا هو سبب اعتباري الرواية الثانية مختلقة لتحلّ محل الاولى ، وأرى فـي ذلك دليلا على صحة الاولى .

ان ما حـدث في العام ٣٧٠ بين عضد الدولـة البويهي والعزيز حري حقا بأن يحوز اهتمامنا . كان عضد الدولة كأبيـه معزّ الدولة محبذا لآراء الشيعة . فلما بعث اليـه العزيز في العام ٣٦٩ رسالة يصف نفسه فيها بسليل النبي ، رد عليهـا عضد الـدولة بأدب ، ثم استدعى كبراء العلويين فـي بغداد والبصرة والكوفة ليستفسر منهم عن أصل الفاطميين . وقد أجمع المجتمعون عـلى التصريح بأن الفاطميين ليسوا من آل علي . وبالاضافة الى ذلك فحصت أنساب العائلة جميعها ، ووثائقهـا كلها المحفوظة في خزائن بغداد ، فـلم يعثر لانتساب الفاطميين المزعوم الى محمد بن اسماعيل عـلى أثر دليل . فما كان مـن عضد الدولة الا أن انفذ الى العزيز سفيرا يأمره باثبات كيفيـة اتصاله بالنبي ، ويهـدده بغزو مصر اذا عجز عـن الاستجابة لطلبه . عندئذ اصطنع العزيز نسبا نشر في كل مكان ولكنـه لم يصل الى البلاط البويهي لان السفير قتل في طريق عودته الى بغداد . فلما علم عضد الدولة بذلك أمر باحراق كتب الفاطميين واستعد للقيام بحملة على مصر ، ولكنه لم ينفذ عزمه (١١) .

ان ما يبديه أنصار الفاطميين من تردد عندما يحاولون سد الثغرة التي تفصل عبيد الله عن محمد بن اسماعيل يعطي الدليل الحاسم على فساد مزاعم أصلهم العلوي (١٢) . ويروي لنـا صاحب دستـور المنجّمين (١٣) ، وهو من غـلاة المعجبين

---

(١١) وستنفلد ، فاطميين ، ص ص ١٤٢ وما يليها ، ص ٥ .

(١٢) المرجع نفسه ، ص ٥ .

(١٣) مخطوطة باريس رقم ٥٦٩٨ ، ورقة ٣٢٣ . أنظر مختارات منه في الملحق.

بالفاطميين ، انه كان لمحمد بن اسماعيل ، الذي ربما التجأ الى الهند فرارا من اضطهادات هارون الرشيد ، ستة أبناء وهم : جعفر ، اسماعيل ، أحمد ، حسين ، علي وعبد الرحمن . الا ان صاحب الدستور عاجز عن اخبارنا أيهم كـــان الامام ، ويكتفي بالقول ان الائمـــة المستورين الثلاثة ، الرضا والوافي والتقي ، خلفوا محمد بن اسماعيل . اضف الــى ذلك ان ابن محمد بن اسماعيل الذي قد يتحدر منه عبيد الله ، هو ، بشهادة جميـع علماء الانساب ، عبد الله الذي تأتي قائمة صاحب الدستور على ذكره . ويلاحظ الطبري (١٤) عند الكلام عن أحد زعماء قرامطة الشام ممن ادعى الانتساب الى عبد الله بن محمد بن اسماعيـل انه « لم يكـــن لمحمد بن اسماعيل ابن يسمى عبد الله » . وفي [الكامل فـــي نسب آل أبي طالب لمحمـد بن الحسين بن عـلي ابن أبي طالب] (١٥) لا يذكر مــن أبنـاء محمد بن اسماعيـل الا اسماعيل وجعفر ، ويضيف بعضهم يحيى . ولا يذكر المؤلف أبناء لغير أحمد بن اسماعيل بن محمد ، وهم يقطنون في المغرب ولا يمتّون ، دون ريب ، الى الفاطميين بصلـة . وأما هؤلاء فلا أثر لهم في الكتاب البتة . وفي كتاب للانساب آخر نشر دي ساسي بعضا منه (١٦) ، يتصل نسب الفاطميين بمحمد بن اسماعيل عن طريق ابنه جعفر .

كان لجعفر بن محمد ، بحسب هذا الكتاب ثلاثة أبناء هم : اسماعيل وحسن ومحمد الحبيب . والمفترض أن يكون عبيد الله ابنا للاخير . واننا لنجد القول نفسه عنـد ابن خلدون (١٧) . لقد أعطى وستنفلد ، في تأريخه للفاطميين ، جدولا بيّن فيـه مختلف الطرق التي ربط بها نسبهم باسم محمد بن اسماعيل .

---

(١٤) تاريخ ، ٣ / ٢٢١٨ .

(١٥) مخطوطة ليدن رقم ٦٨٦ .

(١٦) De Sacy , Chrestomathie , II , P 95 .

(١٧) دي ساسي ، الدروز ، مقدمة ، ص ٦٦ ، الحاشية ٢ . [ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٠٦] .

وثمة حجة أخرى . نظن ان من واجبنا التأكيد على بعض الوقائع : ومنها انه بعيد تقلد عبيد الله زمام السلطة أثار أبو عبد الله الشيعي الشك حول حقه في الامامة ، مع العلم بأنه من أكبر المنتصرين لسلالته والمساهمين في وصولها الى الحكم ، ومنها تنكر اثنين من أكبر أنصاره في العراق وهما قرمط وعبدان ، ومنها أخيرا ان ابن المنجم الشاعر (١٨) اتهم الداعي بأنه انتحل صفة الامام واحتل مقامه . والجدير بالذكر أيضا ان قصائد الهجاء تصادف في مصر أيضا (١٩) ، وان المدافعين عن الاصل العلوي غالبا ما يضطرون اما الى حشر اسم عبد الله بن ميمون في قائمة النسب ، واما الى قبول صلة رحم عن طريق الامهات ، كما ان تحدر عبيد الله من ابن ميمون القداح (٢٠) ، أمر مسلم به تماما في كتب الدروز المقدسة .

يجد ابن الاثير (٢١) دليلا قويا على صحة نسبهم في قصيدة منسوبة الى الشريف الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦) يسمي فيها الشاعر خليفة مصر بابن عمه . ولكن لا اثر لهذه القصيدة في ديوان الرضي ولا ذكر لتاريخ وضعها . فان كانت أصيلة وجب أن يكون الرضي قد ألفها في صباه ، لانه لم يمثل ، بحسب الرواية ، بين يدي الخليفة القادر (٢٢) ، بل مثل أبوه ليبرره . الا ان هذه الفرضية ليست معقولة ، لان القادر الذي استخلف في العام ٣٨١ ، رفع الرضي الى مقام نقيب العلويين (٢٣) . يجعل ابن الاثير (٢٤) هذا التعيين في العام ٤٠٣ ، الا ان ذلك

---

(١٨) وستنفلد ، فاطميون ، ص ٤ .
(١٩) دي ساسي ، الدروز ، مقدمة ، ص ٢٥٤ .
(٢٠) المرجع نفسه ، ص ٦٧ ، ج ١ ، ص ص ٣٥ ، ٨٤ .
(٢١) الكامل في التاريخ ، تحقيق كارل تورنبرغ ، ليدن ، ١٨٦٥ ، ج ٨ ، ص ١٨ .
(٢٢) [في الاصل القاهر ولعله خطأ مطبعي ، فالقادر هو الذي تولى الخلافة في العام ٣٨١ بعد خلع الطائع ، بينما استخلف القاهر بعد مقتل أخيه المقتدر في العام ٣٢٠] .
(٢٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٤١٥ .
(٢٤) الكامل ، ج ٩ ، ص ١٧٠ .

لا يبدو لنا صحيحا ، علما بأن الرضي عيّن في أيام أبيه ليخلفه ، والمعروف ان الاب توفي في العام ٤٠٠ . ان انكار الاخير لشرعية أصل الفاطميين أمر لا خلاف فيه . ويكفي للاقتناع بذلك أن نلاحظ موقفه في العام ٣٥٩ (٢٥) . حقا ، لا يمكننا القبول بكون الرضي قد وقع مكرها على محضر العام ٤٠٢ الآنف ذكره . ولو شاء الاعتراف بالفاطميين والانضمام اليهم لكان بلا ريب ، وجد لذلك كل وسيلة ، ولكان استقبل في مصر بكل حفاوة واكرام . لذلك نعتقد بوجوب اعتبار رواية ابن الاثير كلها باطلة .

ولئن لم نجد ، كما رأينا ، سوى الغموض والاضطراب عند أنصار الاصل العلوي ، فاننا على الضد من ذلك ، قادرون على التوفيق بين الروايات المتفرقة التي لدينا عن أسرة عبد الله بن ميمون القداح وبين النسب الذي يجعل عبيد الله من صلبه . كانت لهذه العائلة نشاطات خفية تتم تحت ستار الكتمان الشديد، ولم يكن المعقل الذي يختبىء فيه الرئيس معروفا الا من قلة من الاتباع المخلصين . ولم يتساءل أحد عمن يكون عبيد الله هذا الا بعد ظهوره علنا . فالطبري يصف عبيد الله دائما بالبصري ، ولعله اعتبر قول القائلين انه « عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن البصري » (٢٦) . أما الصولي (٢٧) الذي كتب بعيد ذلك ببضع سنوات ، فيقول ان عليا بن سراج المصري « الحافظ لاخبار الشيعة » ، أطلعه على كون عبيد الله ابنا لعبد الله بن سالم من مدينة عسكر مكرم ، وحفيدا لسندان صاحب الشرطة ومولى زياد . وقد حكم الخليفة المهدي على سالم ، جد عبيد الله ، بالاعدام عقابا له على زندقته . ويردف الصولي قائلا ان آخرين

---

(٢٥) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٤٥١ .

(٢٦) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال بالاستناد الى طبعة دوزي ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

(٢٧) عريب بن سعد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٩٧ ، ص ٥٢ . الهمذاني ، [تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق البرت كنعان ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٤] .

يذهبون الى ان جد عبيد الله استقر عنـــد بني سهم من قبيلة باهلة (٢٨) ، ويبدو انه يعنـي ان معلومات ابن سراج لا يمكن أن تقبل بلا تحفظ . ثمة نقطة تتفق فيها هذه المعطيات معالتفاصيل الدقيقة فيما بعد ، ألا وهي كـــون جده من عسكر مكرم فـي خوزستان وكونه قد أقام في البصرة لفترة قصيرة من الوقت . وفي «الفهرست» (٢٩) لابن النديم ، الذي استقى منه أخو محسن معلوماته ، نص يعطينا تلك التفاصيل في دقائقها . كـان ميمون ابن ديصان (٣٠) القداح يقطن في قورج العباس (٣١) في ضاحية البصرة . ولا يسعنا القبول بكونه معاصرا لأبي الخطاب المقتـول نحو العام ١٤٥ ، كما يزعم ابن شداد (٣٢) فـي « تاريخ المغرب والقيروان » ، لان ذلك لا يتفق والتسلسل التاريخي ، ولعل ذلك يصح على ديصان أبيه . وبالفعل ينبغي جعل بدايـــة عمليات عبد الله بن ميمون في منتصف القرن الثالث الهجري (٣٣) كمـا

---

(٢٨) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٤٥ .

(٢٩) تحقيق فلوغل ، ليبزغ ، ١٨٧١ - ١٨٧٢ ، ص ١٨٦ وما يليها .

(٣٠) ابن الجوزي ، [المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيـــدر آباد الدكن ، ١٣٥٧ هـ ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١١٩ . يشيـــر المؤلف الى كلمتـي « ابن صداق » (ص ١٣) ، ولعـل تلك كـانت قراءته لكلمتي « ابن ديصان » الواردتين في المنتظم »] .

(٣١) يجب أن تقرأ قورج بدلا من قوزح . فقورج تعني قناة وقد تكون مشتقة من الفارسية كوره . وقد كانت الكلمة مستعملة في بغداد كما يتبيـن من يـاقوت الحموي ، معجـم البلدان ، تحقيق وستنفلد ، ليبزغ ، ١٨٦٦ ، ج ٤ ، ص ١٩٨ ، ومن سهراب [عجائب الاقاليم السبعة الـى نهاية العمارة ، تحقيق هانس فون مزيك ، فيينا ، ١٩٢٩ ، ص ص ١٣٢ ، ١٣٤] . والمكـان المذكـور في النص ورد في تـاريخ الطبـري ، ٣ / ١٨٦٨ ، ١٩٧٨ .

(٣٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٨ . النويري في الدروز ، مقدمة ، ص ٤٤٠ وما يليها .

(٣٣) يعارض وايل ذلك فـي كتابه :
Geschichte des Abbasiden Chalifen)
(Mannheim, 1846 - 1862 , Vol 2 P 502 .
ويجعل ولادة عبد الله حوالي العام ١٤٠ . ولكنه يعتبر ان أحمـد بن

سنتبين قريبا ، وكما قدر دي ساسي من قبلنا (٣٤) . وقد قيل ان ميمون كان ديصانيا أي من أتباع برديصان وان فرقة الميمونية سميت باسمه ، ولكن الزعم الاول لا يتعدى كونه فرضية مبنية على اسم أبيه ، وأما الزعم الثاني فمحض اختلاق . واذا عدنا الى المخترع الحقيقي للمشروع الجبار الذي تحدثنا عنه آنفا ، أي الى عبد الله بن ميمون ، فالمعروف انه كان يقيم في مدينة عسكر مكرم . كان يمتلك دارين في الحي المسمى بساباط أبي نوح ، هدمتا عندما اضطر الى ترك المدينة . ولا نعلم الى اي تاريخ أقام هو وابنه فيها . يقول « الفهرست » (٣٥) ان عبد الله اختبأ لمدة طويلة قبل العام ٢٦١ في البصرة حيث التجأ لدى أسرة عقيل بن أبي طالب ، ثم قصد الى سلمية حيث نظم عملية الدعوة الى مذهبه في بلاد الكوفة .

بيد ان هذه الرواية تتعارض مع ما نجده في مكان آخر من « الفهرست » (٣٦) ومع ما يؤكده لنا آخرون (٣٧) ، ألا وهو ،

عبد الله كان اماما حوالي العام ٢٧٥ . ان الاسناد التالي ، المأخوذ من [فردوس الاخبار بمأثور الخطاب لشيرويه بن شهريدار الهمذاني] مخطوطة ليدن ٣٥٥ ورقة ٩٦ وجه ، يقول أكثر مما تبينه مقالة كاملة : « رواه أبو نعيم رحمه الله (٣٣٤ - ٤٣٠) عن يحيى بن صاعد حدثنا أحمد بن شيبان حدثنا عبد الله بن ميمون القداح عن شهاب بن خراش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس رضي الله عنهما » . كان عند أحمد بن شيبان أحاديث من صالح بن مهران بن آبي عمر المتوفي ١٨٨ (ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٩٣٠ ، ج ٢ ، ص ١٢٧) والذي كان بحسب هذا الاسناد على بعد جيل من أبي نعيم ، وعلى بعد جيلين بحسب اسناد آخر [أبي نعيم ، ذكر أخبار أصبهان ، تحقيق ديدرنغ ، ليدن ، ١٩٣١ ، ج ١ ، ص ٧٩] . ان فحص هذا الاسناد يرجعنا الى النتيجة التي توصل اليها دي ساسي .

(٣٤) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ٦٧ ، ١٦٥ .

(٣٥) ص ١٨٧ . قارن دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٤٥ .

(٣٦) ص ١٨٨ .

(٣٧) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٤٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٢١ وما يليها .

أن عبد الله تلقى الدعم الاكبر من أحـــد كتاب الامير أحمد بن عبد العزيز بن دلف في الكرج ، وكان يدعى محمد بن الحسيـن ويلقب بالدندان (أو زيدان) (٣٨) . لما كان أحمد بن عبد العزيز لم يعتل العرش الا في العام ٢٦٥ (٣٩) ، ولما كان الكاتب المذكور قد اجتمع الى ابن القداح ، أي عبد الله أو ابنـــه ، في عسكر مكرم قبيل أن يبعثه حمويه وزير ابن أبي دلف ، فمـن البين ان مغادرة عسكر مكرم لا يمكن أن تحصل الا بعد هذه السنة . من المحتمل أن تقع مهمة دندان في تلك السنة ذاتها أو في السنـة ٢٦٦ . لقد ربط ابن أبي دلف طاعته لحكومة بغداد بشروط لـم يشأ الخليفة القبول بها ، لذلك تقرب في العام ٢٦٦ من عمرو بن الليث (٤٠) . فما كان من الخليفة الا أن أمر قواته فقامت بيـن العامين ٢٦٦ و ٢٦٨ بثلاث محاولات للقضاء على ابن أبي دلف (٤١) . وفي العام ٢٧٣ انحاز ابن أبي دلف الى جانب الخليفـــة فقاتل عمرو بن الليث (٤٢) . يمكننا اذن الحكم بكـون المفاوضات مـع الخليفة قد جرت بعد العام ٢٦٨ . الا ان حصـــول هذا قليل الامكانية في ذاته ، ويغدو حصوله أقل امكانيــة اذا علمنا (كما سنرى من بعد) ان اقامة ابن القداح في عسكر مكرم لا يمكن أن تتعدى العام ٢٧٠ .

من الواضح اذن ان مقر قيادة عسكر مكرم لم يترك قبـــل

---

(٣٨) يؤكـــد غيـــار فـــي : Un grand maître des Assassins , Journal Asiatique , 1877 , I , P333 note 4 .
ان دندان اشتقاق فاسد من زيدان دون أن يعطي حجة تدعم رأيه . ان القراءة « دندان » تبدو لي أفضل . يتحدث ابن الجوزي (المنتظـم ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١١٨) عن أحد أحفاد بهرام جور الذي يعتقد انـــه كان صاحب الحركة المناوئة للعرب التي نظمها عبد الله بن ميمـــون ، ومن الجائز أن يكون قصد دندان .

(٣٩) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٩٢٩ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ٢٢٧ . وقد توفي في العام ٢٨٠ .

(٤٠) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٩٣٧ .

(٤١) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٩٤٠ ، ١٩٦٧ ، ٢٠٢٤ .

(٤٢) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١١٢ .

العام ٢٦١ . ومن الثابت أيضا ان الدعوة في بلاد الكوفة كانت قد بدأت منذ أواسط القرن الثالث . واذا كان الكندي ، الذي كتب حوالي العام ٢٥٥ ، قد سمع بعبد الله بن ميمون ، كما يفترض لوت (٤٣) ، فان هذا يكون دليلا حاسما . ولكننا لسنا بحاجة الى هذا الدليل ، اذ انه في الحقبة التي كان فيها زعيم ثورة الزنج ، في جنوبي العراق ، في أوج قوته ، أي قبل ٢٦٧ ، كان القرامطة على قوة لا يستهان بها (الطبري ، تاريخ ، ٣/١٢٣٠) ، وهذا يؤكد نص « الفهرست » (ص ١٨٧) الذي ينبئنا ان بعثة العراق كانت قد نظمت منذ العام ٢٦١ .

أما عن الدعوة في بلاد الكوفة ، فلدينا روايتان مثبتتان في مقدمة كتاب دي ساسي عن الدروز . الاولى منهما (ص ١٦٨ وما يليها) لأخي محسن (أو لمصدره ، ابن رزام) ويمكن الوقوف عليها في « الفهرست » ، وسأشير اليها بالحرف (أ) . والثانية (ص ١٧١ وما يليها) هي في الواقع للطبري (٣ / ٢١٢٤ وما يليها) الذي أخذها من شخص حضر استجواب محمد بن داود بن الجرّاح لسلف زكرويه القرمطي ، وسأشير اليها بالحرف (ب) . تتفق الروايتان على القول بأن الداعي كان من الاهواز ، وفي الرواية (أ) يدعى حسين . وتذهب هذه الرواية الى القول بأنه استقر في قس بهرام ، بينما تقول (ب) انه مكث في النهرين . من الممكن أن تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين ، لان النهرين مقاطعة من مقاطعات البهقباذ الاعلى (٤٤) . كان الهيصم العجلي يمتلك جزءا كبيرا من هذه الناحية ، وكان يعتبر رجلا ذا نفوذ في العام ٢٥٠ (الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٩٢٠) ، وقد ظل كذلك

---

(٤٣) « Kindi als Astrolog » , Morgenlandische Forschungen, Leipzig, 1875 , P 307 .

(٤٤) **قارن الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٢٤ الحاشية ، ان القراءة « النهرين » تؤكدها مخطوطة ابن مسكويه [تجارب الامم ، مخطوطة باريس ٥٨٣٨] . ومما يؤسف له ان دي ساسي (مقدمة ، ص ١٦٧) أسقط أسماء بعض المواضع المجاورة .**

من العام ٢٦٧ وحتى ٢٦٩ (٤٥) . لا نصادف اسم حمدان في الرواية (ب) ، ولكن الطبري يضيف فورا ان محمد بن داود بن الجرّاح قال لاحدهم ان الحوذي الذي استقبل الداعي كان اسمه حمدان الملقب بقرمط . وتقول الرواية (ب) : « وسمي [أي الداعي] باسم الرجل الذي كان فيمنزله ، صاحب الاثوار ، كرميته ثم خفف فقالوا قرمط » (٤٦) . ولكن هذا ، بلا شك ، سوء فهم . فالروايتان تجمعان على ان الداعي كان يكسب قوته من نظارة منابت النخيل وانه كان يبيت عند حمدان قرمط . وتذهب الرواية (أ) الى انه توفي ، أما الرواية (ب) فتقول انه ارتحل الى الشام بعد أن عيّن حمدان قرمط داعي دعاة ، ولا يسمع بعد هذا شيء عنه . وهذا التصور قد يثبت فرضية حصول ذلك التنظيم في العام ٢٥٠ أو بعيد ذلك بقليل ، لان ابن حسين بن عبد الله بن ميمون ، الذي تسمى بسعيد أولا ثم بعبيد الله المهدي ، وله في سلمية في العام ٢٥٩ أو في ٢٦٠ (٤٧) . لا نجد في رواية الطبري الا بعض الكلمات عن الداعي : « فكان ابتداء أمرهم [القرامطة] قدوم رجل من ناحية خوزستان الى سواد الكوفة » . أما أخو محسن ، على العكس من ذلك ، فيقول ان الذي بعثه من سلمية هو أحمد بن عبد الله بن ميمون . ويروي دي ساسي (دروز ، مقدمة ، ص ١٦٦) ذلك بالعبارة التالية : « اضطر عبد الله بن ميمون الى الهرب من الاهواز ثم من البصرة والالتجاء ، كما رأينا (ص ٧١) ، الى سلمية في بلاد الشام . وقد توفي في تلك المدينة ، فأصبح ابنه من بعده الرئيس الاعلى لفرقة الاسماعيلية . وقد أقام هذا أيضا في سلمية وبعث منها أحد دعاته المسمى حسين الاهوازي » . وينسب دي ساسي الدعوة الى العام ٢٧٤ . الا ان هذا التاريخ

---

(٤٥) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٩٩٦ ، ٢٠٤٠ .

(٤٦) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٢٧ .

(٤٧) كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق ، [تحقيق عمر السعيدي ، دمشق ، ١٩٧٢ ، ج ٤ ، ص ١٥١] . ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ١١٩ . ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٠٦ وما يليها .

ليس صحيحا . وفيما عدا ذلك ، ففقـد رأينا آنفا انه لا يمكن اعتبار رحيل الامام قد تم قبل العام ٢٦٦ . وبما انـه لم يترك المكان مختارا ، فأظن ان بوسعي تأخير رحيله الى ما بعد العام ٢٧٠ . وفي الواقع لم تكن ملاحقة المنظمات السرية لتخطر ببال قبل قمع انتفاضة العبيد ، نظرا للفوضى التامة التي كانت تسود خوزستان آنذاك ، والتدقيق في مدى صحة هـذه الرواية أمر صعب . أنا مقتنع ان تنظيم فرقة القرامطة في العراق لـم تتم ادارته من سلمية ، فاذا كان حسين الداعي هو والد عبيد الله ، كما افترضته آنفا ، فذكر اسم أحمد بن عبد الله في هذهالرواية يصبح باطلا . ولعل استبدال الاسماء بهذه الصورة يرجع الى ان أحمد كان اماما في سلمية في العام ٢٧٤ . وأظن انه من المعقول أن يكون عبد الله بن ميمون قد توفي في عسكر مكرم ، وان لم أعلم ذلك علم اليقين . وقد خلفه في بادىء الامر ابنه محمد ثم ، بعد وفاة الاخير ، ابنه الثاني أحمد كما نجد في «الفهرست» . ومن حقنا أن نعتقد ان أحمد هذا هو الرئيس الـذي أقام في البصرة فترة والذي كان حوالي العام ٢٦٦ في الكوفـة حيث شرع في تنظيم بعثة اليمن (٤٨) ، وانه هو الـذي مكث مؤقتا فـي بغداد (٤٩) . ومن الجائز أن يكون هو نفسـه أحمد الكيّال (٥٠)

---

(٤٨) دي ساسي ، دروز ، مقدمـة ، ص ص ٢٢٥ ، ٤٤٥ وما يليهـا . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٢ . دستور المنجمين فـي الملحق . من المحتمل جدا ان محمدا الحبيب الذي اتصل به ابو عبد الله قبـل ارتحاله الى اليمن (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٣٧) ليس سـوى أحمد نفسه . ويلقبه واضع دستور المنجمين بلقب « صاحب الظهور » لانه المحضر لظهور المهدي .

(٤٩) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٥١ . كان عبيد الله أيضـا فـي بغداد . وعند دخوله القيروان قال لابي عبد الله الشيعي ان رؤيـة الجموع تذكره ببغداد . قارن كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٥٠) الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق أحمد فهمي ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ج ١ ، ص ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،

Von Kremer, A. , Die Herrschenden Ideen des Islams , Leipzig, 1868 . P 196 note 2 .

الذي وضع كتابا في الامامة فألف الرازي الشهير (توفي في العام ٣٢٠) كتابا في الرد عليه (٥١) . ونجد في رواية النويري (٥٢) : « ولما مات أحمد سار حسين الى سلمية وله بها ودائع وأموال عظيمة » . ولكني أعتقد ان ههنا خطأ ، والحقيقة هي ان أحمد شخص الى سلمية عندما توفي حسين ، والد عبيد الله . ويبدو ان هذا هو الرئيس الحقيقي الذي كان يستسنح الفرصة للظهور أمام الناس بمظهر المهدي حفيد محمد ابن اسماعيل . وبوسعنا أن نطبق عليه وعلى أحمد كلمات النويري التالية : « وكان هذا ملما بآداب الملوك ، أما الذي في سلمية فكان يزعم انه الوصي وصاحب الامر دون سواه من ولد القدّاح » (٥٢) .

ولكن النويري يقصد ب « هذا » أبا شلعلع الذي يدعوه بمحمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون ، ويعتبر ان حسينا هو من أبناء أحمد هذا . ما مدى صحة هذا الاعتبار ؟ وكما عند النويري ، فاننا نقرأ عند المقريزي (٥٣) انه كان لاحمد بن عبد الله ابنان هما : حسين ومحمد أبو شلعلع ، ويزعم ان حسينا خلف أباه في بادىء الامر ، ثم ان أبا شلعلع صار وصيا على ابن أخيه سعيد بن حسين أي عبيد الله . بيد ان معظم المصادر تدعو هذا العم الوصي على عبيد الله أحمد : اما أحمد بن عبد الله بن ميمون ، واما أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون (٥٤) . ولكني أعتقد ان المعطيات الاولى هي الاصح . وكما تقول رواية

---

(٥١) النديم ، الفهرست ، ٣٠١ . ابن أبي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٤٢٥ .

(٥٢) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٥١ . [النص موجود في أحد أجزاء نهاية الارب (٢٦ ؟) التي ما زالت مخطوطة . ولم أتمكن من الحصول على صورة للنص الاصلي بالرغم من المساعي التي قمت بها . والكلام المثبت هنا هو أقرب ما يمكن من الاصل] .

(٥٣) الخطط ، ج ١ ، ص ص ٣٤٨ ، ٣٩٦ .

(٥٤) النديم ، فهرست ، ص ١٨٧ . البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٣٩ .

النويري نفسه (٥٥) فقد قضى أحمد بن عبد الله بن ميمون نحبه قبيل العام ٢٨٦ ببضع سنوات ، وكان كما تؤكد روايات أخرى، اماما في العام ٢٧٤ . الآن ، بما ان سعيدا ـ عبيد الله ولد في العام ٢٥٩ أو ٢٦٠ ، فلا مجال للوصاية عليه من بعد موت أحمد . ولئن مورست هذه الوصاية ، وهذا هو الاغلب في الظن ، فلا بد ان أحمد كان الوصي . وبامكاننا أن نلاحظ أيضا ان كتب الدروز لا تعتبر سعيدا ـ عبيد الله ابنا لاحمد وحسب ، بل ابنا لابي شلعلع (٥٦) أيضا ، وهذا ما قد يبدو اثباتا لكون أحمد وأبي شلعلع شخصا واحدا . أعتقد ان سعيدا كان يعتبر ابنا له لانه خلفه في رئاسة الدعوة ، وهذا التصور يذلل كل الصعوبات. وهاكم تصوري للقصة : كان حسين بن عبد الله بن ميمون أول من بعث الى سلمية . وقد توفي في أيام أبيه كما يذكر « الفهرست » ، وكان سعيد ـ عبيد الله ما يزال طفلا كما يذهب دي ساسي (٥٧) ، أي حوالي العام ٢٧٠ تقريبا . عندئذ انتقلت شؤون الدعوة الى أخيه أحمد الملقب بأبي الشلعلع ، فقام بالوصاية على سعيد حتى حضرته المنية حوالي العام ٢٨٠ (٥٨) . في تلك الحقبة تسلم سعيد شخصيا زمام الامور ، وصار اماما . وفي العام ٢٨٠ ولد له ابن ، سماه محمد ، وهو الذي سيصبح ، من بعد ، ثاني الخلفاء الفاطميين . من الواضح ، حسب التسلسل التاريخي للاحداث ، انه ليس بامكاننا افتراض عدم كون سعيد ـ عبيد الله حفيدا لعبد الله بن ميمون بل حفيد أحد أبنائه ، أو حتى حفيد أحد أحفاده ، ولعل أن يكون هذا الابهام ناتجا عن تسمية أحمد ، الملقب بالشلعلع ، بمحمد أيضا . ان نظرتي الى الامور تتيح ، الى حد ما ، امكانية الجدل في أسماء الائمة المستورين الثلاثة عبد الله وأحمد وحسين .

---

(٥٥) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٥٦) المرجع نفسه ، مقدمة ، ص ٦٧ ، ٢٥٢ . ج ١ ، ص ص ٢٧ ، ٨١ ، ٨٥ .

(٥٧) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢٥٢ ، حاشية ٢ .

(٥٨) المرجع نفسه ، ص ٦٧ .

وتتحدث الروايات عن أبناء آخرين لعبد الله بن ميمون (٥٩) .

« فالفهرست » يذكر ابنا قاطنا في طالقان كـان يكاتب حمدان قرمط . وفي رواية أخرى للنويري (٦٠) مليئة بالاخطاء ، يؤتى على ذكره أيضا . على الرغم من كل ذلك فاننا نجهل ما صار اليه هو واخوانه الآخرون . وليس في ذلك مدعـاة للدهشة ، لانهم لم يكلفوا بغير القيام بأدوار ثانوية . أن لا يكون لمحمد بـن اسماعيل ولد باسم اسماعيل ، أي الاسم الذي انتسبت اليـه الحركة الاسماعيلية ، وأن يدعي الحق في مقامه ، في الـوقت المؤاتي ، ولد من ذرية عبد الله بن ميمون ، كان كل ذلك بالطبع سرا لم يطلع عليه سوى شخص واحد هو صاحب الامر الـذي كانت تتكدس عنده الكنوز المجموعة لتحقيق المشروع العظيم .

(٥٩) المرجع نفسه ، ص ص ٤٤٥ ، ٤٥٠ .
(٦٠) المرجع نفسه ، ص ص ١٩٦ ، ٢٠٠ .

٣ – تنظيم الدعوة ونشرها

نرى في الروايات التي لدينا كيف كان يتم كسب المستجيبين الاول . ان اشباع حاجات الحواس هو من الامتاع لمعظم الناس بحيث ان ذاك الذي لا يأبه لها البتة ، بل يقتصر فيما يحتاجه على الضروريات ، لا بد من أن يثير اعجاب الجمهور . واذا اقترن زهده بالقيام بالفرائض الدينية الصارمة ، فلا ريب انه ، سيعتبر ، حتى في نظر نفسه ، قديسا . ولن يصعب على القديس أن يستحوذ على ألباب الناس اذا كان على شيء من الغموض وتمكن ، بفضل سعة اطلاعه ، من اسداء بعض النصائح الرشيدة . كان دعاة الفاطميين ، على ما يقال ، مشعوذين بارعين ، قادرين على صنع بعض المعجزات : فمثلا كانوا يطلعون بواسطة الحمام الزاجل على الاحداث قبل أن تعرف في محل اقامتهم بوقت طويل . بذلك تمكنوا من أن يتنبأوا بنبوءات تصح حتما (١) . بالاضافة الى ذلك كانوا متضلعين بعلم الفلك . الا ان سلاحهم الاساسي كان محبة المؤمنين لآل البيت ، تلك المحبة التي أحياها الدعاة العلويون والعباسيون في كل مكان بعد مقتل الحسين المفجع . والمناورات نفسها التي استعملت للاطاحة بدولة الامويين ، استخدمت بنجاح ، من جديد ، ضد العباسيين عندما اتضح ان حكمهم لم يحقق عهد السلام والعدل والازدهار المؤمل . لكي يتمكن العباسيون من هزم الامويين أثاروا قضية

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١١٩ .

حقوق آل البيت غير المنازعة في الخـــلافة ، مما كان يستتبع القول بأن الامويين مغتصبين للسلطة . ولم يفت العلويين ، أن يطبقوا هذا المبدأ عـــلى العباسيين ، لذلك لم يصعب عليهم أن يوحوا الى الناس بأمل ولادة المهدي المنقذ في بيت علي ، ولا أن يلتمسوا بشرى مجيئه ، بالتأويل ، مـــن القرآن نفسه . هكذا كانت السبل ممهدة لان يرى الناس في المهدي كائنا فائقا ينطق بالحق ويستحق الطاعة العمياء . لم يكن ثمة من ضرورة للتصدي لسلطة القرآن (٢) ، بل اقتصر عـــلى ادانة التفسيـــر الحرفي الشائع ، ورفض المبادىء المبنية عليه والشعائر الدينية المتفرعة عنها . وقد استعيض عن كل ذلك بالسلطة المذهبية للامام الحقيقي لانه العارف الامثل بحقيقة الدين . وتجدر الاشارة هنا الى انه استخدم تلك السلطة للحضّ على التضحية والاعراض عن المنافع مما يسهل على المرء بذل التضحيات . وواضح ان الحركـــة كانت موجهة ضد سلالة العباسيين المالكة وضد دين الدولة . ولا أدل على هذا العداء من رد أحد زعماء القرامطة على الخليفة المعتضـــد الذي استجوبه في العام ٢٨٩ قائلا : « هل تزعمون ان روح الله وأنبيائـــه تحلّ فيكم فتعصمكم مـــن الزلل وتوفقكم لصالح العمل ؟ » فقال له : « يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك ؟ فلا تسأل عمّا لا يعنيك واسأل عما يخصك » . فلما ألحّ الخليفة على معرفة ما يقوله القرمطي فيه أجابه هذا : « أقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حي ، فهل طلب الخلافة أم هل بايعه أحد مـــن الصحابة على ذلك ؟ ثم مـــات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص اليه ، ثم مات عمر وجعلها شورى فـــي ستة أنفس ولم يوص اليه ولا أدخله فيهـــم ، فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟ » (٣) .

(٢) أنظر مثلا الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٦٥ .

(٣) [ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ ، ص ص ١٨ ، ١٩ . ابن خلدون ، كتاب العبر وديـوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ. ، ج ٤ ، ص ٨٦ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٥٤] .

ومــــن بين الاسباب التي يسرت نمو حركــــة القرامطة وسيادتهم ينبغي أن نذكر ثورة الزنج التي نكبت بها بلاد البصرة لمدة خمس عشرة سنة (٤) . فنتيجة للفوضى السائدة فيجنوبي العراق تمكنت الدعوة مـــن تنظيم المستجيبين في الامكنة كلها ، حتى انمسألة التحالف مع أمير الزنج أثيرتجديا لفترةمنالزمن. وينقل لنا الطبري (٥) رواية رواها سلف زكرويه وسمعها الاخير من قرمط ، داعي دعاة الكوفة : « قال لي قرمط : صرت الى صاحب الزنج ، ووصلت اليه وقلت له : اني على مذهب ووراثي مئة ألف سيف ، فناظرني فان اتفقنا على المذهب ملت بمن معي اليك ، وان تكـــن الاخرى انصرفت عنك . وقلت له : تعطيني الامان ؟ ففعل . قال : فناظرته الى الظهر ، فتبين لي في آخر مناظرتي اياه انه على خلاف أمري ، وقام الى الصلاة ، فانسللت فمضيت خارجا من مدينته وصرت الى سواد الكوفة » . مع ذلك كان من الممكن أن يقتربا أكثر لان أمير الزنج كان يدّعي الانتساب الى علي (٦) ولأن الكثيرين كانوا يعتقدون بصحة نسبه (٧) .

أتاحت نهاية ثورة الزنج للدولـــة العباسية حريـــة أكبر للتحرك ، ولكنها لم تفكر آنئذ باتخاذ تدابير جدية ضد القرامطة. ويروي الطبري (٨) ان أحمد بن محمد الطائي ، الرجل القوي ، الذي عيّن واليا على العراق الغربي فـــي العام ٢٦٩ (٩) ، فرض جزية قدرها دينار واحد على كل منتم الى الفرقـــة وانه جمع بذلك مبالغ طائلة . الا ان بعض أهل الكوفة قدموا بغداد ليحذروا الحكومة من قوم « أحدثوا دينا غير الاسلام وانهم يرون السيف

---

(٤) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٩٣ .

(٥) تاريخ ، ٣ / ٢١٣٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ٣ / ١٧٤٢ ، ١٧٤٣ ، ١٨٥٧ .

(٧) ابن مسكويه [تجـــارب الامم ، مخطوط باريس رقم ٥٨٣٨ تحت العام ٢٥٥] : « وسمعت من لا أرتاب به ولا بخبره أنه صحيح النسب » .

(٨) تاريخ ، ٣ / ٢١٢٧ .

(٩) وقد عزل من منصبه فـــي العام ٢٧٥ (الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٠٣٩) وتوفي في العام ٢٨١ .

على أمة محمد » (١٠) ، فما كان من الطائي الا أن أجهض مهمتهم وعامل المتهمين (بكسر الهاء) بطريقة جعلت أكثرهم تحمسا لمتابعة القضية جديا ، لا يجرؤ على العودة الى بلاده ، خشية أن يضطهد .

ولئن عدنا الى تنظيم الامور أثناء بعثة العراق الاولى ، فليس عند الطبري الكثير عن هذا الموضوع . فهو يقول انه كان على كل مؤمن أقسم يمين الولاء ، أن يدفع قطعة ذهبية للامام (١١) ، كما فرض عليه أن يصلي خمسين صلاة في اليوم (١٢) . وقد كلف اثنا عشر نقيبا بكسب الاتباع للمذهب ، أسوة بالحواريين الاثني عشر أو بالعباسيين في أيام الامويين (١٣) .

ولكن نصوص أخي محسن التي أطلعنا عليها دي ساسي ، والتي احتوتها موسوعة النويري ، توفر لنا بعض التفاصيل عن اجراءات حمدان قرمط الاخرى . كان يتذرع بذرائع مختلفة ليطلب من المؤمنين اسهامات مالية للامام . فقد بدأ بمطالبة أتباعه بضريبة خفيفة سماها الفطر : وهو اسم الصدقة التي يؤديها المسلمون في نهاية صوم رمضان . لم يتجاوز هذا التكليف قطعة فضية واحدة عن كل رأس ، رجلا كان أم امرأة أم ولدا ، وقد سارع الجميع الى دفعها . وبعد مضي فترة من الزمن فرض عليهم فريضة أخرى أطلق عليها اسم الهجرة ، وكان قوامها قطعة ذهبية تجب على كل من بلغ سن الرشد . واللفظ يعني الهرب ومن المحتمل أن تكون سميت كذلك ، كما يظن دي ساسي ، لانها كانت مخصصة لتأسيس دار الهجرة وصيانتها ، وسيأتي ذكرها

---

(١٠) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٢٧ .

(١١) كانت هذه المساهمة تسمى « نجوى » ، راجع دي ساسي :
Chrestomathie , I , 182 .

(١٢) Guyard, Fragments, P 125 , note 43 .

(١٣) البلاذري ، أنساب الاشراف ، مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس ٦٠٦٨ ، الاوراق ٧٥٠ وجه ، ٧٧٠ ظهر وما يليها .

فيما بعد . وقد دفعت هذه الضريبة أيضا بحماس شديد . كان المكلفون يتعاونون على تسديدها ، كما ان القادرين كانوا يدفعون عن الفقراء . ثم ما لبث قرمط أن طلب من المستجيبين المتقدمين في الفرقة ، البلغة وهي سبع قطع من الذهب . ولفظ البلغة يعني كمية الغذاء الضرورية لاستمرار الحياة . وقد سميت تلك الضريبة كذلك لان كل من كان يدفعها كان يحصل على قطعة بحجم حبة البندق من أكلة شهية زعم قرمط انها غذاء أهل الجنة وانها مرسلة من لدن الامام (١٤) . وبعد أن نجح في استيفاء البلغة منهم طالبهم بخمس ما يملكون وما يتكسبون بأعمالهم . لذلك قوّموا كل ما يملكون وقدموا له الجزء المطلوب بحرص بالغ ، حتى ان النساء دفعن خمس الخيط الذي يغزلن والرجال خمس كسبهم اليومي . فلما توطأ له الامر ذهب قرمط الى أبعد من ذلك ففرض عليهم الالفة ، وهي أن يجمعوا أموالهم في موضع واحد ، وأن يكونوا فيها أسوة واحدة ولا يفضل أحد منهم صاحبه أو أخاه في ملك يملكه .

وأقام الدعاة في كل قرية رجلا مختارا من ثقاتها يكلف بجمع كل ما يملكه أهل القرية من ماشية وحلي ومتاع وما اليها . وبالمقابل كان على هذا المدبّر أن يوفر الكساء للعراة وينفق على سائرهم ما يكفيهم ، حتى لم يبق فقير واحد قط من المستجيبين للدعوة . كان كل واحد يعمل بكثير من المثابرة والمنافسة لاستحقاق رتبة أرفع عن طريق المنافع التي يقدمها للمجموعة ، فكانت النساء يقدمن ثمرة غزلهن ، كما ان الاولاد كانوا يدفعون أجرة حراستهم الحصاد من العصافير . لم يعد أحد منهم يملك شيئا سوى سيفه وسلاحه . فلما ترسخت هذه المؤسسة ، أمر قرمط دعاته بجمع جميع النساء ذات ليلة ليختلطن بجميع الرجال من غير تمييز . كان ذلك في نظره منتهى الصداقة والاتحاد الاخوي . واذ آنس من نفسه السيطرة التامة على نفوسهم وتيقن من طاعتهم له ، أباح لهم النهب وكل ما شابهه من التجاوزات ،

(١٤) [يفهم من كلام المقريزي (اتعاظ ، ص ٢١٠) انها ما يتقرب به من الله]

وعلمهم أن يخلعوا نير الصلاة والصوم وسواهما من تعاليم الاسلام ، قائلا لهم ان معرفة المعلم والحقيقة التي اطلعهم عليها تكفيهم مؤونة كل ذلك ، وانهم ان ثبتوا في الايمان فلا خوف عليهم من المعصية والعقاب .

لما كنا نعدم أي وسيلة للتثبت . فلا يسعنا قط أن نحدد الى أي مدى يمكننا قبول هذه الاقوال التي تنم بوضوح عن روح عدائية . يبدو مؤكدا ان القرامطة قدموا تضحيات مالية كبيرة من أجل الامام ، لانهم استمروا في تخصيص خمس مداخيلهم له فيما بعد . وبما ان هذه التقدمات كانت تضخم كنز المهدي ، فان المكلفين كانوا يرجون نجاح مشاريعه وكانوا يهتمون بها أكثر فأكثر . لذلك يجوز لنا القول ان شراكة الاموال كانت ، الى حد ما ، معروفة لدى أوائل القرامطة ، اذ ان هذا النظام كان ينسجم تماما مع الامل في رؤية ملكوت الله يتحقق قريبا على الارض ، وصيرورة الارض عندئذ ملكا للمؤمنين ، واننا لنجد آثار ذلك عميقة عند قرامطة البحرين . وبالمقابل ، فان ما يذكره النص الاصلي بتفاصيل اكثر مما أعطينا عن شيوعية النساء ، يصعب ، على التحقيق ، تصديقه ، وسأعود اليه من بعد . وثمة خطأ آخر يجب التنبيه اليه في مستهل تلك الروايات : فهي تظهر حمدان قرمط رجلا حاد الذكاء ، واسع الحيلة ، بارعا في التنويه ، حاذقا ، يدفعه طموح لا حدّ له ، محبا للظهور ، قادرا على اخفاء مقاصده السيئة تحت قناع العلم والحماس العظيم لحزب العلويين . هذه في الحقيقة تهمة ، لان اخلاص قرمط في حماسه الديني فوق الشبهة .

كان صهره عبدان أداته الرئيسية . كان عبدان هذا كاتم أسراره ، ومؤلف معظم كتب الفرقة المقدسة ، وهو الذي عيّن زكرويه داعي العراق الغربي وأبا سعيد الجنابي داعي فارس الجنوبية (١٥) . أما قرمط نفسه ، فقد أقام في كلواذى على مقربة من بغداد ، حيث كان يسهل عليه البقاء على اتصال ببعثة

---

(١٥) ابن حوقل ، المسالك ، ص ٢١٠ .

خراسان (١٦) وبالامام المقيم في عسكر مكرم . كانت اقامة قرمط هناك تتيح له أفضل الفرص للاطلاع علـى مجريات الامور في العاصمة وتعديل خططه بما تتطلبه الظروف . يعطينا «الفهرست» تاريخا متقدما عن تلك الاقامة فيجعلها في العام ٢٦١ ، ولا يسعني الفصل في صحة ذلك التاريخ بالنسبة الـى الاقامة . ويذهب أخو محسن (١٧) الى ان « دار الهجـرة » قـد بنيت في بعض نواحي الكوفة في العام ٢٧٧ ، وهي نوع من دار ولايـة لحكم العراق ، سأعود الى الكلام عنها فيما بعد .

في تلك الآونة ، آنس القرامطة من انفسهم القوة الكافيـة البدء بالعمل . ويجمع الطبري وغيره من المؤرخين على القـول انه في العام ٢٧٨ تناهت الى بغـداد أولى أنباء تحركات هذه الفرقة . هذا الخبر يعني بوضـوح انه عندئذ فقط ، وللمرة الاولى ، أدرك الناس في العاصمـة ان القضية جدية ، وبدأوا يتساءلون : من هم هؤلاء القرامطة ؟ بيد اني لا أعتقد ان القرامطة شهروا السلاح في تلك السنة ، لان أحدا من المؤرخين لا يـذكر ذلك . ان أول ذكر لانتفاضة صغيرة يرقى الى العام ٢٨٤ (١٨) ، ويدل ذلك على انه كان للقرامطة ، في تلك الفتـرة ، مناصرون بارزون في العاصمة نفسها . تلي تلك انتفاضات الاعوام ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ والتي قمعت جميعها (١٩) . فالمعتضد ، الخليفـة القوي الذي اعتلى العرش في العام ٢٧٩ ، لم يكن ليسمح لايـة انتفاضة بالانتشار . لذلك كان خوف زعماء القرامطة من الخليفة عظيما ، حتى ان سلف زكرويه الذي تحدثت عنه آنفا ، يروي (٢٠) ان هذا الداعي قضى أربع سنوات مختبئا في قبو منزله وفـي مخابىء أخرى ، وانه لم يجرؤ على الظهور في حيـاة المعتضد .

---

(١٦) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٨٧ .

(١٧) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٩٢ .

(١٨) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٧٩ .

(١٩) المصدر نفسه ، ٣ / ٢١٩٨ ، ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٦ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ٣ / ٢٢٢٦ .

فلما توفي الخليفة في العام ٢٨٩ شرع القرامطة يعملون بنشاط في الشام في العام نفسه .

وفي الوقت نفسه استمر العمل بقوة على بث الدعوة خارج العراق . وقد بدأت بعثة اليمن في العام ٢٦٦ ، كما انه منذ العام ٢٧٠ تجرأ القرامطة على الظهور علنا . وفي العام ٢٩٣ تناهى الى بغداد نبأ احتلال اليمن الا أقله وخوف المكيين من الخطر المحدق (٢١) .

(٢١) المصدر نفسه ، ٣ / ٢٢٦٧ .

٤ ـ أبو سعيد الجنابي

لم تكن نتائج بعثة أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الى نواحي فارس الجنوبية قليلة الاهميــــة ، فان أولى عظاته لاقت نصيبا وافرا من النجــاح . علّم أبو سعيد ان الله يمقت العرب لانهم قتلوا الحسين ، وانه يحب رعايا الاكاسرة وخلائفهم لانهــم الوحيدون الذين قاموا لنصرة حقوق الائمة في الخلافة ، وان ثمة أشياء بالغة الخطل في الكثير من أوامر الانبياء (١) . ان مذهبا كهذا لم يكن ليعدم القبول الحسن في فارس التي كـــان أهلها يكرهون أبناء لصوص الصحراء ، ويعتبرون دينهم الذي أثقــل كاهل المغلوبين بالضرائب أمرا منكرا .

ولقد توصل أبو سعيد الى حمل الفرس على تطبيق تعاليم مذهبه الاشتراكية ، فقام شخصيا بأعباء ادارة أموال الجماعة . ولكن بائع الطحين سابقا ــ تلك كانت في الماضي مهنته ــ لم يكن ليتمكن دائما من الافلات من عيون الشرطـــة . وذات يوم ، استولت الشرطة على كل ما كان قد جمعه ، ومع ذلك فقد اعتبر الجنابي نفسه سعيدا اذ نجا بحياته من تلك المداهمـة المهينة . اختبأ لفترة من الزمن حتى اكتشف حمدان قرمط مخبأه فأمره بالشخوص الى كلواذى . لم يكن قرمط آنئذ يعرف أبا سعيـد شخصيا ، ولكن ما ان رآه حتى توسم فيه رجلا قادرا على تنفيذ

---

(١) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٣٦ .

كل ما يعهد اليه . ولما استقر رأي قرمط على أن اجهاض المهمة الاولى يعزى لسوء الطالع لا لقلة المقدرة ، عزم على تكليفه بمهمة أخرى ، فزوده بالمال والكتب وكل ما يلزم وبعثه الى البحرين حيث لاقى أرضا خصبة جدا (٢) .

هنا ، اختلاف جديد بين المؤرخين . فابن الاثير (٣) ينقل الينا رواية مختلفة تماما عن الرواية السابقة المستمدة من ابن حوقل . وبوسعنا أن نقرأ ترجمتها فيمقدمة ديساسي (٤) . تقول هذه الرواية ان أبا سعيد استقر بصفة تاجر في القطيف (أقرب مدن البحرين الى البصرة) ، في الوقت الذي كان فيه رجل يدعى يحيى ابن المهدي يبشر بالمذهب القرمطي (٢٨١) وانه تظاهر بالاستجابة للدعوة على يده . فلما اطلع والي البحرين على ممارساتهما المخزية أمر بجلد يحيى بالعصي وبحلق رأسه ، ولكنه لم يتمكن من أبي سعيد الذي استطاع الفرار الى جنابة والاختباء فيها . ولما تمكن يحيى من كسب الاتباع والانصار من القبائل البدوية ، وجد نفسه وأبا سعيد على رأس قوة هائلة . لقد عارض دي ساسي ، الذي لم يعرف شهادة ابن حوقل ، صحة هذه الرواية محتجا بأن اسم القرامطة الذي تسمى به أتباع أبي سعيد قد يحملنا على القبول بكون بعثة أبي سعيد صدرت عن حمدان قرمط . ولكن لن يكون لهذه الملاحظة أي مضمون الا اذا ثبت ان القرامطة سموا أنفسهم بهذا الاسم ، وهذا ما أراني مضطرا لنفيه . وعلى العكس من ذلك ، فان ما يحق لنا الاعتراض عليه في تلك الرواية ، هو الطريقة المبهمة التي تعرض بها الاشياء ، وكونها تتناقض ، جزئيا على الاقل ، وخبر ابن حوقل الجدير بالثقة ، والذي يؤكده نص مذكور عند النويري (٥) . الا ان كلام ابن الاثير قد لا يعدم أساسا تاريخيا ، ومن الممكن ، خصوصا ،

---

(٢) [ابن حوقل ، المسالك ، ص ٢١٠] .

(٣) الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٤٠ .

(٤) ص ٢١١ . [ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ص ٣٤٠ - ٣٤١] .

(٥) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٣ .

أن يكون يحيى بن المهدي قد بعث بمهمة استطلاعية ، وأن تكون بعثة أبي سعيد قد تمت عندما ظهرت الحاجة الى شخصية قوية لتقوم بأعباء داع مقيم في البحرين . ويروي أخو محسن (٦) ان أبا سعيد قابل ، عند وصوله الى البحرين ، رجلا يدعى أبو زكريا الصماني كان قد بعثه عبدان ، وان أبا سعيد قد أبعده . ولكن ههنا مفارقة تاريخية تقدر بأربعين سنة ، كما سأبينه من بعد . بيد انه من الممكن أن يكون قد حصل التباس في الاسماء ، وانه ينبغي أن نقرأ يحيى بن المهدي في نص أخي محسن . عندئذ تصح الرواية من حيث الاصل . ولكنا ، في هذه الحالة ، لن نقبل افتراض دي ساسي (٧) ان يحيى هذا هو الذي بدأ العمل في الشام ولقب « بصاحب الناقة » . وفي مطلق الاحوال ، فمن المعقول جدا أن يكون يحيى بن المهدي وأبو زكريا شخصا واحدا ، وهذا ما سيثار في العام ٣٢٠ .

ويروي الصولي نقلا عن الذهبي (٨) ان أبا سعيد كان « فقيرا يرفو أعدال الدقيق ، فخرج الى البحرين ، وانضم اليه طائفة من بقايا الزنج واللصوص ، حتى تفاقم أمره ، وهزم جيوش الخليفة مرات » ، ويضيف الذهبي انه كان كيالا في البصرة . ان هذه الروايات قد تصح على فترة الزمن التي انصرمت بين فرار أبي سعيد من جنابة ووصوله الى البحرين . ويقول الجوبري (٩) ان أبا سعيد بدأ العمل في العام ٢٥٢ ، ولكن الارجح ان هذا التاريخ غير صحيح ، حتى ولو رجع الى بداية ظهوره في جنابة ، ومن الجائز ان يكون هذا تاريخ ولادته .

من المعلوم ان البحرين ، أو بلاد هجر ، كانت في السابق ولاية فارسية ، وان سكان مدن الساحل كان معظمهم من الفرس

---

(٦) المرجع نفسه ، ص ٢١٣ .
(٧) المرجع نفسه ، ص ٢١١ ، الحاشية ٣ .
(٨) العبر في خبر من غبر ، تحقيق فؤاد سيد ، الكويت ، ١٩٦١ ، ج ٢ ، ص ٧٦ .
(٩) كتاب المختار في كشف الاسرار ، لام ، ١٨٨٤ ، ص ١٢ .

واليهود الذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول ، بل سالموا على جزية يدفعونها . وبعد وفاة النبي ، كان هؤلاء من أوائل من خلع النير، ولم يتوصل الى اعادة فرضه عليهم الا في زمن عمر . كان سكان الداخل من العرب (١٠) الذين لم يستسيغوا القيـــام بالفرائض العديدة التي فرضها الاسلام (١١) ، مثلهم في ذلك مثل غيرهـم من البدو . وقد كان لامير الزنج منهم أنصار كثيرون (١٢) قبل أن يظهر أمره في البصرة ، كما انه لما قمعت ثورته التجأ العديد من رجاله الى البحرين . كانت الارض مزدوجـــة الخصب أمام المذهب الذي سيدعو اليه أبو سعيد . لذلك كان نجاحه باهرا ، وما لبث أن تزوج ابنة رجـــل مرموق هو الحسن بن سنبر ، واصبح أوائل المستجيبين له دعاة مبشرين . فلما اجتمع لـه ، بمساعدتهم ، عدد كاف من الانصار ، توفر على اخضاع ما تبقى. لا نعلم في أي عام عيّن داعيا ، بيد اننا نعلم انه في العام ٢٨٦ (١٣) كان قد تمكن من السيطرة على معظم البحرين ، وأخذ القطيف . وقد أثار ذلك قلقا كبيرا في البصرة حتى استؤذن الخليفة فـي استعمال ١٤٠٠٠ دينار لترميم الحصون (١٤) .

في العام ٢٨٧ هـــاجم القرامطة ضاحية هجر عاصمـة البحرين واقتربت طلائعهم من اراضي البصرة (١٥) ، فأنفذ واليها سعاته للحصول على التعزيزات ، ولم يطل به الوقت حتى وصلته ثمانية مراكب حربية صغيرة تقل ٣٠٠ رجل . وفي الوقت نفسه

---

(١٠) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩١ وما يليها . ابن بطوطة ، رحـلة ، تحقيق كاترمير ، باريس ، ١٨٥٤ ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ . قارن أيضـــا دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٣ .

(١١) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٤ . ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب، الطبعة الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ ، ص ٩٥

(١٢) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٧٤٣ .

(١٣) بشهادة الطبري ، أما ابن الاثير فيورد ذلك تحت العام ٢٨٥ .

(١٤) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٨٨ وما يليها . المسعودي ، مـروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق باربيه دي مينار ، باريس ، ١٨٧٤ ، ج ٨ ، ص ١٩١ .

(١٥) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٩٢ .

واليهود الذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول ، بل سالموا على جزية يدفعونها . وبعد وفاة النبي ، كان هؤلاء من أوائل من خلع النير، ولم يتوصل الى اعادة فرضه عليهم الا في زمن عمر . كان سكان الداخل من العرب (١٠) الذين لم يستسيغوا القيـــام بالفرائض العديدة التي فرضها الاسلام (١١) ، مثلهم في ذلك مثل غيرهـم من البدو . وقد كان لامير الزنج منهم أنصار كثيرون (١٢) قبل أن يظهر أمره في البصرة ، كما انه لما قمعت ثورته التجأ العديد من رجاله الى البحرين . كانت الارض مزدوجـــة الخصب أمام المذهب الذي سيدعو اليه أبو سعيد . لذلك كان نجاحه باهرا ، وما لبث أن تزوج ابنة رجــــل مرموق هو الحسن بن سنبر ، وأصبح أوائل المستجيبين له دعاة مبشرين . فلما اجتمع لـه ، بمساعدتهم ، عدد كاف من الانصار ، توفر على اخضاع ما تبقى. لا نعلم في أي عام عيّن داعيا ، بيد اننا نعلم انه في العام ٢٨٦ (١٣) كان قد تمكن من السيطرة على معظم البحرين ، وأخذ القطيف . وقد أثار ذلك قلقا كبيرا في البصرة حتى استؤذن الخليفة فـي استعمال ١٤٠٠٠ دينار لترميم الحصون (١٤) .

في العام ٢٨٧ هــــاجم القرامطة ضاحية هجر عاصمـة البحرين واقتربت طلائعهم من أراضي البصرة (١٥) ، فأنفذ واليها سعاته للحصول على التعزيزات ، ولم يطل به الوقت حتى وصلته ثمانية مراكب حربية صغيرة تقل ٣٠٠ رجل . وفي الوقت نفسه

---

(١٠) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩١ وما يليها . ابن بطوطة ، رحـلة ، تحقيق كاترمير ، باريس ، ١٨٥٤ ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ . قارن أيضـــا دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٣ .

(١١) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٤ . ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، تحقيق يحيى الخشاب، الطبعة الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ ، ص ٩٥

(١٢) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٧٤٣ .

(١٣) بشهادة الطبري ، أما ابن الاثير فيورد ذلك تحت العام ٢٨٥ .

(١٤) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٨٨ وما يليها . المسعودي ، مـروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق باربيه دي مينار ، باريس ، ١٨٧٤ ، ج ٨ ، ص ١٩١ .

(١٥) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٩٢ .

أمر الخليفة بتجهيز جيش ، وفي السنة ذاتها خرج عباس بن عمرو الغنوي بألفي رجل (١٦) الى البصرة لمقاتلة صاحب القرامطة ، ولكن عددا كبيرا من المتطوعين التحق به في البصرة . ومن المحتمل جدا أن يكون الغنوي قد جند جندا من البدو لاننا نراهم الى جانبه في المعركة ، أم تراهم قد عدّوا في عداد الالفي رجل ؟ على أية حال ، فليس من المعقول أن يكون عدد مقاتليه قد بلغ العشرة آلاف كما يزعم ابن خلكان (١٧) . وهاكم الآن رواية الطبري عن تلك الحملة (١٨) : « وفي هذه السنة كان خروج العباس بن عمرو الغنوي من البصرة بمن ضمّ اليه من الجند ، مع من خف معه من مطوّعة البصرة نحو أبي سعيد الجنابي ومن انضوى اليه من القرامطة ، فلقيهم طلائع لابي سعيد ، فخلف العباس سواده ، وسار نحوهم ، فلقي أبا سعيد ومن معه مساء ، فتناوشوا القتال ، ثم حجز بينهم الليل ، فانصرف كل فريق منهما الى موضعهم . فلما كان الليل انصرف من كان مع العباس من أعراب بني ضبة — وكانوا زهاء ثلاثمئة — الى البصرة ، ثم تبعهم مطوّعة البصرة . فلما أصبح العباس غادى القرامطة الحرب ، فاقتتلوا قتالا شديدا . ثم ان صاحب ميسرة العباس — وهو نجاح غلام أحمد بن عيسى بن شيخ — حمل في جماعة من أصحابه زهاء مئة رجل على ميمنة أبي سعيد ، فوغلوا فيهم ، فقتل وجميع من معه ، وحمل الجنابي وأصحابه على أصحاب العباس فانهزموا ، فاستأسر العباس ، وأسر من أصحابه زهاء سبعمئة رجل ، واحتوى الجنابي على ما كان في عسكر العباس . فلما كان من غد يوم الوقعة أحضر الجنابي من كان أسر من أصحاب الغنوي فقتلهم جميعا ، ثم أمر بحطب فطرح عليهم ، فأحرقهم . وكانت هذه الوقعة فيما ذكر في آخر رجب وورد خبرها بغداد لاربع خلون من شعبان ... وانصرف فلّ أصحاب العباس بن عمرو يريدون البصرة ولم يكن أفلت منهم الا القليل بغير أزواد

(١٦) المصدر نفسه ، ٣ / ٢١٩٣ .

(١٧) ابن خلكان ، وفيات ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ .

(١٨) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٩٦ .

ولا كسى ، فخرج اليهم من البصرة جماعة بنحو من أربعمئة راحلة عليها الاطعمة والكسى والماء . فخرج عليهم فيما ذكر ، بنو أسد فأخذوا تلك الرواحل بما عليها وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العباس ، وذلك في شهر رمضان ، فاضطربت البصرة لذلك اضطرابا شديدا ، وهموا بالانتقال عنها ، فمنعهم أحمد بن محمد الواثقي المتولي لمعاونها من ذلك » .

فوجىء البلاط العباسي بعودة عباس بن عمرو الغنوي سالما الى بغداد . وكثيرا ما كان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (المتوفي في العام ٣٠٠) يتحدث عن الافراج عن الغنوي كأحد الاحداث الثلاثة الاكثر غرابة التي عرفها في حياته (١٩) . ولا بد من الاقرار بكون معظم المؤرخين يجعلون الحدث أكثر غرابة عندما يضيفون اليه انالغنوي أرجعالىالخليفة وبيده رقعة بيضاء (٢٠) . غير انعرض الطبري أقرب الىالصواب (٢١) اذ يقول : « ولاحدى عشرة خلت من شهر رمضان وافى العباس بن عمرو مدينة السلام وصار الى دار المعتضد بالثريا ، فذكر انه بقي عند الجنابي أياما بعد الوقعة ثم دعا به فقال له : أتحب أن اطلقك ؟ قال : نعم . قال : امض وعرّف الذي وجه بك الي ما رأيت . وحمله على رواحل ، وضم اليه رجالا من أصحابه ، وحملهم ما يحتاجون اليه من الزاد والماء ، وأمر الرجال الذين وجههم معه أن يؤدوه الى مأمنه . فساروا به حتى وصل الى بعض السواحل فصادف به مركبا ، فحمله فصار به الى الابلة فخلع عليه المعتضد وصرفه الى منزله » . ان هذا العرض صحيح بشكل عام . ولكن لا شك في ان رواية الغنوي لقصته ، التي تهمنا من نواحي أخرى ، ستتيح لنا الاطلاع على معلومات أفضل . وهاكم الرواية :

« لما أسرني أبو سعيد الجنابي القرمطي وكسر العسكر

---

(١٩) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ .

(٢٠) Weil, Geschichte des Abbasiden, II , 509 , note 2 .

(٢١) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٩٧ .

الذي كان أنفذه معي المعتضد بالله لقتاله وحصلت في يده أسيرا آيست من الحياة فأنا يوم على تلك الصورة اذ جاءني رسوله فأخذ قيودي وغير ثيابي وأدخلني اليه فسلمت وجلست فقال لي أتدري لم استدعيتك قلت لا قال أنت رجل عربي ومن المحال ان استودعتك أمانة أن تحقرها ولا سيما مع مني عليك بنفسك فقلت هو كذلك قال اني فكرت فاذا لا طائل في قتلك واذا في نفسي رسالة الى المعتضد لا يجوز أن يؤديها غيرك فرأيت اطلاقك وتحميلك اياها فان حلفت لي أن تؤديها سيرتك اليه فحلفت فقال تقول للمعتضد يا هذا لم تخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمع أعداءك في نفسك وتتعبها في طلبي وانفاذ الجيش الي وانا رجل مقيم في فلاة لا زرع عندي ولا ضرع ولا غلة ولا بلد وانما أنا قد رضيت لنفسي بخشونة العيش والامن على المهجة والعز بأطراف هذه الرماح وما اغتصبتك بلدا كان في يدك ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل ومع هذا فوالله لو انفذت الي جيشا من الجيوش مع الثلج والريح والندى فيجيئون من المسافة البعيدة والطريق الشاق وقد قتلهم السفر قبل قتالنا فانما غرضهم أن يبدوا عذرا في مواقعتنا ساعة ثم يهربون فان ثبتوا مع ما لحقهم من وعثاء السفر وشدة الجهد التي هي أكثر أعواني عليهم فما هو الا أن أحقق عليهم حتى انهزموا وأكثر ما تقدر عليه أن يجيئوا فيستريحوا ويقيموا ويكونوا عدة لا قبل لي بهم فيهزموني اذا قاتلوني لا يقدر جيشك على أكثر من ذلك فما هو الا أن أنهزم حتى قد بعدت عن هذا الموضع عشرين فرسخا أو ثلاثين فأجول في الصحراء شهرا أو اثنين ثم أكبسهم على غرة فأقتل جميعهم ولو لم يستو لي هذا وكانوا متحرزين فما يمكنهم الطواف خلفي في البراري فلا ينبغي طلبي في الصحاري ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد ان كانوا كثيرين فان انصرف الجمهور وبقي الاقل فهم قتلى سيوفي أول يوم ينصرف الجيش ويبقى من يتخلف هذا ان سلموا من وباء هذا البلد ورداءة مائه وهوائه للذين نشأوا في ضده وربوا في غيره ولا عادة لاجسامهم بالصبر عليه ففكر في هذا وانظر هل يفي تعبك وتغريرك بجيشك

وعسكرك وانفاقك الاموال وتجهيزك الرجال وتكلفك هذه الاخطار وتحملك هذه المشاق لطلبي وأنا مع ذلك خالي الدرع منها سليم النفس والاصحاب من جميعها وهيبتك تنقص في الاطراف وعند ملوكها كلما جرى عليك شيء من هذا ثم لا تظفر من بلدي بطائل ولا تصل منه الى مال أو حال فان اخترت بعد هذا محاربتي فاستخر الله تعالى وانفذ من شئت وان أمسكت فذاك اليك . قال فأنفذني ثم جهزني وانفذ معي عشرة من أصحابه الى الكوفة فسرت منها الى الحضرة فدخلت على المعتضد فتعجب من سلامتي وسألني عنها فقلت سبب أذكره سرا لامير المؤمنين فتشوف اليه وخلا بي وسألني فقصصت عليه القصة فرايته يتمعط في جلده غيظا حتى ظننت انه سيسير بنفسه اليه وخرجت من بين يديه فما رأيته بعد ذلك ذكره بحرف » (٢٢) .

الا ان الطبري الذي لا يوافق على الرواية السابقة في شكلها الحالي ، خبّرنا ان الغنوي نقل حتى الساحل ، ومن هناك ركب البحر الى الأبلة ، ولدينا جميع الاسباب للاعتقاد بأنه على صواب . ولكن لا يجوز الاستناد الى خبره للطعن في صحة رواية عباس الغنوي عندما يتكلم عن وصوله الى الكوفة . وبامكاننا تذليل الصعوبات كلها اذا قبلنا بكون ذكر الكوفة قد حصل نتيجة لخطأ في الكتابة أو النسخ . فلعله ذكر اسم الموضع الساحلي الذي أوصله اليه رجال أبي سعيد بدلا من اسم الكوفة .

لقد بلغ أبو سعيد أربه . أيا كان حنق الخليفة وغيظه ، فتجهيز حملة أخرى لم يعد أمرا واردا ، ولم يكن ثمة ما يرد به على معظم حجج أبي سعيد التي لم تصغ بطريقة استفزازية . لن يصعب علينا الكشف عن الاسباب التي دعته الى صرف الخليفة عن قيادة جيوشه الى الموت المحقق ، مع رغبته الاكيدة في القضاء على الخلافة . لا ريب ان أبا سعيد كان قويا جدا ، غير انه لم

---

(٢٢) الفرج بعد الشدة [تحقيق محمد الزهري الغمراوي ، القاهرة ، ١٩٠٣ – ١٩٠٤ ، ج ١ ، ص ص ١١٠ – ١١١ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١٣٤] . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ص ٩٤ – ٩٥ .

يسيطر حتى ذلك الحين الا على نصف البحرين : فالعاصمة هجر كانت في طليعة المدن المستقلة عنه . والحقيقة انه مهما كانت حظوظه في الانتصار كبيرة ، فكل تحويل لجهوده كان خطرا عليه آنئذ . كانت مصالحه تقضي بالحؤول دون قيام الخليفة بهجوم لاحق ، ليتوفر هو على تركيز جهوده وامكانياته لحصار هجر .

ويخبرنا الطبري (٢٣) انه قد وصلت الى بغداد أنباء عن سقوط المدينة عقب انتصار القرامطة على الغنوي ، وانهم أمنوا أهلها على نفوسهم . اذا صح هذا الخبر ، فينبغي القبول بكون المدينة قد استرجعها والي البحرين بسرعة ، لان النويري يقول ان أبا سعيد لم يفتح المدينة الا بعد حصار عامين ، وانه اضطر الى الاحتيال لذلك (٢٤) . ويؤكد خبر النويري بصورة مباشرة ما يرويه الطبري (٢٥) تحت العام ٢٩٠ اذ يقول : « وورد أيضا في هذه الايام ـ فيما ذكر ـ كتاب من البحرين من أميرها ابن بانوا ، يذكر فيه انه كبس حصنا للقرامطة فظفر بمن فيه . ولثلاث عشرة خلت من ذي القعدة منها ـ فيما ذكر ـ ورد كتاب آخر من ابن بانوا من البحرين يذكر فيه انه واقع قرابة لأبي سعيد الجنابي وولي عهده من بعده على أهل طاعته ، فهزمه . وكان مقام هذا المهزوم في القطيف فوجد بعدما انهزم أصحابه قتيلا بين القتلى فاحتز رأسه . وانه دخل القطيف فافتتحها » . ويذكر كل من ابن حوقل والمسعودي (٢٦) ، بكلام وجيز ، صعوبة حصار هجر والبراعة التي استولى بها أبو سعيد على هذه المدينة .

ولعلنا نجد وسيلة للتوفيق بين هذه الروايات المختلفة في نص للطبري (٢٧) يخبرنا انه في العام ٢٨٨ اقتربت قوات

---

(٢٣) تاريخ ، ٣ / ٢١٩٦ .

(٢٤) ويذهب ابن خلدون الى ان الحصار دام ثلاث سنوات ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٣ . دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٥ .

(٢٥) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٣٢ .

(٢٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ١٩٤ .

(٢٧) تاريخ ، ٣ / ٢٢٠٥ .

أبي سعيد من البصرة وان واليها بذل جهـــودا مضنية لصرف السكان عن الهجرة الكثيفة ، واذا قبلنا بكون ابن بانوا قد استغل غياب أبي سعيد ليسترجع هجر حصلنا فـــي الوقت ذاته على تفسير عدول القرمطي عن متابعة حملته على البصرة .

تعهد سكان البحرين للوالي بالمقاومة مقاومة عنيدة، فاستمر الصراع سجالا .

هذه هي الاسباب التي تمنع من كون فتح هجر قد تم قبل العام ٢٩٠ . ويقول النويري (٢٨) عن حصار هجر ان أبا سعيد تمكن منها بعد ان قطع المياه التي تسقيهـــا . « ولما أيقن أهلها بالهلكة فرّ بعضهم في البحر نحو جزيرة أوال وسيراف وغيرهما من البلدان ، ودان بعضهم بمذهب أبي سعيد وانحاز اليه ، وأما من لم يشأ اعتناق مذهبه ولا الفرار من وجهه فقد سقطوا قتلى سيوفـه . ثم سبيت المدينـة ودمرت ، ولما خربت هجر صارت الحسا عاصمة البحرين » .

ولكن القول الاخير ليس صحيحا تماما . مع ان الاحســاء كانت مقام أبي سعيد ، فقد حافظت هجر عــلى مركزها كعاصمة حتى العام ٣١٤ ، أي عنـدما حوّل أبو طاهر الاحساء الى أكبر قلعة في البلاد (٢٩) . ويذكر الاصطخري الذي كان يكتب حوالي العام ٣٠٩ (٣٠) ، هجر على انها العاصمة ، بينما نجد ابن حوقل والمقدّسي يقولان ان العاصمة هي الاحساء . ويجدر بالذكر ان المسافة بين المدينتين كانت قصيرة فلم تتجاوز الميلين بشهـادة النويري (٣١) ، وقد كوّنتا مدينة واحدة فيما بعد (٣٢) .

---

(٢٨) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٥ وما يليها . [راجـــع الحاشية رقم ٥٢ في الفصل السابق] .

(٢٩) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٢ . ياقوت ، معجـم البـلدان ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

(٣٠) مسالك الممالك ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، الطبعة الثانيـة ١٩٢٧ ، ص ٢١ .

(٣١) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٥ وما يليها .

(٣٢) ابن بطوطة ، رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ، وهو يسمي المدينة «الحسا» .

لقد أرسى احتلال هجر قواعد ثابتة لقوة زعيم القرامطة ، وبما ان أولئك الذين لم يشاءوا الخضوع له تركوا البلاد ، فقد أصبح بوسع أبي سعيد أن يحاول فتح البلاد المجاورة ، أي عمان واليمامة . بدأ باليمامة فأخضعها نهائيا . أما الحملة على عمان فقد أوحى له بها بعض اللاجئين العمانيين الذين أتوه طالبين العون ، وقد أصغى اليهم لانه كان يبغي الاستفادة من الصراعات الداخلية التي كانت تمزق بلادهم . ولدينا عدة روايات عن ذلك . أما رواية النويري (٣٣) فتخبرنا بأن الحملة باءت بالفشل ، بينما تحملنا رواية الاصطخري (٣٤) على الاعتقاد بأنه استولى على جزء من تلك الناحية . وثمة أمر مؤكد ، وهو ان عمان لم تكن قد أخضعت بعد في العام ٣١٥ ، وسنعود الى هذا فيما بعد .

بينما كان أبو سعيد يعمل على توسيع رقعة سيطرته دون أن يصادف مقاومة من الخلفاء ، ويؤسس بذلك قوة كادت تضع حكم العباسيين على حافة الانهيار ، ظن الخليفة ان بمقدوره الا يكترث به لبعض الوقت ، فيركز جهده على درء خطر فرع آخر للقرامطة وهم أتباع زكرويه ، داعي العراق الغربي . فمنذ العام ٢٨٩ وغداة هزيمة عباس الغنوي قام القرامطة بانتفاضة أخرى في جنبلاء بين واسط والكوفة ، هزم فيها بدر الوالي ، وهلك فيها كثير من المسلمين مع نسائهم وأطفالهم . ولكن تلك الانتفاضة لم تلبث أن قمعت في السنة عينها ، اذ أخذ بدر القرامطة على حين غرة وأعمل السيف في العديد منهم . ويخبرنا الطبري (٣٥) ان بدرا « تركهم خوفا على السواد أن يخرب اذ كانوا فلاحيه وعماله ، وطلب رؤساءهم في أماكنهم فقتل من ظفر به منهم » .

وفي مطلع العام ٢٨٩ اندلعت ثورة أخرى في العراق ،

---

(٣٣) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٥ .
(٣٤) مسالك الممالك ، ص ١٥٩ .
(٣٥) تاريخ ، ٣ / ٢١٩٨ ، ٢٢٠٢ .

فوجه الخليفة الى الثوار جيشا بقيادة شبل ، فتمكن هذا القائد منهم واستأسر أحد قادتهم المسمى بأبي الفوارس (٣٦) . وقد حفظ لنا ابن الاثير (٣٧) الاستجواب الطريف الذي أخضعه له الخليفة بنفسه (٣٨) . ويضيف المسعودي (٣٩) ان أبا الفوارس وعد قبل قتله بأن يعود بعد أربعين يوما ، وان هذه النبوءة التي قبلها الكثيرون ، قد سببت بعض الشغب . « فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ويحصون الايام ويقتتلون ويتناظرون في الطرق في ذلك ، فلما تمت الاربعون يوما وقد كان كثر لغطهم ، واجتمعوا فكان بعضهم يقول هذا جسده ، ويقول آخر قد مر ، وانما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه لكي لا تفتتن الناس . وكثر تنازع الناس حتى نودي بتفريقهم » .

وفي تلك الاثناء ، عزم زكرويه الذي تمكن من استمالة عدد غفير من الاتباع من بدو بادية الشام على المجازفة بغزو الشام التي كانت آنذاك خاضعة للحكم المصري . سار يحيى بن زكرويه على الشام نحو نهاية العام ٢٨٩ ، أي بعد وفاة المعتضد . فلما انتهى خبر دخوله الشام الى طغج ، والي دمشق ، خرج الى لقائه لكن دون قوات كافية ، وكأنه ذاهب الى صيد البازي . استخف طغج بالامر ظنا منه ان ما عليه الا تفريق شمل جماعة من البدو (٤٠) ، بيد ان خيبة ظنه كلفته ثمنا باهظا . ولما لم يكن له عهد بالهزيمة في المعارك ، واقعهم ، فهزموه ، ففر الى عاصمته لاجئا . الا ان سيرة يحيى الملقب بصاحب الناقة لم تطل وان كانت باهرة ، فقد قضى نحبه في العام ٢٩٠ ابان حصار دمشق ، في وقعة وقعت على مقربة من المدينة ، وكان النصر

---

(٣٦) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٠٦ .

(٣٧) الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ .

(٣٨) انظر نص الاستجواب ص ٣٢ أعلاه .

(٣٩) مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٤٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

فيها حليف القرامطة (٤١) . وقد خلفـــــه أخوه حسين الذي اشتهر بصاحب الشامة أو صاحب الخال بسبب علامة كانت في وجهه ، كان يزعم انها ختم نبوته (٤٢) . كان يحيى ، من قبله ، قد ادعى انـــه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ، وانه مؤيد بقوة خارقة ، وكان يزعم ان ما عليـــه سوى أن يمد ذراعه حتى ينهزم العدو ، وان الناقة التي تحته تأتمر بأوامر آتية من العلا ، ولذلك فما على العسكر الا أن يأتمّ بحركتها . أما حسين فقد تسمى بأحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل واتخذ لقب المهدي وأمير المؤمنين . ولدينا الآن رسالتان منه (٤٣) تثبتـــان انه اغتصب كل الصلاحيات العائدة شرعا للامام وحده فحسب . ويمكننا أن نستنتج من ذلك ان رحيل عبيد الله الى افريقيا كان قد حدث عـــلى الارجح ، في العام ٢٨٩ عـــلى ما يذكره ابن عذاري (٤٤) . ويمكن لهذا الاحتمال أن ينقلب يقينا اذا ما تذكرنا ان حسينا قد استولى في العام ٢٩٠ على سلميـــــة التي كانت حتى ذلك التاريخ موطن القداح .

واصل حسين بعزم ما كان أخوه قد بدأه ، فأجبر سكان دمشق على شراء الصلح ، واستولى على حمص حيث خطب لـــه

(٤١) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢١٧ – ٢٢٢٠ ، ٢٢٢٤ وما يليهـا . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٠ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٣٠ .

(٤٢) كما كان للنبي العربي علامة بين كتفيه تعرف فيها الراهب بحيرا عـــلى ختم نبوته . أنظر :

Sprenger , A. , Das Leben und die Lehre des Mohammed, Berlin , 1861 - 1865 , I , P 182 .

و

Caussin de Preceval , A. P. Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme , pendant l'époque de Mahomet et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane . Paris 1847 - 48 , I , P 320 .

(٤٣) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٣٢ . دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢٠٤ وما يليهـا .

(٤٤) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

أهلها على المنابر ، واخضع حماه ومعرة النعمان وبعلبك وسلمية لسلطانه ، وأعمل السيف والنهب في كل مكان . الا ان سلمية قاست منه الامرين اذ قتل أهلها عن بكرة أبيهم حتى صبيان الكتاتيب (٤٥) . فكأنه أراد أن يأتي على كل من كان يعرف عبيد الله وربما السليل الحقيقي لمحمد بن اسماعيل ، لئلا يشهد على تلك المعرفة . ولكن مدة حسين لم تطل أيضا ، فبعد أن حالفه النصر مرارا (٤٦) خذل ، وهزمه القائد محمد بن سليمان بصورة نهائية في محرم من العام ٢٩١ . فر حسين طالبا النجاة الا انه أسر واقتيد الى حضرة الخليفة المكتفي في الرقة ، فدخل الخليفة بغداد منتصرا يجر من ورائه الاسرى الذين ما لبثوا أن أذيقوا مر العذاب قبل قتلهم (٤٧) . وقد أنشد ابن المعتز في ذلك قصيدة مطلعها (٤٨) :

لا ورمان النهود فوق أغصان القدود

وقد حفظ لنا الطبري خبر زيارة لمعسكر القرامطة ، قبيل انتصار الخليفة ، يستحق أن نورده فيما يلي (٤٩) : « ذكر عن متطبب بباب المحول يدعى أبا الحسن انه قال : جاءتني امرأة بعدما أدخل القرمطي صاحب الشامة وأصحابه بغداد ، فقالت لي : اني أريد أن أعالج شيئا في كتفي ، قلت : وما هو ؟ قالت : جرح ، قلت : أنا كحال ، وها هنا امرأة تعالج النساء ، وتعالج الجراحات ، فانتظري مجيئها . فقعدت ، ورأيتها مكروبة كئيبة باكية ، فسألتها عن حالها ، وقلت : ما سبب جراحتك ؟ فقالت : قصتي تطول ، فقلت : حدثيني بها وصادقيني . وقد خلا من كان عندي . فقالت : كان لي ابن غاب عني ، وطالت غيبته ،

---

(٤٥) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٢٦ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ٣ / ٢٢٣١ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٣٠ .

(٤٧) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٣٧ — ٢٢٤٦ .

(٤٨) راجع القصيدة في ديوان ابن المعتز ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ص ١٧٣ — ١٧٤ .

(٤٩) تاريخ ، ٣ / ٢٢٢٦ وما بعدها .

وخلّف عليّ أخـوات له ، فضقت واحتجت ، واشتقت اليه . وكان شخص الى ناحية الرقة ، فخرجت الى الموصـل والى بلد والى الرقة ، كل ذلك أطلبه ، وأسأل عنه ، فلم أدلّ عليــه ، فخرجت عن الرقة في طلبه ، فوقعت في عسكر القرمطي ، فجعلت أطوف وأطلبه . فبينا أنا كذلك اذ رأيتـه فتعلقت به ، فقلت : ابني ! فقال : أمي ! فقلت : نعم ، قال : ما فعل اخواتي ؟ قلت : بخير ، وشكوت ما نالنا بعده من الضيق ، فمضى بي الى منزله ، وجلس بين يديّ ، وجعل يسائلني عن أخبارنا ، فخبّرته ، ثـم قال : دعيني من هذا وأخبريني ما دينك ؟ فقلت : يا بنيّ أمـا تعرفني ؟ فقال : وكيف لا اعرفك ! فقلت : ولم تسألني من ديني وأنت تعرفني وتعرف ديني ! فقال : كل ما كنا فيه باطل ، والدين ما نحن فيه الآن ، فأعظمت ذلك وعجبت منه ، فلما رآني كذلك خرج وتركني . ثم وجّه اليّ بخبز ولحم وما يصلحني ، وقال : اطبخيه ، فتركته ولم أمسّه ، ثم عاد فطبخه ، وأصلح أمر منزله ، فدق الباب داقّ ، فخرج اليه فاذا رجل يسأله ، ويقول له : هذه القادمة عليك تحسن ان تصلح من أمر النساء شيئا ؟ فسألنـي فقلت : نعم ، فقال : امضي معي ، فمضيت فأدخلني دارا ، واذا امرأة تطلق ، فقعدت بين يديها ، وجعلت أكلّمها ، فلا تكلمني ، فقال لي الرجل الذي جاء بي اليها : ما عليك من كلامها ، أصلحي أمر هذه ، ودعي كلامها ، فأقمت حتى ولدت غلاما ، وأصلحت من شأنه ، وجعلت أكلمها وأتلطف بها وأقول لها : يا هــذه ، لا تحتشميني ، فقد وجب حقي عليك ، أخبريني خبرك وقصتك ومن والد هذا الصبي ، فقالت : تسألينني عن أبيــه لتطالبيه بشيء يهبه لك ؟ فقلت : لا ، ولكن أحب أن أعلم خبرك ، فقالت لي : اني امرأة هاشمية ـ ورفعت رأسها ، فرأيت أحسن الناس وجها ـ وان هؤلاء القوم أتونا ، فذبحوا أبي وأمي واخوتي وأهلي جميعا ، ثم أخذني رئيسهم ، فأقمت عنـــده خمسة أيام ، ثم أخرجني ، فدفعني الى أصحابه ، فقـــال : طهّروها ! فأرادوا قتلي ، فبكيت . وكان بين يديه رجل من قواده ، فقال : هبها لي ، فقال : خذها ، فأخذني ، وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام مـن

أصحابه ، فسلّوا سيوفهم ، وقالوا : لا نسلمها اليك ، اما أن تدفعها الينا ، والا قتلناها . وأرادوا قتلي ، وضجّوا ، فدعاهم رئيسهم القرمطي ، وسألهم عن خبرهم فخبّروه ، فقال : تكون لكم أربعتكم ! فأخذوني ، فأنا مقيمة معهم أربعتهم ، والله ما أدري ممن هو هذا الولد منهم !

قالت : فجاء بعد المساء رجل فقالت لي : هنّيه ، فهنأته بالمولود ، فأعطاني سبيكة فضة ، وجاء آخر وآخر ، أهنىء كل واحد منهم ، فيعطيني سبيكة فضة ، فلما كان في السحر جاء جماعة مع رجل وبين يديه شمع ، وعليه ثياب خزّ تفوح منه رائحة المسك ، فقالت لي : هنّيه ، فقمتاليه ، فقلت : بيض الله وجهك ، والحمد لله الذي رزقك هذا الابن ، ودعوت له ، فأعطاني سبيكة فيها ألف درهم ، وبات الرجل في بيت ، وبتّ مع المرأة في بيت ، فلما أصبحت قلت للمرأة : يا هذه ، قد وجب عليك حقّي ، فالله الله فيّ ، خلصيني ! قالت : مم أخلصك ؟ فخبرتها خبر ابني ، وقلت لها : اني جئت راغبة اليه ، وانه قال لي كيت وكيت ، وليس في يدي منه شيء ، ولي بنات ضعاف خلفتهن بأسوأ حال ، فخلصيني من هاهنا لاصل الى بناتي ، فقالت : عليك بالرجل الذي جاء آخر القوم ، فسليه ذلك ، فانه يخلصك ، فأقمت يومي الى أن أمسيت ، فلما جاء تقدمت اليه ، وقبّلت يده ورجله ، وقلت : يا سيدي قد وجب حقّي عليك ، وقد أغناني الله على يديك بما أعطيتني ، ولي بنات ضعاف فقراء ، فان اذنت لي أن أمضي فأجيئك ببناتي حتى يخدمنك ويكنّ بين يديك ! فقال : وتفعلين ؟ قلت : نعم ، فدعا قوما من غلمانه ، فقال : أمضوا بها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا ، ثم اتركوها وارجعوا . فحملوني على دابة ، ومضوا بي . قالت : فبينما نحن نسير ، واذا أنا بابني يركض ، وقد كنا سرنا عشرة فراسخ - فيما خبّرني به القوم الذين معي - فلحقني وقال : يا فاعلة ، زعمت انك تمضين وتجيئين ببناتك ! وسلّ سيفه ليضربني ، فمنعه القوم ، فلحقني طرف السيف ، فوقع في كتفي ، وسلّ القوم سيوفهم ، فأرادوه ، فتنحى عني ، وساروا بي حتى بلغوا

بي الموضع الذي سماه لهم صاحبهم ، فتركوني ومضوا ، فتقدمت الى ها هنا وقد طفت لعلاج جرحي ، فوصف لي هذا الموضع ، فجئت الى ها هنا . قالت : ولما قــدم امير المؤمنين بالقرمطي وبالاسارى من أصحابه خرجت لانظر اليهم ، فرأيت ابني فيهم على جمل ، عليه برنس وهو يبكي وهو فتى شــاب ، فقلت له : لا خفف الله عنك ولا خلصك ! قال المتطبب : فقمت معها الــى المتطببة لما جاءت ، وأوصيتها بها ، فعالجت جرحهـــا وأعطتها مرهما ، فسألت المتطببة عنها بعد منصرفها ، فقالت : قد وضعت يدي على الجرح ، وقلت : انفخي ، فنفخت فخرجت الريح مــن الجرح من تحت يدي ، وما اراها تبرأ منه ، ومضت فـلم تعد الينــا » .

لم تأت هزيمة الحسين بن زكرويه على كل قوة هذا الفرع من القرامطة ، اذ انه لما أيقــن بالخسارة والهلاك ، بعث أخـاه أبا الفضل (٥٠) الى البادية وحمله قسما من كنوزه . ولم يطل الامر بأبي الفضل حتى جمع جمــاعة من القرامطة يغزو بها وينهب ، فأذاق مدن الشام الأمرّين وبخاصة طبرية (٥١) . ثم ما لبث أن عاد الى البادية ، نزولا عند رغبة أبيه الـذي لم يشأ أن يتعرض ابنه الاخير لاخطار تتجدد كل يوم . ويقول ابن خلدون انه ارتحل الى اليمن ، وينقل وايل (٥٢) قوله . الا ان هــذا التصور ليس صحيحا ولعله يعود الى نص الطبري الذي يبدأ بالحديث عــن قرامطة اليمن بعد سرد الرواية السابقة مباشرة .

مهما يكن من الامر فقد تسلم زكرويه الآن زمــام الامور ، فكتب الى قرامطة بادية الشام أن الشيخ (يقصد يحيى) وأخاه

---

(٥٠) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٣٨ . أما ابن خلدون فيسميه أبا القاسم علي، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٥١) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٥٥ وما يليها .

(٥٢) Weil , Gesch. des Abbasiden , II , P 526 .
(تاريخ الخلفاء العباسيين ، فيما يلي « عباسيين ») .

قد قتلا ، وان الامام الذي يوحي اليه (٥٣) لـن يبطىء في الظهور والغلبة ، وقد تمكن داعيته أبو غانم الملقب بنصر من اجتذاب عدد كبير من المستجيبين ، وقام بهم يقتـــل ويسبي في النواحـي الحدودية بين العراق والشام (٥٤) ، الا انه لم يلبث أن اغتالـه أحد زعماء القرامطة الذي نال بذلك العفو عـــن ذاته وآله مـن الدولة . عندئذ خرج زكرويه من معقله واستقر في قلب الجيش القرمطي ، وان لم يسمح برؤيته الا لقلة من الخلّص . لقد ألهم حضوره الاتباع روح شجاعة جديدة . ويروي الطبري (٥٥) أن زكرويه كان يحاط كالاولياء بالتقديس ، وان كلماته كانت تنزل من نفوس أتباعه منزلة النبوءات . وقد تركزت أعماله في تهديد الكوفة والقضاء على أحد جيوش الخليفة قضاء تاما ، وأخيراً في التعرض بالقتل والنهب لقوافل الحجاج العائدة من الحج (٥٦) . وقد استمر ذلك حتى انتصر عليـــه ، في العام ٢٩٤ ، القائد العباسي واصف ، وتمكن من أسره ، بعد أن جرح جرحا قاتلا ، كما أسر ابنه وعددا من رجاله ، فقضي بذلك على هذا الفرع من القرامطة قضاء نهائيا .

من المستغرب ألا نسمع في تلك الاثناء شيئا لا عن حمدان قرمط ولا عن أبي سعيد . ففي العام ٢٨٩ كان الاخير منشغلا بحصار هجر ، ولكن لا بد أن يكون سقوطها قد جعـــل اخضاع بقية البحرين أمرا ميسورا . لذلك كـــان من شأن ثورة عامة لقرامطة العراق ، مشفوعة بغزو سواد البصرة بقيادة أبي سعيد وهجوم قرامطة الشام على الكوفة ، أن تقضي ، في أغلب الظن ، على الخلافة العباسية في بغداد .

---

(٥٣) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٤٧ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ٣ / ٢٢٥٦ — ٢٢٥٩ . وايل ، عباسييــن ، ج ٢ ، ص ٥٢٧ .

(٥٥) تاريخ ، ٣ / ٢٢٦٤ وما يليها .

(٥٦) المصدر نفســه ، ٣ / ٢٢٦٠ — ٢٢٦٦ ، ٢٢٦٩ — ٢٢٧٥ . وايــل ، عباسيين ، ج ٢ ، ص ٥٢٨ و ٥٣٠ .

أن التفسير الوحيد الذي يمكننا اعطاؤه لتقاعس أبي سعيد يكمن في كون يحيى بن زكرويه ومن بعده أخوه حسين ، قد زعم كل منهما انه الامام المنتظر ، أي حفيد محمد بن اسماعيل ، وهذا ما رفضه قرامطة العراق والبحرين . أما عن العلاقة بين حمدان قرمط وعبدان من جهة وبين زعماء الانتفاضة الشامية من جهة ثانية ، فلدينا رواية للنويري (٥٧) يمكن تلخيصها كما يلي : بعد وفاة رئيس الفرقة المقيم بسلمية أثارت لهجة رسائل ابنه وخلفه الشكوك في نفس داعي الدعاة حمدان قرمط ، فما كان منه الا أن بعث عبدان صهره وأحد خلصه الى سلمية ليتحرى الامر . وبعد مواجهة الامام توصل الموفد الى ان الدعوة للاعتراف بمحمد بن اسماعيل لم تكن سوى خدعة لاجتذاب الانصار ، وانه لا يتحدر من عقيل بن أبي طالب بل من ميمون بن ديصان . لذلك عزم قرمط وعبدان على الافتراق عن الفرقة ، وأبلغوا عزمهم الى دعاتهم . فهرع ابن القداح المقيم في طالقان الى محاولة ردهم ، الا ان قرمط اختفى دون أن يترك أثرا ، أما عبدان فقد رفض الرجوع رفضا قاطعا . عندئذ اتجه ابن القداح شطر زكرويه ورفعه الى مرتبة داعي دعاة (٢٨٦) بعد أن أمر بقتل عبدان . وقد توفي هو بعد ثلاث سنوات في حصار دمشق .

أعتقد ان بوسعي البرهان على ان هذه الرواية مختلقة باستثناء بعض تفاصيلها (٥٨) :

١ ـ اذا استندنا اليها وجدنا ان انشقاق حمدان قرمط قبل العام ٢٨٦ أمر مشكوك فيه . اذ لم يبدأ القرامطة بالظهور علنا الا بعد هذا التاريخ ، فاذا كان الامر كذلك فلماذا سموّا بهذا الاسم ما دام حمدان قرمط لم يعد على رأسهم ؟ ويجب الا يغيب عن بالنا انهم كانوا يطلقون على أنفسهم لقب المؤمنين أو

---

(٥٧) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ١٩٣ ـ ٢٠٢ .

(٥٨) لاحظ وايل ذلك الى حد ما . قارن عباسيين ، ج ٢ ، ص ص ٥٠٥ ، ٥٢٧ ، حاشية .

الفاطميين (٥٩) ، وان أعداءهم هم الذين دعوهم بالقرامطة (٦٠) .

٢ ـ من شبه المؤكد ان أبا سعيد قام حتى وفاته بأعباء المهمة التي عهد بها اليه حمدان قرمط ، وذلك باسم الرئيس المستتر في سلمية . ولا أدل على هذه الفرضية من العلاقات التي قامت بين خلفه (أبي طاهر) وبين الامراء الفاطميين ، كما سنبينه فيما بعد . ولو كان زكرويه قد حلّ محل قرمط في مقام داعي الدعاة لما تردد أبو سعيد في الاعتراف بذلك . ولكن ماذا حدث ؟ بينما كان زكرويه يبذل للسيطرة على الشام والعراق جهودا باءت بالفشل ، مضى أبو سعيد في بسط فتوحاته ، من غير أن يحرّك ساكنا لنصرته . بناء على هذا لا يسعنا الا استنتاج نتيجة واحدة وهي ان زكرويه لم يعيّن داعي دعاة . ويؤكد هذا الرأي سلوك أبنائه ، واذا استثنينا يحيى الذي يعدّه النويري من أبناء القداح ، أكدت رأينا سيرة حسين الذي كان يصدر عن رأي أبيه عندما تلقب بالمهدي وبأمير المؤمنين . والواقع ان هذا التصرف يستبعد كل تفاهم بينه وبين الامام . ومن شأن هذه الحجة أن تبطل الفرضية القائلة بمخالفة حمدان قرمط لسلمية قبل العام ٢٨٦ .

٣ ـ وتحتوي رواية النويري على اخطاء بيّنة أخرى . فابن القداح ، الرئيس المستتر في سلمية ، يظهر متسرعا في استعدائه أفضل اتباعه بصراحته الرعناء ، وذلك ليترأس بنفسه قوات البدو . هذا أمر لا يصدق ، والوقائع التي تثبت استحالة هذا القول متوفرة : ما كان لقرامطة البحرين أن يصبحوا همّ المسلمين المخيف ، ولا كان للفاطميين الى العرش وصول لو قيض لهذه الحماقة أن ترتكب . كان من شأنها أن تقضي على مشروع بني بمنتهى البراعة ويتطلب ، كشرط أولي ، أن يظل الرئيس

---

(٥٩) هذا ما نعلمه علم اليقين عن قرامطة الشام . قارن الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢١٩ ، ٢٢٥٧ . المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(٦٠) فالطبري يصف زكرويه بانه داعي قرمط حتى في العام ٢٨٩ ، تاريخ ، ٣ / ٢٢١٧ .

مستترا حتى يحين أوان ظهور المهدي في كامل مجده . لا ريب اننا لا نعرف الكثير عن أبناء عبد الله بن ميمون قبل تسنم عبيد الله سدة الخلافة ، ولكن من الثابت انهم كانوا دهاة يحسنون اختيار الوقت المناسب . والحجة من الوضوح بحيث تغنينا عن الالحاح .

٤ ـ تشعرنا رواية النويري ، بالاضافة الى ما سبق ، بنوع من الغموض والابهام ، فتحدثنا بادىء ذي بدء عن ابن للامام المتوفى ، مكث في سلمية وخلف أباه . ثم لا نسمع عنه شيئا ، واذ بأحد أبناء عبد الله بن ميمون القداح يظهر في طالقان ويحاول اعادة تدبير الامور . وها هو يستلم زمام السلطة في العام ٢٨٩ ، ثم يصبح صاحب الناقة . ان في التفاصيل المذكورة في آخر الرواية لدليلا على عدم دقتها ، اذ لا يرقى الشك الى كون يحيى بن زكرويه هو صاحب الناقة . فهذا النويري نفسه يصف حسين بأنه ابن زكرويه ، وهذا زكرويه يتكلم في احدى رسائله عن يحيى وحسين كأخوين (٦١) . فضلا عن ذلك ، لا مجال كما رأينا سابقا (٦٢) ، لامام بين أحمد أبي شلعلع وسعيد ـ عبيد الله . وهذا الاخير هو الذي دبر انتفاضة قرامطة الشام بشهادة خبر في « الفهرست » (٦٣) جدير بالاحترام . الا ان أحمد لا يمكنه أن يكون ابن قداح رواية النويري ، لان النويري يضع الخلاف بين قرمط والامام بعد وفاة أحمد هذا . وهو ليس عبيد الله أيضا لان ابن القداح الذي يتكلم عنه النويري قد مات . وأخيرا ليس من المحتمل أن يوجد في ذلك الوقت ، عم لعبيد الله في طالقان ، لان المعتضد الذي لاحق القرامطة بشدة وتابع أمورهم عن كثب ، كما رأينا سابقا وكما سنثبته من بعد ، لا يعرف سوى عبيد الله زعيما لهذه الفرقة . واذا كان المعتضد قد تمكن من تعقبهم حتى في النواحي الخاضعة للطولونيين فمن

---

(٦١) أنظر أعلاه ص ٥٥ . دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢٠٧ . وقد بين إوايل ان تفسير دي ساسي لهذا النص غير مقبول .

(٦٢) أنظر أعلاه ص ٢٩ .

(٦٣) ص ١٥٧ .

الاولى أن يمنع أحد قادتهم من الاقامة في طالقان . وحسب ما توفر لنا حتى الآن من معلومات كانت سلمية في ذلك الزمن المركز الوحيد الذي يشع منه نشاط القرامطة .

ولكن عندما يقول النويري ان سبب مخالفة قرمط هو استياؤه من رئيسه ، فانه يورد تفصيلا صحيحا تماما . كنت قد اعتقدت سابقا ان ابن حوقل أعطى سببا آخر ، ولكنها كانت غلطة ، اذ ان النص الذي حققته (٦٤) يؤكد الامر ويضعه فوق مراتب الشك . ونحن نجد فيه : « وكان حمدان قرمط اذ ذاك في دعوة السلطان حذاء أمير المؤمنين المهدي بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفا ذلك وجرت خبوط وتخاليط كثيرة في بعض الروايات » . لقد ظننت سابقا ان « فرجعا » تشير الى قرمط وأبي سعيد . وأعتقد الآن ان ذلك خطأ ، وانه يجب ادخال « وعبدان » بعد « حمدان قرمط » ، بذلك يثبت ابن حوقل مقالة النويري عن انشقاق قرمط وعبدان . ولكن على هذا يقتصر الاتفاق بين المؤرخين ، لان ابن حوقل الذي كان متحمسا للفاطميين ومطلعا ، بشكل عام على الاقل ، على علاقاتهم بالقرامطة ، يؤكد انهم تركوا حزب عبيد الله .

حتى لو لم تتوفر لنا شهادة ابن حوقل ، يكفي اننا اضطررنا لرد تسلسل الاحداث عند النويري لنستنتج ان انشقاق حمدان قرمط وعبدان لم يحدث كما رواه النويري . فابن القداح لم يعد يقيم في سلمية ابتداء من العام ٢٨٧ أو ٢٨٩ على الاكثر ، لانه كان يجوب صحارى افريقيا . لقد اتخذت أعمال هذه الاسرة فجأة مجرى مغايرا تماما . فأبو عبد الله ، الذي كان داعيا بسيطا ، توصل بفضل تحمسه لقضية المهدي وبفضل مواهبه العسكرية المرموقة ، الى تزعم قبيلة كتامة البربرية القوية ، والى احراز انتصارات هامة على أمير افريقيا ، حتى دخل في روعه انه قادر على التغلب على كل افريقيا . ولما اتصل خبر ذلك بالامام في سلمية ، فطن الى أهمية المشروع ، وقصد افريقيا

---

(٦٤) المسالك والممالك ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

خوفا على سلامته الشخصية في سلمية . رأينا سابقا (٦٥) انه ينبغي وضع هذا الرحيل قبل العام ٢٩٠ . ونحن قادرون على تحديد التاريخ بصورة أدق أيضا . يروي كل من المقريزي (٦٦) وابن خلدون (٦٧) ان الخليفة المعتضد بعث الرسائل الى ابن الاغلب في القيروان والى ابن مدرار في سجلماسة يأمرهم فيها بالقبض على عبيد الله . لا يمكننا القبول بأن ههنا التباسا ، لان هذين المؤرخين يذكران هذه الرسائل بالحاح ليثبتا انهما محقان في افتراضهما ان عبيد الله كان يعتبر مرشحا خطيرا للخلافة وانه كان من بيت علي . « الفهرست » أيضا يذكر المعتضد (٦٨) . فالالتباس انما يوجد في الرواية التي ينقلها دي ساسي (٦٩) ، ومفاده ان عبيد الله اضطر الى الفرار لينجو من ملاحقة الخليفة المستكفي (اقرأ المكتفي) . المعلوم ان المعتضد ، ولا يمكن أن يدور الكلام على غيره ، قد توفي في النصف الاول من العام ٢٨٩ ، فلا بد اذن من جعل الفرار من سلمية قبل هذا التاريخ ، وأن يطرح من ذلك العدد الوقت اللازم لوصول الرسائل المخبرة برحيل عبيد الله الى المغرب ، من مصر الى بغداد .

ان هذه النتيجة لا تسمح ، كما سبقت اليه الاشارة ، بالقول ان عبيد الله ، بعد رحيله من الشام ، وصل الى مصر أيام ولاية عيسى النوشري عليها (٧٠) ، كما انها تمنعنا من قبول رواية عريب القرطبي (٧١) القائلة ان هذا الحدث قد وقع عندما كان محمد بن سليمان واليا . لا بد اذن من الاستنتاج بأن وصوله

---

(٦٥) ص ٥٤ .
(٦٦) الخطط ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .
(٦٧) المقدمة ، ص ص ٣٨٦ ، ٣٨٩ .
(٦٨) ص ١٨٧ .
(٦٩) دروز ، مقدمة ، ص ٢٦٣ .
(٧٠) وايل ، عباسيين ، ج ٢ ، ص ٥٨٠ . دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ٢٦٣ . وستنفلد ، فاطميين ، ص ١٥ . [قارن ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٠٦] .
(٧١) صلة ، ص ٥٢ .

قد تم عندما كان هارون بن خمارويه الطولوني أميرا على مصر . لقد بلغت قلة احترام « الفهرست » للتسلسل التاريخي حد القول ان « المعتضد كتب للوالي عيسى النوشري » .

يخطىء دي سلاين عندما يحاول ازالة مفارقة ابن خلدون التاريخية بقراءته المكتفي بدلا من المعتضد ، وهو ما قبله وستنفلد واعاده من غير اعتراض . الا ان عبيد الله لم يفرّ من سلمية بسبب تعقب المكتفي له ، وتسلسل الاحداث يثبت هذا بوضوح. واذا احتيج للبرهنة عليه ، ذكرنا قراءنا بحدثين معروفين عندهم وهما : انه في العام ٢٩٠ أبيد جميع سكان سلمية تقريبا ، وانه اذا كان يحيى بن زكرويه لم يزعم انه المهدي ، فلا ريب أن اخاه حسينا قد فعل . وسننهي برهاننا بدمج هذين الحدثين مع المعطيات التالية التي لا سبيل للمنازعة فيها : لم يكلف محمد بن سليمان بقيادة الجيش الذي استعاد دمشق ومصر من الطولونيين الا في شهر رجب من العام ٢٩٢ ، وكان انتصاره في صفر ولم يعين عيسى النوشري واليا الا في جمادى الثانية . أوليس من الثابت المؤكد ان الوقائع الاولى تمنع من قبول بقاء عبيد الله في سوريا في العام ٢٩٠ ؟ أليس من الثابت أيضا ان آخر الوقائع المذكورة ، لا يمكن أن يتلاءم مع الروايـة القصصية التي تصف فرار عبيد الله من يد النوشري ، الا اذا حدث في نهاية العام ٢٩٢ ؟ والحال ان هذا مستحيل لاننا نعلم قطعا ان عبيد الله كان في العام ٢٩٢ يقيم في سجلماسة ولم يكن فيها سجينا ، هذا ما يترتب على خبر لابن عذاري (٧٢) . أما الروايات الاخرى (٧٣) فتطلعنا على ان عبيد الله كان من اللباقة بحيث استمال أمير سجلماسة بالهدايا حتى انه لم يلق القبض عليه الا نزولا عند الحاح زيادة الله الشديد (٧٤) . ومع هذا فقد عومل معاملة ممتازة في

---

(٧٢) [في الاصل « لعريب » ولكن لما كان المؤلف يشير الى البيان المغرب، ج ١ ، ص ١٣٩ ، فقد اقتضى التصحيح] .

(٧٣) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٠ . وستنفلد ، فاطميين ، ص ١٨ .

(٧٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

سجنه اذ احتجز في غرفة من غرف قصر الاميرة (مريم بنت مدرار) (٧٥) .

لما كان اضطهاد عبيد الله لم يبدأ ، في الاغلب ، الا بعد أول المواقف العدائية لقرامطة البحرين ، أي في العام ٢٨٧ ، فبامكاننا أن نفترض ان فرار عبيد الله قد حدث في العام نفسه ، أو في الذي يليه . واذا كان لرواية النويري من أساس تاريخي ، وجب التسليم بكون زكرويه قد استغل فرار عبيد الله ليحل ابنه يحيى محل سليل محمد بن اسماعيل ، المهدي المنتظر (٧٦) ، وبكونه هو الذي قابل عبدان ، وبكون هذه الاحداث قد التبست واختلطت بالانشقاق عن المهدي الذي لم يحدث الا بعد ذلك ببضع سنوات . وغني عن البيان ان قرمط وعبدان لم يجهلا رحيل الامام سرا الى المغرب .

من المعلوم ان عبيد الله دخل الى رقادة في مستهل العام ٢٩٧ ، وانه في آخر شهر من السنة التالية أمر باعدام أبي عبد الله وأخيه اللذين لما ارتابا في كونه المهدي حقا ، بادرا الى التآمر عليه . وبعد تنفيذ الاعدام كتب عبيد الله الى أتباعه في المشرق الرسالة التالية (٧٧) : « أما بعد ، فقد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الاسلام (يقصد العقيدة القرمطية) فاستزلهما الشيطان ، فطهرتهما بالسيف ، والسلام» .

وهاكم ما اعتبره مفتاح انشقاق حمدان قرمط وعبدان . من الجائز أن لا يكون أبو عبد الله قد علم ، في البداية ، بتقمص عبيد الله لشخصية المهدي المنتظر . ومن الصعب أن نقطع في كون الشكوك قد ساورته فورا ، أم ان ارتيابه في أمر عبيد الله قد نشأ من ملاحظته للتضارب الصارخ بين أفعاله ، منذ توليه الخلافة ، وبين الحكم المثالي الذي كان أبو عبد الله يحلم برؤيته

---

(٧٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٧٦) بذلك نفهم قول يحيى ان زكرويه من دعاته كما يخبرنا الطبري في تاريخه ، ٣ / ٢٢١٨ .

(٧٧) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

يتحقق على يد المهدي . على أية حـــال ، لم يطل الوقت كثيراً بقرمط وعبدان حتى أدركا ان المهدي الذي ظهر في افريقيا ليس سوى الامام ، سعيد ـ عبيد الله ، الذي فرّ من سلمية ، والذي ربما كانا يعرفانه شخصيا . لقد فهم الاثنان ان الامـــام الغائب ليس غير وهم ، وانهما قد خدعا . يخطىء من يشك في ان هذه الخيبة كانت سبب خروجهما مـــن البيعة . ولكن هذا الخروج لم يكن صاخبا . ان توبة رئيسين نافذين من رؤساء القرامطة ، ورجوعهما الى الاسلام ، وأدائهما الولاء لخليفة بغداد ، لاحداث من الخطورة بحيث لا يسع المؤرخين اغفالها . اذا لم نكترثلرواية النويري المشوشة ، فلن نطّلع عـــلى مخالفتهما الا من خبر ابن حوقل ، أي من مصدر فاطمي . ولن نفترض ، فضلا عن ذلك ، ان التغيير المفاجيء في سلوك عبيد الله هو الذي دفعهما الـــى انكار المذهب ، ومن غير المحتمل أن يكونا قد عاشا طويلا بعـــد الكتاب الذي كتباه لعبيد الله . وتذهب رواية النويري الى ان قرمط اختفى بطريقة غامضـــة ، وان عبدان قد اغتيـــل عقب الانشقاق . ولئن أصبنا في اعتقادنا ان ثمة علاقـــة وثيقة بين انشقاق الرجلين ووصول عبيد الله الى الخـــلافة ، حقّ لنا افتراض كون مقتل عبدان ، وربما حمدان قرمط أيضا ، مـــن تدبير هذا الامير . كانت الردة في الشرع القرمطي ، مثلها فـــي الاسلام ، تعاقب بالموت ، وقد كان عبيد الله ، الذي تشدد فـــي تطبيق الوسائل التي أوصلته الى الحكم ، من الغيرة على السلطة بحيث لا يمكن أن يدع هذه الجريمة بلا عقاب ، لا سيما وانهـــا كانت ستشكل سابقة خطيرة الأبعاد . وهذا ما رأيناه للتو فـــي قضية أبي عبد الله وأخيه .

كنت قد اعتقدت قبلا ان بامكاني الاستدلال أيضا على ترك أبي سعيد التشيع لعبيد الله . ولكن ، حتى قبل اطلاعي عـــلى سقوط كلمتي « و عبدان » (٧٨) من النص ، كنت أرتاب في صحة هذا الرأي . وفي الواقع ، فقد قام قرامطـــة البحرين ، في

---

(٧٨) أنظر أعلاه ص ٦٠ .

العام ٣٠٠ (٧٩) ، بغزو لبلاد البصرة ، ولم يتمكن الوالي من ردهم حتى بعد تلقي التعزيزات : وهذا يثبت انه لم تكن ثمة اية علاقة بين ابي سعيد وبلاط بغداد . من ناحية ثانية ، يمكننا أيضا أن نستدل على ذلك من كون أولى حملات الامير الفاطمي الشرقية قد وقعت في العام نفسه (٨٠) ، ولما كانت جميع الحملات اللاحقة على مصر تتطابق مع تحركات القرامطة ، لان الاخيرة كانت تتم ، كما نعلم ، بأمر من الامير الفاطمي ، حقّ لنا أن نفترض ان غزو القرامطة في العام ٣٠٠ قد تم بايعاز من هذا الامير عينه . وهذا لا ينفي امكانية ارتياب عبيد الله في ولاء أبي سعيد .

اغتيل أبو سعيد في قصره في الاحساء في العام ٣٠١ . وليس من الثابت ان العبد الذي قتله فعل ذلك عملا بأوامر تلقاها، ولكن هذا محتمل جدا ، لانه قتل بعضا من أهم قادة أبي سعيد أيضا (٨١) . يجعل الجوبري (٨٢) الجريمة في العام ٣٠٠ ، ولكن الدلائل تشير الى ان هذا التاريخ ليس صحيحا . أما المؤكد ، فهو ان الخبر لم يصل الى بغداد الا في نهاية العام ٣٠١ . لما قبل علي بن عيسى ، هذا الرجل البارز ، مهام الوزارة في بغداد ، في أول أيام ذلك العام ، عهد اليه الخليفة بمباشرة المفاوضات مع أبي سعيد . هذا ما يذكره ابن الجوزي (٨٣) . ولكن اذا صدّقنا رواية جيدة ، وان حديثة (٨٤) ، وجدنا ان الوزير نفسه قد بادر

---

(٧٩) نجد ذلك عند عريب . أما ابن مسكويه [تجارب الامم ، ج ٥ ، ص ٣٣] ، وابن الاثير (الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٩ وما يليها) فيعطون العام ٢٩٩ .

(٨٠) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ١٧١ . الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٨٨ .

(٨١) ابن حوقل ، المسالك ، ص ٢١١ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٦٢ . وهذا يثبت ان التفاصيل التي يوردها ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٨٢) وغيره ، ليست صحيحة . [وينفرد سليل بن رازق برواية خيالية تجد تفصيلها في الملحق رقم ٧] .

(٨٢) كتاب المختار في كشف الاسرار ، ص ١٢ .

(٨٣) المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٢١ .

(٨٤) مخطوطة ليدن ٢٥٩٩ [عنوانها عيون التواريخ ، وهي لابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات] .

الى استئذان الخليفة. يخبرنا كل من ابن مسكويه وابن الاثير (٨٥) ان الكتاب الذي كتب باسم الخليفة المقتدر صيغ بعبارات لائقة جدا : فقد اجتهد الخليفة في اقناع القرمطي بالعدول عن مبادئه الخاطئة وفي دعوته للدخول في الطاعة والافراج عن الاسرى المسلمين . الا ان ابن الجوزي يذهب الى ان الرسالة اختتمت بالتهديد بتقويمه بالسيف ان رفض الطاعة . مهما يكن من الامر ، عندما وصل حملة الرسالة الى البصرة علموا بموت أبي سعيد وأخبروا الوزير بذلك . فلما أمرهم بمتابعة المهمة ، حملوا الكتاب الى ابن أبي سعيد الذي خلفه . فاستقبلهم الخلف بحفاوة وخف للافراج عن الاسرى وأعاد السفراء الى بغداد بجواب ، سأرجع اليه عما قريب .

لم يفطن بلاط بغداد الى وجود علاقة ما بين قوة عبيد الله النامية والقرامطة ، ولا خطر ببال العباسيين ان هدف جهودهما المتضافرة هو القضاء على خلافتهم . وهذه بعض الوقائع التي تثبت هذا الجهل : ان أول مرة يهتم فيها الطبري بأمير الفاطميين ، نحو العام ٣٠٠ (٨٦) ، يكتفي بالقول انه قد خرج في المغرب خارجي وفيما بعد يسميه بابن البصري (٨٧) . وثمة معطى آخر : في العام ٣٠٠ كتب الخليفة الى تكين عامله على مصر يأمره بدعوة المهدي للدخول في الطاعة لقاء منحه وظيفة في خدمة الخلافة (٨٨) . ولم يفكر أحد في الامر جديا الا بعد أن وصل حباسة ، قائد جيش عبيد الله الى مصر في العام ٣٠٢ (٨٩) . ومما يعزز رأينا في وجود هذا الجهل ، كون علي بن عيسى لم يتوقف عن مراسلة زعيم القرامطة محاولا استرضاءه ببعض

---

(٨٥) الكامل ، ج ٨ ، ص ٦٣ .

(٨٦) تاريخ ، ٣ / ٢٢٨٨ .

(٨٧) المصدر نفسه ، ٣ / ٢٢٩١ .

(٨٨) كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .

(٨٩) [المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٧ . ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ١٧١ . عريب ، صلة ، ص ٥١] .

التنازلات : لو كان الوزير يعلم حقيقة الامر لفطن بسرعة الى عدم جدوى هذه المحاولات .

لا نعلم الكثير عن شخصية أبي سعيد . يقول الجوبري (٩٠) انه كان مشلول الجانب الايسر حتى انـه لم يقدر على المشي ، وكان يحمل حملا فيوضع على فرسه ، الا ان ذلك لم يكن يمنعه من القيام بنشاط لا يكلّ . ويزعم الجوبري أيضا ان أبا سعيد كان متبحرا في علم الغيب ، وانـه قد ادعى النبوة . ويؤيد الجوبري قوله بذكر البيتين التاليين للقفطي الشيباني شاعر بلاط أبي سعيد :

فمن لذا الوحي مكتوب صحائفه
مستنظما بكلام الله تنظيما
ومن به الارض مشتد مراكزها
لولاه أصبح وجه الارض مهدوما

ولكنه يبالغ في تقدير مرمى هذين البيتين ، اذ يجب ألا نرى فيهما الا اجلالا مفرطا كما يذهب سليل بن رازق (٩١) : « وقد زخرف لهم الحسن وموّه على الضعفاء حتى تألهوه فجعلوه الها دون الله تعالى » . وقد تعاظم هذا الاجلال بعد موته . ويورد ناصر بن خسرو (٩٢) ان قرامطة البحرين كانوا يتسمون بالأبي سعيدين . « وقد قال لهم أبو سعيد اني راجع اليكم ، يعني بعد الوفاة ... وعلى باب قبر أبي سعيد حصان مهيأ بعناية ، عليه طوق ولجام ، يقف بالنوبة ليلا ونهارا ، يعنون بذلك ان أبا سعيد يركبه حين يرجع الى الدنيا . ويقال انه قال لأبنائه : حين أعود ولا تعرفوني ، اضربوا رقبتي بسيفي ، فاذا كنت أنا حييت في الحال . وقد وضعت هذه الدلالة حتى لا يدّعي أحد انه أبو سعيد » .

---

(٩٠) المختار في كشف الاسرار ، ص ١٢ .
(٩١) [الفتح المبين في سيرة السادات البوسعيدين ، مخطوطة كمبريدج رقم ١٨٣ ، ص ١٠٣] .
(٩٢) سفرنامه ، ص ص ٩٢ — ٩٣ .

غني عن البيان ان انتصارات أبي سعيد خوّلته تسنّم مقام أرفع من مرتبة الداعي البسيط . الا اننا نجهل اللقب الذي كان يحمله . ولعله سمي منصور البحرين كما سمـــي داعي اليمـــن بمنصور اليمن ، وهو لقب رفيع غالبا ما يعادل لقب المهدي (٩٣) .

(٩٣) أنظر ملاحظة مولر في Burger und Schloesser, I, 75. (Sitzungsber. de l'Académie des Sciences à Wienne, 1879, 94, 407).

٥ ـ خلافة أبي سعيد :

ابو طاهر الجنابي

رأينا في خبر اوردته سابقا (١) ان الـذي عينه أبو سعيد خلفا له ، وهو من أنسبائه ، قتل في العام ٢٩٠ . بيد انه مـن المحتمل ان يكون في الخبر مبالغة من الوالي ابن بانوا . يـذهب الجوبري الى ان أبا سعيد ترك سبعة أبنـاء : سعيد ، الفضل ، ابراهيم ، يوسف ، أحمد ، القاسم وسليمان . اما النويري (٢) فيعد منهم ستة مستثنيا القاسم وذاكرا محمدا بدلا عن الفضل ، وهذا بلا ريب خطأ . يقال عادة ان أبا طاهر سليمان خلف أباه ، ولكن ابن مسكويه وابن الاثير وأبا الفداء والنويري وابن خلدون وكاتب مخطوطة ليدن رقم ١٩٥٧ المجهول (٣) يجمعـون على ان أبا سعيد عيّن ابنه أبا القاسم سعيدا خلفا له وان أبا طاهر قـد وثب على المنصب وجرّد أخاه . ومما يؤكد هـذه الرواية ان سعيدا هو البكر ، لان أباه كني به ، على عـادة العرب ، وان أبا طاهر كان في السابعة عشرة من العمر في العام ٣١٢ ، على

(١) راجع أعلاه ص ٤٨ .

(٢) De Sacy , Chrestomathie , II , 126 .

(٣) [هو ابن شاكر الكتبي كما ورد سابقا ، ورقم المخطوطة الآن ٢٥٩٩] .

ذمة ابن مسكويه والهمذاني (٤) وكتاب العيون (٥) وابن الاثير (٦) وابن الجوزي (٧) . ولما كان أول عمل عسكري هام للقرامطة ، منذ مقتل أبي سعيد ، قد تم تحت قيادة أبي طاهر في العام ٣١١ ، جاز لنا الاعتقاد بأن مجلس العقدانية ، الذي سنتحدث عنه من بعد ، قرر نتيجة لذلك أن يعهد بتدبير الامور الى أبي طاهر ، بدلا من سعيد الذي يبدو انه لم يرث شجاعة أبيه ولا حزمه (٨) . وقد ثبت المهدي عبيد الله هذا الاختيار (٩) ، ولعله كان هو السبب فيه . ولكن ليس من الصحيح ان أبا طاهر قد قتل أخاه كما يقول وايل (١٠) مجاريا ابن خلدون : والحقيقة ان هذا الاخ ساعد أخاه أبا طاهر على الحكم مستعينا بأخيه الفضل (١١) أيضا ، حتى اننا نراه ، بعد وفاة أبي طاهر ، يستمر في حكم البلاد بالتعاون مع اخوانه ، ونعلم بخاصة انه توفي في العام ٣٦١ (١٢) . وبالمثل ، ليس من المحتمل أن يكون أبو سعيد هو الذي أسس حكم السادة الستة على ما يرويه ناصر بن خسرو (١٣) .

ويترتب على ما تقدم ان ابن الاثير كان مخطئا عندما نسب ، في روايته لمراسلة المقتدر للقرامطة ، الى أبي طاهر استقبال السفراء بصفته خلفا لابيه . ويقول ابن مسكويه على وجه الدقة :

---

(٤) تكملة ، ص ٤٣ .

(٥) ج ٤ ، ص ٢٢٣ .

(٦) الكامل ، ج ٨ ، ص ١٠٨ .

(٧) المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٨٨ .

(٨) « لم يضطلع بالامر » بتعبير ابن مسكويه [تجارب الامم ، ج ٥ ، ص ٣٣] و [ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٢١] ، أما ابن الاثير (الكامل ، ج ٨ ، ص ٦٣) و [ثابت بن سنان ، تاريخ اخبار القرامطة ، ص ٣٦] فيقولان : عجز عن القيام بالامر .

(٩) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٨ .

(١٠) وايل ، عباسيين ، ج ٢ ص ٦٠٤ .

(١١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣١١ . الهمذاني ، تكملة ، ص ١٤٠ .

(١٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٦٣ .

(١٣) سفرنامه ، ص ٩٣ .

« أولاده ومن قام بعده مقامه » (١٤) . أما وايل الذي لم يعرف سوى رواية ابن الاثير ، فيستنتج ، بالنسبة الى عمر أبي طاهر في العام ٣١٢ ، انه ينبغي أن نقرأ ٢٧ بدلا من ١٧ عاما . بيد ان هذا الافتراض يفتقر الى ما يدعمه .

يمكن تبرير اتهام سعيد بالعجز ، استنادا الى حالةالسكون شبه التام التي مرّ فيها القرامطة في السنوات العشر التي عقبت مصرع أبي سعيد . ان الجواب الذي بعثـــه سعيد الى الخليفة المقتدر لا ينمّ عن مشاعر الاستقلال والابـــاء التي كـانت تسم القرامطة في عهدهم الاول . ويروي ابن الجوزي (١٥) انه بعدما عبّر سعيد عن اجلاله العميق للخليفة ، وامتنانه لعدالة الوزير ، مضى يقول : « انّا لم نخرج من الطاعة ولكنا كنا قوما مستورين ، فنقم علينا ذلك فجّار مـــن الناس لا دين لهم ، فشنعوا علينـــا وقذفونا بالكبائر ، ثم خرجوا الى سبّنا وضربنا ، ثم نـادوا قد أجّلناكم ثلاثة أيام فمن أقـــام بعدها أحلّ بنفســـه العقوبة . فخرجنا ، فوثبوا علينا قبل الاجل وضربونا وأغرمونا الاموال ، فسألناهم أن يؤمنونا على أنفسنا ، فلم يفعلوا . وأمر صـــاحب البلد بقتلنا فهربنا ، فأخذوا حرمنا وسلبوهم سلبـــا قبيحا ، وانتهبوا منازلنا ، فلجأنا الى البادية فخرج ناس الـــى المعتضد بالله فشنعوا علينا ، فصدّق مقالتهم ، وبعث الينا من يخاصمنا فدافعنا عن أنفسنا ، فقويت وحشتنا من الخلق . وأما ما ادعي علينا من ترك الصلاة وغيرها ، فلا يجوز قبول دعوى الا ببينة ، واذا كان السلطان ينسبنا الى الكفر بالله تعالى فكيف يسألنا أن ندخل في طاعته » .

نكاد عند مطالعة هذهالرسالة أن نجد فيها نوعا منالسخرية،

---

(١٤) [تجارب الامم ، ج ٥ ، ص ٣٥ . ابن الجوزي ، المنتظـم ، ج ٦ ، ص ١٢١] .

(١٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٢٢ . [ويمكـن قراءة نهاية الكتاب في (عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، أنظر الملحق رقم ٤ . أنظـــر أيضا الذهبي ، تاريخ الاسلام ، المجلد الثالث ، مخطـوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ ، ورقة ٤ ـ ٥] .

لولا ان سيرة القرامطة في السنوات التالية لم تؤكد ، بصورة قاطعة ، رغبتهم في العيش بسلام مع حكومة بغداد والحصول على تسهيلات لتجارتهم . ولا نقع في هذه الفترة على أي عمل عسكري . حقا ، ان المسعودي (١٦) يروي غزو البصرة في العام ٣٠١ ، الا ان هذا بيّن الخطأ ، فالتفاصيل التي يوردها لا يمكن أن تعود الا الى غزوة ٣١١ . ويجري التعرض للحجاج في العام ٣٠٢ مجرى ذلك في انه لم يكن من فعل القرامطة كما ظننت مخطئا من قبل . كل ما يمكن أن يكونوا قد فعلوه ، لا يتعدى عرضا تهديديا لقوتهم قصدوا من ورائه تعجيل المفاوضات مع الخليفة . فهذا عريب (١٧) يروي ، تحت العام ٣٠٣ : « وفي هذه السنة نظر علي بن عيسى بعين رأيه الى أمر القرامطة ، فخافهم على الحاج وغيرهم ، فشغلهم بالمكاتبة والمراسلة والدخول في الطاعة ، وهاداهم واطلق لهم التسوق بسيراف ، فردهم بذلك وكفهم ، فخطأه الناس ، فلما عاينوا بعد ذلك ما فعله القرامطة حين أحرجوا ، علموا ان الذي فعلهعلي صواب كله . وشنّع على علي بن عيسى بهذا السبب انه قرمطي ، ووجد حسّاده السبيل الى مطالبته بذلك . وكان الرجل أرجح عقلا وأحسن مذهبا من الدخول فيما نسب اليه » (١٨) .

وفي الواقع أقيل علي بن عيسى من الوزارة ورمي في السجن في العام ٣٠٤ ، وبقي فيه حتى ٣٠٦ ، أي عندما ألحق بالوزير حامد بصفة مستشار . وقد مكّنته هذه الوظيفة من القبض على أعنّة الحكم حتى العام ٣١١ .

حدث أول تحرك قرمطي بعد موت أبي سعيد في العام ٣٠٧ عندما تلقى القرامطة أمرا من عبيد الله بمساندة القائم ، ولي

---

(١٦) مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٨٠ .
(١٧) صلة ، ص ص ٥٨ ـ ٥٩ . وتجد الرواية نفسها لدى ابن الجوزي في المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٣١ .
(١٨) عن شخصية الوزير انظر :
[Dominique Sourdel , Le Vizirat Abbaside, Damas, 1960 , II , 519 - 551] .

العهد ، في حملته على مصر . استأثر هذا الفتح بانتباه المهدي كله ، بعد اخضاع مملكة الاغالبة الدويلات المجاورة المحيطة . ولكن هذا المشروع ، الذي سيتمكن ابن حفيده من تحقيقه في مدة وجيزة ـ حتى كاد أن يتم له الامر دون أن يضرب ضربة سيف واحدة ـ لن يقيّض له تحقيقه آنئذ بالرغم من الجهود النشيطة التي بذلها . ثلاث حملات متتالية أنفذها عبيد الله باءت بالفشل الذريع . وقد كان من شأن الاضطرابات التي اندلعت في غرب افريقيا ، اثر آخر هزيمة ، أن تجبره على التخلي عن فكرته مؤقتا . تمت الحملة الاولى في العام الذي اغتيل فيه أبو سعيد ، أما الحملتان التاليتان (في ٣٠٧ و ٣١١) فقد لقيتا مساندة القرامطة ، ولكن هذا العون كان ضئيلا في العام ٣٠٧ على الاقل . ويروي ابن خلدون (١٩) ان القائم أمر قوة من القرامطة بالسير الى مصر لملاقاته ، وان مؤنسا ، القائد المبتعث من بغداد لقتال الفاطميين ، استبق القرامطة ومنعهم من الاستجابة لدعوة القائم . ولكن لا شيء يؤيد رواية ابن خلدون ، لاننا لا نجد أي اثر ولا حتى لمحاولة قام بها القرامطة لارسال قواتهم الى مصر ، لا بل اننا لنجد عند عريب القرطبي أن مؤنسا لم يغادر بغداد الا في شهر رمضان من العام ٣٠٧ ، وان القرامطة اقتصروا على عملية نهب لبلاد البصرة ليست بذي بال . وفي العام ٣١١ أيضا لم يبعث القرامطة بأي عون جدي ، الا انهم غزوا مدينة البصرة بقيادة أبي طاهر الفتى وغنموا غنائم وافرة أغرتهم بالقيام بغزوات جديدة في المستقبل . وينقل الينا عريب تقريرا مطولا هاما عن غزوة البصرة في العام ٣١١ : يوم الخميس في ٢١ ربيع الاول ألقي القبض على علي بن عيسى وعلى حامد الوزير العباسي . فدخل الجنابي والقرامطة البصرة ليلة الاثنين بعد ولاية ابن الفرات بأربعة أيام . وكان خبر ولايته و « القبض على حامد وعلي بن عيسى قد وصل الى الجنابي وأصحابه من وقته من قبل من كان يكاتبهم ، لان بعض البصريين الثقات حكوا ان القرامطة كانوا يقولون لهم يوم دخولهم : ويلكم ما أركّ سليطينكم في ابعاد ذلك

(١٩) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

الشيخ عن نفسه ، وليعلمن ما يلقى بعده . قالوا ونحن لا ندري ما يقولون حتى وردنا الخبر بعد ذلك بالقبض على حامد وعلي ، وولاية ابن الفرات ، فعلمنا ما ارادت القرامطة ، وان الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر على ما أركن الناس آلته واعتقدوا صحته » (٢٠) .

ليس في نيتي أن أفصل الفظائع التي ارتكبت في البصرة ، ولا ان أعدد الغنائم الثمينة التي آب بها أبو طاهر الى البحرين (٢١) . بيد ان وجود عملاء للقرامطة في بغداد ، يمدونهم بالانباء بواسطة الحمام الزاجل لحري بلفت انتباهنا ، كما ان الاحترام الذي كان يكنه القرامطة لعلي بن عيسى لجدير بالملاحظة أيضا . ويخبرنا عريب (٢٢) بعد ذلك ان ابن الفرات قال للخليفة ان عليا بن عيسى خائن ، وله علاقات مشبوهة بالقرامطة (٢٣) ، فعوقب الوزير على هذه الجرائم المزعومة بمصادرة جزء هام من أمواله وبنفيه الى اليمن . أما كتاب العيون (٢٤) فيذهب الى ان بعض القرامطة الذين استسلموا في العام ٣١١ قد « زعموا ان عليا بن عيسى كاتبهم بالمسير الى البصرة وانه وجه اليهم عدة أوقات بهدايا وسلاح » . فلما استجوب علي تمكن من اثبات بطلان الاتهام الاول ، ولكنه أقرّ بكونه قد بعث الهدايا والسلاح ، وقال : « أردت بذلك استمالتهم وادخالهم في الطاعة وكففتهم عن الحاج وأعمال الكوفة والبصرة مدة ولايتي دفعتين وأطلقوا من الاسارى الذين كانوا من المسلمين عدة » (٢٥) . وقد رأينا انه لم يتمكن من الحؤول دون نهب البصرة الذي تم بأمر من الفاطميين ، ولكن يبدو انه استطاع تهدئة القرامطة بعض الشيء ، اذ ان

---

(٢٠) [صلة ، ص ص ١١٠ - ١١١] .
(٢١) حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٥٣ .
(٢٢) صلة ، ص ١١٣ .
(٢٣) الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٧ .
(٢٤) ج ٤ ، ص ٢٢٢ .
(٢٥) [قارن تجارب الامم لابن مسكويه ، ج ٥ ، ص ١٠٩] .

الحوادث التي هزت العالم الاسلامي لم تقع الا بعد استقالته .

يبدو ان النصر الباهر الذي حققه أبو طاهر في العام ٣١١ قد دفع مجلس العقدانية لان يكل اليه مهمة القيادة العليا بدلا من سعيد . وقد رأينا ان هذا الاختيار حاز على موافقة عبيدالله، أو انه قد تم نزولا عند اقتراحه ، لا سيما وانه لم يرض تماما عن الدعم الذي قدمه له سعيد : فالعون العسكري القرمطي كان معدوما . ومن ناحية ثانية ، لما كانت الغنائم دون ما هو متوقع لزم عن ذلك أن يكون خمسها ، وهو نصيب الامام ، غير مرض .

غني عن البيان ان الاتصالات قد استمرت بين زعماء القرامطة وبين عبيد الله بعد تربعه على عرش الخلافة ، ولكنها كانت تتم بسرية كاملة ولم يعلم بها الا عدد قليل جدا من الراسخين في المذهب . ولو قيض لرعايا عبيد الله أن يرتابوا للحظة واحدة في كون الفظائع التي ملأت قلوب المسلمين الاتقياء هلعا ترتكب باسم سيدهم ، لما استطاع ، يقينا ، البقاء في الحكم سنة واحدة . لذلك وجب استنكار أعمال القرامطة رسميا في المملكة الفاطمية (٢٦) . فنجد مثلا ان المؤرخ ابن حوقل ، المعدود في كبار المتحمسين للفاطميين ، والذي يعلم باعتراف القرامطة بأسياده أئمة لهم ، نجده يتكلم عن أبي طاهر ساخطا ويلعنه على جرائمه ، ولا يشك أبدا في ان أبا طاهر لم يتجاوز اتباع المنهج الذي أوصل أسياده المبجلين الى الحكم ، ان لم يكن ينفذ أوامرهم الصريحة . وبالمثل ، فان مؤلف الفهرست (٢٧) لا يفهم كيف لا يطبق المذهب الذي بشر به الدعاة الفاطميون في مصر وفي قلب المملكة الفاطمية بالذات . ويتهم ناصر بن خسرو (٢٨) أبا سعيد ببث عقائد فاسدة ، ويبدو انه كان يجهل وجود العلاقات القائمة بين القرامطة والفاطميين ، مع انه اعتنق مذهب الفاطميين بكل اخلاص . من الثابت ان هذه العلاقات كانت

---

(٢٦) Dozy, Hist, des Musulmans d'Espagne, II , PP 124 - 125 .

(٢٧) ص ١٨٩ .

(٢٨) سفر نامه ، ص ٩٢ .

موجودة بالفعل ولكن قد يكون من السابق لاوانه أن نعدد هنا شهادات المؤرخين القاطعة (٢٩) . ان هذه الشهادات التي يؤكدها مضمون الرسالة الهامة التي أرسلها المعزّ الفاطمي الى أحد قادة القرامطة (٣٠) ، والتفاصيل التي يوردها ابن حوقل كفيلة بالقضاء على كل شك حول اعتراف أبي طاهر وأخلافه بكون عبيد الله وخلفائه أئمة ، أي خلفاء شرعيين لمحمد بن اسماعيل (٣١) ، وحول اختصاصه لهم بخمس عائداته ، وتأديته لهم شعائر الاجلال العلني المستحق للخليفة . بالاضافة الى ذلك فانه من الصعب تقدير حدود تعليماتهم : هل كان نهب الحرم المكي وانتزاع الحجر الاسود مثلا تنفيذا لاوامر عبيد الله أم ضد رغبته ؟ إما أنا فانني مقتنع بأنه من الجائز أن يكون القرامطة قد تعدوا غالبا حدود مهماتهم في الامور العادية ، ولكنهم قد سلكوا بحسب أوامر قطعية واضحة فيما يختص بنهب المسجد الحرام . لدينا عن اقتلاع الحجر الاسود واختطافه ، على الاقل ، اعتراف منهم صريح . وقد يقال لنا : في التواريخ المكتوبة (٣٢) رسالة من عبيد الله يستنكر فيها الفعلة ، ويأمر القرامطة ، مهددا ، بارجاع الحجر . وهذه الرسالة تبدو أصيلة وصحيحة (٣٣) .

---

(٢٩) ساحيل مؤقتا الى وايل ، عباسيين ، ج ٢ ، ص ص ٦٠٤ ، ٦١١ ،
Defrémery, C. : Mémoire sur la famille des Sadjides, Paris, 1848 , P 76 .

وايضا ابن‌تغري‌بردي ، النجوم الزاهرة، ج ٣ ، ص‌ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ الخ.

(٣٠) [أنظر نصها في اتعاظ الحنفا للمقريزي ، ص ص ٢٥١ – ٢٦٥ ، وخصوصا ٢٥٩] .

(٣١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٥ ، ق ٢ ، ص ١١٩ .

(٣٢) أخبار مكة المشرفة ، تحقيق وستنفلد ، عن طبعة ليدن ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(٣٣) أنظر :
De Slane, W. M. Bibliographie [compte - rendu sur « Exposé de la religion des Druzes »] , Journal Asiatique, 1883 , II , PP 120 , 103 .

الاجابة عن ذلك ميسورة : فكما قد لاحظ دي فريمري (٣٤) من قبل ، لم يكن ذلك سوى خدعة ودهاء لابعاد شبهة التواطؤ الذي يمكن أن يصبح في غاية الخطورة . ولا أدل على ذلك من اباحة شيوع هذه الرسالة علنا ، اذ لولا تلك الاباحة لما كنا ، على الارجح ، حصلنا عليها . أما الرسائل السرية فلا بد ، فيما أظن ، من أن تصاغ بعبارة مختلفة تماما ، بدليل ان الامر العلني الرسمي لم ينفذ . فقد ظل الحجر الاسود في الاحساء حتى العام ٣٣٩ الذي أعيد فيه بأمر من المنصور ، حفيد عبيد الله . وسأعود الى هذه القضية من بعد ، ولنتابع الآن تسلسل الاحداث .

كان أبو طاهر مهيأ للمهمة التي أوكلت اليه . فقد جمع الشجاعة الى « الفصاحة والادب » (٣٥) . ان الابيات القلائل التي تؤثر عنه لا تفتقر الى الزخم ولا الى الخيال ، وفيه يصح قول القائل : « كانت القرامطة اذا كانوا في ألف حطموا مئة ألف وانتصفوا » (٣٦) . كان يتمتع اذن بكل المواهب التي يتطلبها البدو من أميرهم ، ومما زاد في تفوقه انه كان جوادا وحريصا على تصيد أفضل الفرص للنهب والسبي . ولعل هذا كان سببا جزئيا لتعلق أبي طاهر بالسيطرة على الطريق بين العراق ومكة قبل كل شيء ، فقد كان يعلم ، فضلا عن ذلك ، انه يسدد ضربة في أكثر المواضع حساسية بالنسبة الى المسلمين .

ولم يطل الامر بالمسلمين لكي يدركوا ذلك ، فمنذ العام ٣٠٣ تنقلت فرق الحجاج بأمان ، ولكن في مستهل العام ٣١٢ أنبئت القافلة العائدة من مكة عند وصولها الى فيد ان القرامطة يتربصون بالطريق . فكّر القوم أولا بتحاشي الخطر والمسير الى وادي القرى للوصول الى الشام ، ولكن سرعان ما تخلوا عن الفكرة لطول الشقة من جهة ، ولان أحدا لم يكن يصدق بأن ثمة

(٣٤) Defrémery, C., Mémoire d'histoire Orientale, Paris, 1854, I, P 21.

(٣٥) ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة** ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

خطرا على قافلة محمية بشكل كاف . وعندما كانت القافلة تعبر سهل الهبير الرملي ، الممتد من محطة الاجفر حتى الشقوق ، ومن جبال قبيلة طيىء حتى البحر الفارسي (٣٧) ، فاجأها ثمانمئة فارس وألف راجل قرمطي (٣٨) . كانت القافلة غفيرة العدد وتضم نفرا غير قليل من الشخصيات البارزة من بينها أميرها عبد الله بن حمدان ، والد سيف الدولة الذائع الصيت . وقد قدّر هذا الشاهد العيان ان ٢٢٠٠ رجل و ٣٠٠ امرأة لقوا حتفهم في المعركة ، وان ٢٢٠٠ رجل و ٥٠٠ امرأة آخرين أخذوا أسرى الى هجر . ثم يضيف : ان الغنائم كانت ضخمة ، وضمت حوالي مليون دينار فضة وحوائج أخرى ومتاع ثمين بأكثر من ذلك ، كما وقعت الشمسة (٣٩) مظلة الخليفة في يد المهاجمين . كان الازهري العالم (المتوفي في ٣٧٠) في عداد الاسرى فوقع ، بعد اقتسام الغنائم ، بيد بني تميم . هذا ما يتبين من قوله ان أسياده كانوا يقضون الشتاء في الدهناء ، والربيع في الصمان ، والصيف في الستارين . وقد بقي عندهم لمدة سنتين ، يكرس أوقات فراغه لدراسة تطبيقية للغة نشر فيما بعد نتائجها في كتاب التهذيب ، وهو عمل هام يقع في عشرة أجزاء (٤٠) . كان أسياده بدوا أقحاحا « نشأوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ، ويرجعون الى اعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ ، ويرعون النعم ويعيشون بألبانها ، ويتكلمون بطباعهم البدوية ، وقرائحهم التي اعتادوها ، ولا يكاد يقع في منطقهم

---

(٣٧) ابن حوقل ، المسالك ، ص ٣٠ . المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٧٧ ، ص ص ١٠٧ وما يليها ، ٢٥١ .

(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٠٧ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢١١ . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ . الهمذاني ، تكملة ، ص ٤٣ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٨٨ . عريب ، صلة ، ص ص ١١٨ – ١١٩ .

(٣٩) [الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢٢٧٤ . حمزة الاصفهاني ، تاريخ ملوك الارض ، ص ١٥٣] .

(٤٠) تهذيب اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧ .

الاثير ناقصة ، اذ ان ثمة اخا ، غير الثلاثة الوارد ذكرهم ، وهو أبو يعقوب يوسف المتوفي في العـــام ٣٦٦ . ولا تنطبق تهمة الاقبال على الخمر والميسر لا عليه ولا على أخيه أحمد . ويناقض ابن خلدون نفسه عندما يقول ان أبا طاهر خلفـــه أخوه البكر ، ويسميه أحمد ، مع علمه الاكيد بأن سعيدا هو البكر . وهــاكم كيفية تسلسل الاحداث فيما نظن : بعد وفـــاة أبي طاهر قام سعيد ، بمعاونة أخيه الفضل ، بأعباء الحكم ، بانتظـــار صدور قرار الخليفة الفاطمي في الخلافة . يقـول ابن خلدون ان القائم هو الذي اتخذ القرار ، والارجح ان المنصور هو الذي فعل ذلك . وقد أمر المنصور أن يؤول الحكم لا الى سابور ، ابن أبي طاهر ، كما تمناه معظم أعضاء المجلس العقداني ، بل الى عمه أحمـد ، والد الحسن الاعصم الشهير ، وأضـــــاف ان سابور هو الذي سيخلف عمه في الحكم . سنرى فيما بعد ، ما تسبب به هـذا القرار من كوارث ، ولنتابع الآن رواية المؤرخين .

لم يحجّ الناس في العام ٣٣٢ ، لغياب الخليفـة عن بغداد ولاضطراب الوضع في البلاد ، على ما يذكره العتيقي (٧) . أما الذهبي (٨) فيعزو ذلك الى موت أبي طاهر الـــذي كان يواكب القافلة منذ معـــاهدة ٣٢٧ (٩) . ولم يحج في السنة التي تلت بسبب موت الاخشيد ، أمير مصر ، وحـــوادث بغداد ، علـى الارجح . على ان المعاهدة مع القرامطة ظلت سارية المفعول ، فأمن جانبهم على الاقل . ولكن موضع الحجر الاسود في الكعبـة ظل خاليا . بذلت جهود كثيرة لحمل القرامطة على رده ، حتى لقد عرض [بجكم] عليهم مبلغ ٥٠،٠٠٠ دينار (١٠) ذات يوم ، ولم

---

(٧) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٨) Defrémery, C., Emirs al - Omara, P 26, note 2.
وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

(٩) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

(١٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠١ . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ . الهمذاني ، تكملة ، ص ١٦٣ . ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٣٦٥ .
Defrémery, C., Mém. d'histoire Orientale, I, P 18.

لحن أو خطأ فاحش » . وكما تدل روايتنا بوضوح كانوا يشفقون بالمشاركة في الحملات الهادفة الى النهب والسلب .

أفرج عن ابن حمدان قبل الازهري بوقت طويل . ولعله هو الذي أطلع المقتدر على شروط الصلح التي يقبل بها أبو طاهر . كانت شروطه ان يتنازل له الخليفة عن البصرة والاهواز ، لا أن يوليه عليها كما افترض وايل (٤١) ، ويقرّ له بسيادته عليهما سيادة تامة . لم تلق الرسالة الوقحة التي تضمنت المطالب أي جواب ، مما أتاح له منذئذ أن يناصب قادة الاسلام العداء . لما انطلقت قافلة الحج في ذي القعدة من ذلك العام ، تواكبها حماية مشددة من بغداد ، تصدّى لها القرامطة في العقبة ، قبل أن تصل الى سهل الهبير ، فأقفلت راجعة ، وقد طارت قلوب أهلها جزعا (٤٢) . فالتفت أبو طاهر عندئذ الى الكوفة فسباها وأبلى فيها ما أبلاه في البصرة . وقد تحمل أهلها الفظائع التي ترافق فتح المدن ، والانكى من ذلك انهم أجبروا على مشاهدة تدنيس القرمطي للمسجد الجامع اذ أقام فيه هو وطلائعه (٤٣) .

ان نبأ المصيبة التي حلت في مطلع السنة [٣١٣] أقضّت مضجع الناس في بغداد وسببت انفجار السخط الشعبي على الوزير ابن الفرات الذي لقّب « بالقرمطي الكبير » اهانة له وشتيمة ، وعلى ابنه المحسّن الذي لقب « بالقرمطي الصغير » (٤٤) . فاستدعي مؤنس القائد الى بغداد وأمر بالسير

---

(٤١) عباسيين ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١١٤ . ابن تفري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢١٢ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٨٩ . الهمذاني ، تكملة ، ص ٤٦ .

(٤٢) ابن الاثير وابن تفري بردي ، الموضع نفسه . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٩٦ ، يروي ان اللقاء كان في زبالة . عريب القرطبي ، صلة ، ص ١٢٣ .

(٤٣) ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ١١٥ . النويري ، نهاية الارب ، مخطوطة ليدن رقم 2 h ص ٢٨٨ .

(٤٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٨٩ . ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٥ ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٦ .

برجاله الى الكوفة ، فلم يصلها الا بعد انسحاب القرامطة منها . ان حملة مؤنس وتجهيز قواته الـــذي كلّف ما يقارب المليون دينار (٤٥) ذهبا سدى . عندئذ جاءه الامر بالمرابطة في واسط ليحمي البصرة والكوفة وبغداد . في هذه السنة لم تصل الـى مكة سوى قوافل الشام ومصر . وفي العام ٣١٣ ترك أبو طاهر قافلة العراق تمرّ لقاء فدية باهظة فرضها ، بعدما هزم الحامية المواكبة (٤٦) . وفي السنوات الثلاث التالية لم تجرؤ ، فيما ذكر العتيقي (٤٧) ، أية قافلة عراقية على الذهاب الى الحج . ويروي ابن الجوزي (٤٨) انه لما وصل حجاج خراسان الى بغداد في شهر شوال من العام ٣١٤ ، أبلغهم مؤنس (٤٩) الذي كان قد استدعي الى العاصمة في العام ٣١٣ ، أن لا قبل للخليفة بتأمين الحمايـة لهم حتى مكة بسبب القرامطة ، فما كـــان منهم الا أن عادوا أدراجهم . وفي الساعة نفسها طار الخبر الى مكة بأن أبا طاهر مقبل اليها ، فبدأ أهلها بالنزوح عنها (٥٠) .

لم يكن الوزير الذي حلّ محل ابن الفرات رجـلا حازما . فلم يتجاوز ما فعله ضد القرامطة سوى البحث عن انصارهم في بغداد ، والقبض على بعضهم ، وهدم المسجد الذي كانوا يختلفون اليه . الا ان الداعي القرمطي المعروف بالكعكي ، تمكن من الفرار . ويقول ابن الجوزي (٥١) الذي يورد هـــذه الاخبار ، ان أولئك الاشخاص كانوا يتميزون بخاتم من الطين الابيض نقش عليـه : « محمد بن اسماعيل ، الامام المهدي ولي الله » .

---

(٤٥) [عريب القرطبي ، صلة ، ص ١٢٤ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٨٩] .
(٤٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١١٧ .
(٤٧) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .
(٤٨) المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٠٢ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .
(٤٩) عريب القرطبي ، صلة ، ص ١٢٤ .
(٥٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٢ . ابن الجـوزي ، المنتظـم ، ج ٦ ، ص ٢٠١ . [ابن تغري بردي ، ج ٣ ، ص ٢١٥] .
(٥١) المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

ولكن سرعان ما أقيل هذا الوزير واستعيض عنه بالخصيبي. اقترح الوزير الجديد على الخليفة استدعاء رجل شديد البأس هو يوسف بن أبي الساج، أمير أذربيجان والجبال (٥٢)، لمحاربة القرامطة بكل قوته ومهاجمة الاسد في عرينه. وافق يوسف على المجيء ولكن شعوره بأنه ضروري ولا غنى عنه جعله متطلبا، ولم يتحرك بجيشه المؤلف من ٢٠٠٠٠ جندي نظامي الا في بداية العام ٣١٥. وبينما كان يجمع جيشه، أعيد علي بن عيسى الى الوزارة. كان أول عمل بادر اليه الوزير هو شجب التدابير التي اتخذها سلفه قائلا: « لأي شيء استحضرت يوسف بن أبي الساج الى واسط وسلمت اليه أعمال المشرق بأسرها سوى أصبهان؟ وكيف وقع لك انه يجوز أن يخرج هو مع قوم اعتادوا الجبل والمقام فيه في طريق البر يقصدون طريق السواحل في بلدان حوالي هجر؟.. لِمَ لم تقتصر على أن يعرض رجاله وغلمانه ويجري مال عسكره مجرى مال عسكر مؤنس المظفر، فانه يسبب له مال ويطلق على أيدي منفقين من قبل السلطان؟ ». فرد الخصيبي ان يوسف، في اعتقاده، كان الرجل الوحيد القادر على اخضاع القرامطة، وانه رفض أن يلحق به محاسبا (٥٣). فخاطب علي الخليفة وبيّن (٥٤) له انه لو كلف خمسة آلاف فارس من بني أسد بحماية طريق الحج وخمسة آلاف رجل من بني شيبان بمناوشة القرامطة القتال، لما دفع أكثر من مليون دينار بدلا من ثلاثة ملايين سيدفعها الى يوسف، فضلا عن ان فرص النجاح ستكون أوفر. ويبدو ان الخليفة اقتنع وسمح لوزيره أن يكتب ليوسف بالبقاء في الجبال (٥٥). الا ان يوسف كان قد بدأ بالمسير، فلم يكترث لرسالة الوزير،

---

(٥٢) [هي ما كان يسميه اليونان ميديا . قارن المسالك والممالك للاصطخري، تحقيق الدكتور محمد العيني، القاهرة، ١٩٦١، ص ١١٥] .

(٥٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٨، ص ١٢٠ . ابن مسكويه، ج ٥، ص ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(٥٤) عريب القرطبي، صلة، ص ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٣٢ .

واتجه نحو بغداد مارا بحلوان . وما زال في طريقه حتى استلم من مؤنس أمرا بعدم الدخول الى العاصمة ، بل بالتوجه رأسا الى واسط حيث يجد مبلغا ضخما من المال قدّر بحوالي سبعين الف دينار بشهادة ابن الجوزي (٥٦) . ويذكر ابن الاثير (٥٧) أن يوسف وصل الى واسط في العام ٣١٤ ، وانه التقى مؤنسا فيها ، ولكن هذا غير صحيح . فمؤنس كان قد استدعي الى بغداد في العام ٣١٣ (٥٨) ، ومن ناحية ثانية فان علي بن عيسى ، الذي استلم زمام الحكم قبل دخول يوسف العراق ، وصل الى بغداد (٥٩) في الخامس من صفر سنة ٣١٥ قادما من الشام ، وعيّن أحمد بن عبد الرحمن بن جعفر واليا على الكوفة لتسيير الامور حتى وصول يوسف (٦٠) .

لما وصل يوسف الى واسط ، في ربيع الاول من العام ٣١٥ على الارجح ، بقي فيها ما يقارب نصف سنة لا يحرّك ساكنا . وقد نجد لبطالته تفسيرا اذا علمنا انه لاقى صعوبات في الحصول على المال اللازم لرجاله ، اذ لم يكن من الميسور في ذلك الزمن أن تجمع الملايين ، حتى ولو أخذت من ضرائب ولايات عدة (٦١) . والارجح ان علة سكون يوسف تجد تفسيرا أوضح في الاتهام

---

(٥٦) المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٠٨ .

(٥٧) الكامل ، ج ٨ ، ص ١١٨ . وايل ، عباسيين ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ . وايضا Defrémery , C. Mém. sur les Sadjides , P 68 .

كما ان مسكويه يقول : « فلما قرب ابن ابي الساج من واسط وكان فيها مؤنس المظفر ، رحل مؤنس الى بغداد » [تجارب الامم ، ج ٥ ، ص ١٤٨] .

(٥٨) يروي عريب هذه الوقائع بتفاصيلها في الصلة ، ص ١٢٤ .

(٥٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ .

(٦٠) عريب ، صلة ، ص ١٣١ .

(٦١) Defrémery , C. , Emirs el Omara , in Mémoires présentés par divers Savants à l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, Paris, 1852 , PP 4 et sq. 9 ; Dozy , R. , Notice sur le même Mémoire, PP 4 - 5 ; Defrémery, Mém. Sur la famille des Sadjids Loc cit .

الذي وجهه الى ابن ابي الساج كاتم أسراره ، ابن خلف . فقد كتب ابن خلف (٦٢) الى نصر الحاجب ان سيده كان يكتم « عنه مذهبه في الدين ، وانه لما سار الى واسط ، أنس به ، وانبسط اليه ، فكشف له انه يتدين بأن لا طاعة عليه للمقتدر ، ولا لبني العباس على الناس طاعة . وان الامام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان ، وان أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الامام . وانه قد صح عنده انه يتدين بدين القرامطة . وانه انما صيّر العلوي متحققا به وبجميع أسراره بهذا السبب . وانه ليس له نية في الخروج الى هجر . وانه انما احتال بالوعد بالخروج الى هجر حتى يتم له أخذ الاموال . وانه قال له في شهر ربيع الآخر : اي شيء بقي لنا على الخليفة ووزيره من الحجة ؟ ولم ليس تخرج الى هجر ولا أراك تستعد لذلك ؟ فقال في الجواب : لم لا يكون لك معرفة بالامور ؟ من في نيته الخروج الى هجر ؟ وانه قال له : فلم غررت السلطان من نفسك ، ووعدته بهذه الحال حتى سلم اليك جميع أعمال المشرق ؟ فأجابه بأنه يرى انتقاص المقتدر وسائر ولد العباس الغاصبين أهل الحق فرضا لله عزّ وجل عليه وان طاعته طاغية الروم أصلح من طاعته الخليفة . وانه قال : فهبك فعلت ذلك ما الذي يؤمنك من القرمطي أن يوافي الى واسط والى الكوفة ، فلا تجد بدا من لقائه ومحاربته ؟ فقال في الجواب : ويحك كيف أحارب رجلا هو صاحب الامام وعدة من عدده ؟ فقال له : فان أراد هو حربك أي شيء تعمل ؟ فقال له : ليس لهذا أصل ، وقد ورد عليه كتاب الامام من القيروان بأن لا يطأ بلدا أكون فيه ، ولا يحاربني بوجه ولا سبب . وانه ختم القول بأن قال : اني انما أنتظر أن يقبض رجالي بأسرهم أموال سنة ٣١٤ ، فاذا قووا بذلك ، منعت أولا من أعمال واسط والكوفة وسقي الفرات ، وأنفذت اليها العمال ، فلا بد للسلطان أن ينكر حينئذ ما أفعله ، فأكاشفه ، وأخطب للامام ، وأظهر الدعوة ، وأسير الى بغداد ، فان من بها من الجند قوم يجرون

(٦٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٥ ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ .

مجرى النساء ، قد ألفوا الدور عـــلى دجلة والشراب والثلج والخيش والمغنيات ، فآخذ نعمهم وأموالهم ولا أدع الهجري يفوز بالاسم ، وأكون أنا سابق الـــدولة الى الامام . فان أبا مسلم | الخراساني قائد الانقلاب العباسي | خرّاز النعـــال لم يكن له أصل ، وقد بلغ ما بلغ ، ولم يكن معه لما ارتفع النصف ممن معي. وما هو الا أن أظهر الدعـــوة حتى قد اجتمـع مئـة الف ضارب سيف » . ما الصحيح في هذه الاتهامات ؟ هذا ما لا سبيل الى معرفته معرفة يقينية . ولكن ثمة أسباب عديدة تمنعنا من اعتبار كلام ابن خلف مجرد افتراءات . فولاء يوسف كـــان دائما أمرا مشبـــوها ، وهو لم ينس حتما بعد التشهير به كالاشقياء في شوارع بغداد ، اثر فشل حركـــة العصيان التي تزعمهـا في العام ٣٠٧ (٦٣) . واما انه يفضل طاعة طاغيـة القسطنطينية ، شرط حصوله على السلطة ، على طاعة الخليفة ، فأمر مبالغ فيه على الارجح . ولكن مثَل محمـد ابن أبي الساج قد بيّن ، منذ أيام المعتضد ، ان طاعة الخلفاء ليست من شيم الساجيين (٦٤) .

لا بد لمشروع كالذي تكلم عنه ابن خلف في رسالته ، من أن يروق ليوسف . ان تفاعسه ومكوثه في واسط لا يمكن فهمهمـا اذا افترض انه ينوي حقا تنفيذ المهمة المـــوكلة اليه . وقد بلغ خموله كل مبلغ ، حتى انه تلقى من بغداد نبأ ورد اليها من والي البصرة مفاده ان أبا طاهر مرّ بالقرب مـــن البصرة بجيش كبير واتجه نحو الكوفة . في هذه الظروف ، استحال عليه ألا ينشط وقد أصبح في مواجهـــــة أبي طاهر ، ومعه من معه من عسكر الخليفة ، فما كان منـــــه الا أن حاول تفريق شمــــل جماعات القرامطة . وقد ظن ان ذلك لن يكلفه أي جهد ؛ وقيل انـــه أمر بكتابة رسائل تعلن انتصاره على القرامطة سلفا . من الجائز أن يكون قد بدأ آنئذ ، بالتفاوض مع الخليفة الفاطمي ، الا ان مـــا

(٦٣) عريب ، صلة ، ص ٧٧ .

Defrémery, Mém. Sur les Sadjides, P 61 et sq.

(٦٤) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٢١٩٥ . دي فريمري ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

تعرفه عن طبعه وشخصيته يخوّلنا أن نستبعد ولاءه له . ومن ناحية ثانية ، فان الفاطمي لم يجـــازف الا ببعض التأكيدات والوعود الغامضة المبهمة (٦٥) . ومن المعقول جدا أن يكون القصد من اعطاء أبي طاهر الامر بغزو الكوفة هو وضع ولاء ابن أبي‌الساج على المحك ، اذ لو كان يخلص العهد للفاطميين ، لاغتنم الفرصة للانضمام الى القرامطة . ولكن عنفوانه منعه مـــن ذلك واضطره لمواجهتهم . لذلك يبدو ان الشكـوك ساورت أبا طاهر حول ولاء الساجي ، فلما أسر أحاطه الجنابي بكل عناية ، وعامله معـاملة مشرفة . ولكن عندما تمت محاولة للافراج عنـه ، ظن القرمطي ان أسيره هو الذي دبّر ذلك فأمر بقتله . ولكن يجدر بنـــا ألا نستبق الامور .

صرف أبو طاهر همّه ، سنة ٣١٤ وجزءا مـــن لاحقتها ، الى جعل الاحساء قلعة منيعة ، وسماها المؤمنية (٦٦) . يقـول ابن خلدون (٦٧) ان ذلك قد حـــدث اثر خلاف وقع بين سكان البحرين ، أي هجر ، والمجلس العقداني . لا نعلم شيئا عن سبب الخلاف ، ولكن الارجح ان بناء هذه القلعة تم تحسبا لغزو ممكن من ناحية العراق ، توقعه أبو طاهر لاطلاعه الدقيق على مجريات الامور هناك . وفي السابع من شوال سنة ٣١٥ ، فاجأ الكوفـة واستولى على خزانة الولاية وعلى المؤن المعدة اما للحجاج (٦٨) ، واما لجيش ابن أبي الساج (٦٩) . لم يبدأ هذا بالتحرك الا بعد أن وصله الامر من بغداد بالسير الى لقاء القرامطة ، فلم يصـل الكوفة الا في الثامن من شوال . وغداة ذلك اليوم ، أي السبت

---

(٦٥) تقريبا كما عومل الحمدانيون من بعد . أنظر المقريـــزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .

(٦٦) أنظر اعلاه ص ٤٨ .

(٦٧) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

(٦٨) حمزة الاصفهاني ، تاريخ ملوك الارض ، ص ١٥٤ .

(٦٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٤ . ابن الجـوزي ، المنتظـم ، ج ٦ ، ص ٢٠٨ . الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٢ .

في التاسع من شوال (٧٠) وقعت المعركـــة التي تم فيها أسر ابن ابي الساج وكسر فيها جيشه . وأما عـن تفاصيل المعركـة فأحيل القارىء الى رواية دي فريمري (٧١) لها ، ولـن أضيف اليها سوى تفصيل هام : يروي المؤرخون ان أبا طاهر لم يشترك في القتال في بادىء الامر ، بل مكث ملازما قبتـه تحت حراسة ٢٠٠ من نخبـــة الفرسان (٧٢) حتى اذا اشتـــد القتال وجرح عدد (٧٣) من القرامطة بالنبال (٧٤) ، ترك القبة ، وامتطى جواده وحمل بنفسه عـــلى رأس المئتي فارس . وهاكم ما يضيفـه ابن الجوزي (٧٥) : « وكان من مخاريقهم قبة ينفرد بها أميرهم وطائفة منهم لم يقاتلوا ، فاذا كلَّ المقاتلون ، حمل هو بنفســه وتلك الطائفة على قوم كلّوا من القتال . وكانوا يقولون : النصر ينزل من هذه القبة . وقد جعلوا مدخنة وفحما ، فاذا أرادوا ان يحملوا صعد أحدهم الى القبـــة وقدح ، وجعل النار في المجمرة ، وأخرج حب الكحل فطرحه على النار فيفرقع فرقعـة شديدة ، ولا يكون له دخان ، وحملوا فلا يثبت لهم شيء . ولا يوقدون ذلك الا أن يقـــول صاحب العسكر : نزل النصر » . سأعود الى هذا الموضوع ، وسأكتفي هنا بالقول ان القرامطـــة كانوا مندفعين بحماس المدافع عن قضيـــة مقدسة ، فيقاتلون بشجاعة وثبات المسلمين عند لقائهم الفرس والروم ، أو الخوارج عند محاربتهم سرايا الامويين . لذلك كـــانوا يشتتون أعداءهم ولو فاقوهم بعشرة أضعاف . وقد قيل لبعض القرامطة (٧٦) :

---

(٧٠) لقد غير وايل (عباسيين ، ج ٢ ، ص ٦٠٨) التاسع الـــى العاشر لان الجداول تدل على ان الثامن من شوال يقع يوم الخميس . ولكن جميع المصادر تشير الى يوم السبت ، التاسع من شوال ، وتتحدث عـــن الجمعة ٨ والاحد ١٠ . يوجد اذن في جميع التواريخ فرق يوم واحد .

(٧١) Mém. Sur la famille des Sadjides , PP 69 - 71 .

(٧٢) الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٣ .

(٧٣) ٥٠٠ برواية ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٧٤) ويروي ابن الجوزي أيضا ان هذه النبال كانت مسمومة .

(٧٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

« كيف تغلبون مع قلّتكم ؟ فقالـوا : نحـــن نقدّر السلامة في الثبوت وهؤلاء يقدّرونها في الهرب » .

لما وصل نبأ الهزيمة الى بغداد ، امتلأت المدينة هلعا ورعبا . بدأ الخليفـــة والاهلون يتفكرون في أمر سلامتهم ، وتوجهت القوات المتوفرة للقاء العدو الذي تمكن من السيطرة على الانبار ، وعبور الفرات للسير على بغداد . اضطر العباسيون الى هـدم جسر يعرف « بالجسر الجديد » (٧٧) على قنـــاة الزبارة (٧٨) أو قناة عقرقوف (٧٩) ، وبهذه الحيلة الدفاعية تمكنوا من وقف زحف العدو في الوقت المناسب . هـذا ، على الاقل ، ما نجده عند المؤرخين . ولئن قبلنـــا الارقام التي يعطـونها عن جيش أبي طاهر ــ سبعمئة فارس ، على قول أكثر المؤرخين ، وثمانمئة راجل (٨٠) ــ تأكد لدينا ان التقدم الى أبعد مـن ذلك كان ضربا من الجنون . ومن الثابت عندي ، وهذا ما لا يقـوله المؤرخون ، ان جيش الخليفة كان يضم أعوانا للقرامطة كثيرين . لا ريب ان القرامطة كانوا مقـــاتلين جسورين باسلين ، وان اسمهم كان ينشر الرعب في الآفاق . ولا يسعنا أن ننكر كونهم انتصروا مرارا على أعداء متفوقين عددا ، حتى اعتقـد أتقياء المسلمين ان ذلك « خذلان من الله لامر يريده » (٨١) . ولكن كل هذا لا يتيح لنـا تفسير لجوء قادة الخليفة وجنودهم الاربعين ألفا ، الـى هـدم

---

(٧٧) عريب القرطبي ، صلة ، ص ١٣٢ .

(٧٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٥ . الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٤ . أما حمزة الاصفهاني فيسميها « الورّادة » ، تاريخ ملـوك الارض ، ص ١٥٥ .

(٧٩) كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ . وقد سميت كذلك لانهـا تمر بالقرب من عقرقوف . ولعلها احـدى القنوات التي تصل نهر عيسـى بالدجيل على بعد فرسخين أو أربعة فراسخ من بغداد . قارن ياقوت ، معجـم البلدان ، تحت عقرقوف وتل عقرقوف .

(٨٠) الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٤ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٧ . وأيضـا Defrémery . Loc. cit, P 75 .

(٨١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٧٥ . [ج ٣ ، ص ٢١٧]

الجسر الذي يفصلهم عن أبي طاهر لدرء خطر قبضة من القرامطة. لا أظن ان مؤنسا ، ولا نصرا الحاجب ولا الحمدانيين قد بلغوا من الجبن حدا ألجأهم الى هذه الحيلة طوعا . فاذا علمنا ان ابن حمدان قد أجبر - بكل معنى الكلمة - مؤنسا ونصرا على ذلك (٨٢) ، وقربنا هذه المعطيات من افراج القرامطة السريع عن ابن حمدان قبل حوالي ثلاث سنوات ، وأضفنا الى ذلك العلاقات الودية القائمة بين الحمدانيين والقرامطة والتي سأتحدث عنها من بعد ، وجدنا من شبه المستحيل ألاّ يكون كل ذلك لعبة لعبها كل من القرمطي والحمداني . وفضلا عن هذا ، فمن الثابت انه كان لابي طاهر أنصار في جيش الخليفة نفسه (٨٣) .

على أية حال ، فقد بلغ أبو طاهر مأربه ، غنم الغنائم الوفيرة ونشر الرعب . كان الناس في بغداد يتوقعون دخول الخليفة الى هجر منتصرا ، ولكنهم بدلا عن ذلك رأوا عاصمتهم يهددها القرامطة ، مما أوحى لأبي طاهر بالابيات التالية (٨٤) :

قولوا لمؤنسكم بالراح كن آنسا
واستتبع الراح سرنايا ومزمارا

وقد تمثلت عن شوق تقاذف بي
بيتا من الشعر للماضين قد سارا

نزوركم لا نؤاخذكم بجفوتكم
ان الكريم اذا لم يستزر زارا

ولا نكون كأنتم في تخلفكم
من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

---

(٨٢) الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٥ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٠٩ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢١٧ . وايل ، عباسيين ، ج ٢ ، ص ٦٠٩ .

(٨٣) الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٧ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ص ٢٠٩ - ٢١٠ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٧ .

(٨٤) الهمذاني ، تكملة ، ص ٥٥ .

انسحب أبو طاهر الى ما وراء الفرات من دون أن يقلقه أحد ، وتابع غزواته على ضفاف النهر خلال تلك السنة والتي تلتها ، ينهب أو يفرض الفدية على بعض المدن ، أو الجزية على القبائل العربية القاطنة في بلاد ما بين النهرين ، علامة على طاعتها له . ولكن ، بعد محاولة فاشلة لاحتلال الرقة ، وخشية أن تفاجئه قوات الخليفة ، انكفأ الى البحرين بما غنم من كثير الغنائم . كان من شأن خطوات أبي طاهر الجسورة ، وتخاذل حكومة بغداد وجبنها ، أن يلهبا قلوب قرامطة العراق حماسة ، ولكنهم لم يبلغوا مرحلة التنظيم الكافي للظهور الا بعد انسحاب الجنابي (٨٥) . وقد سماهم عريب القرطبي بالنفلية (٨٦) ، أما دي ساسي فيسميهم النقلية (٨٧) ، ولكن لا شيء يدل على انهم يختلفون عن سائر القرامطة . وتجدر الاشارة الى ان أحد قادتهم كان ابن أخت عبدان (٨٨) ، مما يدل على ان انشقاق عبدان كان شأنا شخصيا . اعترف هؤلاء القرامطة علنا بأنهم يدينون بالولاء لعبيد الله المهدي ، ولم يصعب على قوات الخليفة أن تقمع انتفاضة الفلاحين هذه .

في تلك الاثناء كان أبو طاهر يعدّ العدة لتنفيذ مخطط ، أو بالاحرى أمر جاءه من عبيد الله (٨٩) ، سيكون من شأنه أن يهزّ رواسي دعائم الاسلام هزا ، وأن يتكلم عنه المؤمنون بارتياع جيلا بعد جيل . وما ذلك سوى انتزاع الحجر الاسود من الكعبة ونقله الى الاحساء .

كان الحجر الاسود ، وهو نيزك عند بعضهم ، أو من أصل

---

(٨٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٣٦ وما بعدها . ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ .

(٨٦) صلة ، ص ١٣٧ .

(٨٧) دروز ، مقدمة ، ص ٢١٠ .

(٨٨) عريب ، صلة ، ص ١٣٧ .

(٨٩) Defrémery, Mém. d'Histoire Orientale , I , PP 17 - 22 .

بركاني عند آخرين (٩٠) ، يشكل محـــور العبادات عند العرب منذ اقدم العصور . انه بقية مـــن مرحلة الفتشية أو البدّيـة (Fétichisme) ويمتـاز عـن غيره مـن الاوثان بأصـله وبمظهره الخارجي . ويروي لنا بوركهارت (٩١) انه يعتبر الحجر الاسود كتلة من الحمم البركانية ، موشاة أطرافها بعدد كبير من أجزاء خارجية من مادة بيضاء أو ضاربة الـى الصفرة ، أما لون المركز فأغبر احمر قاتم مائل الى السواد . وأما بورتون فيقول ان سطح الحجر اشبه بقشرة سوداء غليظـــة قاسية ، متأكلة ، ناعمـة الملمس ، لها لمعان المعدن ومظهر القار . وتروي الاخبار المتناقـلة ان الحجر كان أبيض في الاصل ، كما ان محمد بن نافع الخزاعي ، الذي حضر اعادته في العام ٣٣٩ وتمكن مـن فحصه عن كثب ، يقول ان « السواد في رأسه دون سائره وسائره أبيض » (٩٢) . ان الاسطورة الشعبية عن تغير لون الحجر مـــن ملمس الكفّار مشهورة ، والثابت ان كل ما قبله الحجر مـن القبلات لم يبيّض لونه . ولكن المأثورات العربية القـديمة ، وخصوصا تلك التي نجدها عند الازرقي (٩٣) ، تعطينا تفسيرا مختلفـا تماما . ولما كان الرحّالان الاوروبيان يجهلان هذا التفسير ، لم يتسنّ لهما أن يتحققا من صحته . ومفاد هـذا التفسير ان اللون الاسود ناتج عن عدة حرائق تعرض لها المسجد ، وبخاصـة حريق العام ٦٤ الذي حدث أيام عبد الله بن الزبير والذي خلّف في النصب المقدس آثارا سيئة ، سأصفها فيما بعد .

---

(٩٠) Burton, Richard F. , Personal Narrative of a Pilgrimage to el - Medinah and Meccah, London, 1856 , III , PP 158 , 210 ; Dozy , R. , Essai sur l'histoire de l'Islamisme , trad. de Victor Chauvin, Leide et Paris, 1879 , P 8 et sq .

(٩١) [Burckhardt, J. L. , Travels in Arabia , London , 1829 , P 137 .]

(٩٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ . أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .

(٩٣) أخبار مكة ، ج ١ ، ص ص ٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

كانت الشعائر المتعلقة بهذا الحجر من عمق التجذر في نفوس مواطني محمد من العرب بحيث وجد نفسه مضطرا لتركه ولاضفاء الصفة الدينية عليه . وتروي الاسطورة ان محمدا هو الذي وضع الحجر بيده حين رمم المعبد ، وذلك قبل البعثة . ولكن حتى لو قبلنا بكون هذه القصة موضوعة ، كما يذهب شبرنفر (٩٤) ، فلا شك انها قديمة العهد ، وتشهد الى أي مدى عميق تغلغلت شعائر الحجر في الاسلام . لنقرأ عند الازرقي (٩٥) ما كان يعتقده تقاة المسلمين فيه : « الركن يمين الله في الارض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه ... فمن لم يدرك بيعة رسول الله (صلعم) فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله ... [وسيبعث] يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بالحق » . وقد نسب اليه ، في البدء ، فضائل شافية ، ولكن يعتقد انه فقدها بعدما لمسته أيدي الكافرين النجسة . في هذا أوغل بعض المسلمين الى أبعد مما فعله عقلاء الجاهلية ، الذين عرفوا تماما ان الوثن في ذاته لا ينفع ولا يضر (٩٦) . ان كلمات عمر عند أدائه فريضة الحج لحرية بالاعتبار في هذا المجال (٩٧) : « والله اني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا اني رأيت رسول الله (صلعم) يقبّلك ما قبّلتك » .

---

(٩٤) Das Leben und die Lehre Muhammeds , I , 135 et sq. وهو محق حتما اذا كانت روايته هي الرواية الاصلية . قارن الازرقي في أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٨ وما بعدها ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٤٤ .

(٩٥) أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٢٧ – ٢٤٥ .

(٩٦) Sprenger , Loc. cit. , P 253 .

(٩٧) الازرقي ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ . ان عادة تقبيل الحجر ، وان كانت معروفة قبل الاسلام ، الا انها حديثة العهد نسبيا . قارن البلاذري ، أنساب الاشراف ، طبعة آلواردت ، غريفزوالد ، ١٨٨٣ ، ص ٢٣٠ . [عن حج العرب في الجاهلية قارن التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، ص ١٣٠] .

لم يكن من الممكن أن توجه الى الاسلام ضربة أوجع من اختطاف الحجر . ولقد زعم العديد من المؤلفين الاسلاميين (٩٨) ، ان هدف القرامطة كان استبدال الاحساء بمكة ، وجعلها مقصد الحجاج ، لان الحجر كان يجذب الناس من سائر أطراف المعمورة. ولكن هذا غلط ، فمن المؤكد ان بغية عبيد الله وأبي طاهر كانت انتهاك حرمة مكة والقضاء على الهالة التي كانت تحيط بالاماكن المقدسة باختطاف موضوع الاكرام والتقديس والاجهاز على الديانة كلها . ومن ناحية ثانية ، فقد ثبت ان تكريم الحجر الاسود ينزل منزلة تكريم الاوثان في نظر القرامطة (٩٩) ، ولم يكن القرامطة في وارد المحافظة على هكذا شعائر . ويضيف المؤرخون أنفسهم ان أبا طاهر قد ابتنى في الاحساء ، سنة ٣١٦ ، « دار هجرة » ليحلها محل الكعبة . ان هذه الاضافة تظهر لنا أصل الخطأ ، فالقرامطة كانوا يطلقون عبارة « دار الهجرة » على مسكن الداعي : كأن نقول دار الحكومة اليوم . وقد أقام حمدان قرمط بناء مماثلا في سواد الكوفة ، وابن حوشب واحدا في اليمن (١٠٠) ، وأبو عبد الله مثله في أيكجان (١٠١) ، وأبو سعيد مثله في الاحساء (١٠٢) . حتى ان قرامطة العراق بنوا دارا للهجرة في الموفقية بجوار البصرة (١٠٣) في العام ٣١٦ . ومن الواضح ان نسبة تأسيس الاخيرة الى أبي طاهر خطأ وقع فيه المؤرخون . لما كان الناس يجهلون وجهة ذلك البناء ، ولا يصدقون

(٩٨) قطب الدين النهروالي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ص ١٦٢ ، ١٦٥ . ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٤ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢١٤ .

(٩٩) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٣٩٣ .

(١٠٠) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٤٩ .

(١٠١) De Slane , W. M. , Histoire des Berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, Alger, 1852 , II , 514 .

(١٠٢) ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٣ .

(١٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٣٦ . ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ .

ان الحجر سيهمل في الاحساء ، كشيء لا قيمة له ، تصوروا ان البنـــاء هو مّسجد ، عــلى غرار الكعبة ، أعدّ لاستقبال الحجر المقـدس .

ان نهب مكة ، وهتك حرمتهـا ، واختطاف الحجر الاسود لأحداث من الخطورة بحيث لا يجوز أن نمرّ بها مرور الكرام .

فيمستهلالشهر الاخير منالعام ٣١٧ (كانونثان ٩٣٠) (١٠٤) وصلت القافلة السنوية الكبيرة سليمـــة الى المدينة المقدسة ، يقودها منصور الديلمي . وما ان بدأت شعائر الحج ، يومالترويه، في الثامن من ذي الحجة ، أو في اليوم السابق على قول حمزة الاصفهاني (١٠٥) والبكـــري (١٠٦) ، حتى انتشر خبر قـدوم أبي طاهر على رأس ستمئة فـــارس وتسعمئة راجـل (١٠٧) قرمطـي .

خرج ابن محلب (١٠٨) ، أمير مكة ، على رأس عـدد من الاعيان لمواجهة القرمطي محاولا استرضاءه بالمال ، الا ان أبا طاهر

---

(١٠٤) عريب هو الوحيد الذي ينسب هذه الاحداث الى العام ٣١٦ ، بينمـا يجعلها البيروني في العام ٣١٨ ، الآثار الباقية ، ص ٢١٢ .

(١٠٥) تاريخ ملوك الارض ، ص ١٥٦ .

(١٠٦) البكري ، الممالك والمسالك ، مخطوط باريس رقم ٥٩٠٥ ، ص ٣٥٦ . وفي أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، غيرتلفظة ((لسبع)) الى ((لتسع)) خطأ ، فاقتضى التصحيح .

(١٠٧) كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

(١٠٨) ان تلفظ هذا الاسم وقراءته غير أكيدين ، فالـذهبي وابن تغري بردي والنهروالي يسمونه ابن محارب ، أما ابن الاثير فيسميـه ابن محلب بحسب نص تورنبرغ وأبي الفداء ، ومخلب كما يذكره الفاسي (أخبـار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ . ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٣ ، ص ٣٧٩) . أما كتاب العيون فيذكر محمد بن اسماعيل المعروف بابن مجلب . ولكن لما كان هذا الشخص لا يزال على قيد الحياة في العام ٣٢١ (المسبحي في أخبار مكة) فلا يمكننا قبول زعم المؤرخين اما تصريحا (الذهبـي ، وابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، والنهروالي في أخبار مكة، ج ٣ ، ص ١٦٣ ، وابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ، ص ١٤٨) ، وامـا تلميحا (((فقتلهم أجمعين)) ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٥٣) ان الامير قتل أثناء سبي مكة .

رفض كل شيء . وبعد قتال صرع فيه معظم المدافعين ، دخل الجنابي المدينة واتجه رأسا الى المسجد . مأساة رهيبة لا توصف تلت دخوله المسجد . تشبث الفقهاء الاتقياء والشيوخ الاجلاء بغطاء الكعبة الشريفة مصلّين باكين ، وتراكضت النسوة جزعا هنا وهناك ، وفي وسط الخضمّ البشري كنت ترى جنود أبي طاهر الشرسين يقتلون ويدوسون كل شيء ، ويصيحون بضحاياهم بسخرية وحشية : « يا حمير ! أليس قلتم في هذا البيت من دخله كان آمنا ؟ أين حرمته وأمنه الآن ؟ » (١٠٩) .

يروي ابن الجزّار (١١٠) ، عن رجل ثقة ما يلي : « حدثني من أثق به ، قال : دخل بعض أصحاب القرمطي المسجد الحرام وهو راكب يمشي بدابته على بعض جسمي ، وأنا مجروح ملقى بين القتلى حول البيت ، فتحركت وخفت على نفسي ، فقال : تقرأ سورة الفيل ؟ قلت : نعم . قال : فأين تلك الطير الابابيل ؟ قال : فقلت له حيث شاء الله تعالى . قال : فقال يا حمار ! تعبدون الحجارة وتطوفون بها وتلثمون أركانها وترقصون حولها، ما بال رؤوسكم اذ سنّوا لها سننا من الاباطيل لم يزلها منها الا طنين السيوف ؟ قال : فعلمت انهم زنادقة ، وبقايا أهل الردّة » .

استرسل القرامطة لبربريتهم في المدينة المنكوبة لعدة أيام : ثمانية (١١١) أو ستة (١١٢) أو أحد عشر (١١٣) حسب المؤرخين .

---

(١٠٩) أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٠٣ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٢٣ . ويقول الرجل الذي يروي الحادثة انه أجاب : « ان الله عز وجل لم يرد ان من دخله كان آمنا ، انما أراد من دخله فأمنوه » .

(١١٠) كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(١١١) كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ . وهذا صحيح لانه رحل عنها في ١٥ ذي الحجة وكان لا يزال فيها في ١٤ ، فالبكري (في الموضع المذكور) يروي ، مستندا الى شاهد عيان ، أن الحجر الاسود اقتلع في ١٤ ذي الحجة وان ذلك تم على يد جعفر بن علاج بأمر من رئيس القرامطة . قارن أيضا أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٤ . البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢٠ . والستة أيام عند الفاسي تأتي من خطأ في قراءة ٩ بدلا من ٧ في نص البكري المذكور آنفا .

(١١٢) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

أعمل النهب في كل شيء ، وعوقبت أدنـــى مقاومة بالسيف ، وأسر عدد كبير من الرجال والنســـاء تم توزيعهم بين الغزاة ، وكانت ثالثة الاثافي اقتـــلاع الحجر الاسود وغيره من الاشياء النفيسة من المسجد . وحده الحجر المسمى « مقام ابراهيم » ، وهو نصب آخر من عصور الوثنية يبدو عليه ، على ذمة الاسطورة ، اثر قدم ابراهيم (١١٤) ، نجا من بحث الباحثين ، ووضع في مكان أمين . ولكن سرقت اللؤلؤة اليتيمة التي تزن ، فيما ذكر المكيون ، أربعة عشر مثقالا ، وحلق مريم ، وعصا موسى وقرن كبش ابراهيم الموشيين بالذهب والمرصعين بالحجـارة الكريمة ، وعددا لا يحصى من المتـاع النفيس الذي لم يرد أبدا (١١٥) . ويروى ان ١٩٠٠ (١١٦) أو ، عند آخرين ، ١٧٠٠ (١١٧) شخص قتلوا في المسجد وحده ، وان مجموع القتلى بلـــغ ثلاثين ألف رجل (١١٨) ، وطار الخبر الى بغداد بأن سبعين ألف مسلم قتلوا في الحرم ، عـــلى ما يرويه العمراني (١١٩) . لا شك في انه

---

(١١٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٤ . حمزة الاصفهاني ، تاريخ مـــلوك الارض ، ص ١٥٦ .

(١١٤) ويحمل هذا الحجر نقوشا بقي منها نقش فـي تاريخ مكة للفـــاكهي ، مخطوط ليدن رقم ٤٦٣ ، ورقة ٣٣٥ ظ . وثمة صـــورة له في ملحق كتـــاب دوزي :

De Israeliten te Mekka na Davids tijd tot in de vijfde eeun onzer tijdrekning, (Les Israelites à la Mecque) , Haarlem, 1864 ,

كما توجد محاولة لقراءة ذلك النقش في الصفحة ١٧٢ من الكتاب نفسه .

(١١٥) عريب القرطبي ، صلة ، ص ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(١١٦) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(١١٧) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٢ . ويضيف حمزة الاصفهاني (ص ١٥٦) ان ثلاثة آلاف جثة لبثت ملقاة حول الكعبة .

(١١٨) الهمذاني (تكملة ، ص ٦٢) يروي ان مجموع القتلى بلـغ عشرة آلاف قتيـــل .

(١١٩) العمراني ، كتاب الانباء ، [تحقيق قاسم السمرائي ، ليـدن ، ١٩٧٣ ، ص ١٦١] .

لا يمكن قبول هذه الارقام من دون نقد ، ولقد تنبه صاحب كتاب « العيون » الى ان « كل ذلك ظن وحسبان ، اذ كان لا يضبط كثرة » (١٢٠) . وبالمقابل ، فقد خفض عدد قوات أبي طاهر ، في الروايات المتناقلة ، حتى بلغ ٧٠٠ رجل فقط (١٢١) . ان جزع أتقياء المسلمين وارتياعهم جعلاهم يرون كل شيء عبر عدسة مكبرة : وهذا يفسر الظرف الفريد الذي دفع بعض المؤلفين أن يضعوا موت أبي طاهر في العام ٣١٧ ، وأن ينسبوا اليه نهاية الطغاة المعروفة (١٢٢) ، أي تلك التي تنسب الى أنطيوخس أبيفانوس وفيليب الثاني وغيرهم أيضا . والحقيقة ان أبا طاهر لم يمت الا في العام ٣٣٢ من الجدري على ما يبدو . وثمة نتاج آخر لهذه النفسية ، وهو الاسطورة الزاعمة ان ثلاثة جمال قوية ناءت بثقل الحجر عند احتماله واختطافه ، بينما قام جمل هزيل واحد بالمهمة حين أعيد الحجر ، وقيل انه سمن أيضا (١٢٣) ، هذا اذا لم نذكر رواية متأخرة ترفع عدد الجمال من ثلاثة الى أربعين (١٢٤) . ومن ذلك الحاح بعض المؤلفين على اخفاق أبي طاهر في اقتلاع ميزاب الكعبة الذهبي ، وهم يعزون الامر الى تدخل الهي ، كما لو ان الحجر الاسود لم تجب حمايته كما حدث من قبل (١٢٥) . الا ان عريبا القرطبي لا يعلم شيئا عن المعجزة : فالمانع من صعود القرامطة على الكعبة هي السهام التي رشقتهم بها قبيلة هذيل من أعالي جبل أبي قبيس .

كانت غنائم أبي طاهر ضخمة . ويروي « كتاب

---

(١٢٠) ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

(١٢١) البكري ، الموضع المذكور آنفا . أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(١٢٢) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ . ج ٣ ، ص ١٦٥ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

(١٢٣) ثابت بن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص ٥٥ .

(١٢٤) أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٦ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٨٣ .

(١٢٥) الازرقي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

العيون » (١٢٦) انه قد احتيج الى خمسين راحلة لاحتمال نهائب المسجد وحدها ، عـــدا عن المئة ألف (١٢٧) جمل التي حمّلت بالغنائم والمتاع ، ومع ذلك فقد ترك كل ما كان ملطخـا بالدم . كان انسحاب أبي طاهر عبر الوهاد والمفاوز صعبا جـــدا بسبب الهجمات المتلاحقة التي شنها الهذيليون على قافلته . وقد تمكن هؤلاء من الافراج عن الكثير من الاسرى واختطاف عدد كبير من الجمال المحملة بالمتاع . ولم يتمكن أبو طاهر من الخروج من هذا المأزق الا بعد ثلاثة أيام ، يقوده عبد آبق من قبيلة هذيل . لقد تصرف هؤلاء البدو اذن بأفضل مما فعـــله معظم أهل مكة الذين اشتركوا في المقتلة وأتوا « على من عندهم من الحجاج فقتلوهم وسلبوهم » ، على ما يذكره الهمذاني (١٢٨) .

ويروى ان أبا طاهر لما همّ بمغادرة مكة أنشد قائلا (١٢٩) :

---

(١٢٦) ج ٤ ، ص ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(١٢٧) يبدو هذا العدد مبالغا فيه .

(١٢٨) تكملة ، ص ٦٢ . وقد التجأ جمع غفير من السكان الى الحمراء مـــن جبال مكة وتحصنوا فيه . قـــارن تاج العروس للزبيدي ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٥ ، ج ١١ ، ص ٩٢ . ويأتي ياقوت الحموي على ذكر الحمراء في معجمه ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(١٢٩) أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٤ . الهمذاني ، تكملة ، ص ٦٢ . وينسب اليـه قوله :

أنا بالله وبالله أنـــا يخلق الخلق وأفنيهم أنـــا

(أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٣ . مخطوطة ليدن ١٤٥ ، وهي [تلقيح البيان في ذكر أهل الاديان ، لعلي بن محمد بن عبد الله الفخـــري ، ورقة ٣٥ ظهر — ٣٦ وجه] . ابن تغري بردي ، النجـــوم ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، وهو يضيف الى ذلك بعض الكلمات) . ويروي الفخـــري [وابن تغري بردي ، الموضـــع نفسه ، وثابت بن سنان ، أخبـار القرامطة ، ص ٥٤] ان أبا طاهر أنشد هذا البيت بأعلى صوته بعـد أن صعد على باب الكعبة ، ولكن ذلك يبدو مضحكا ، وأظن انه يمكـن رد هذا البيت لكونه منحولا لا بسبب عجزه، بل للنتيجة المترتبة عليه . وسيتبين لنا فيما يأتي ان أبا طاهر لم يدّع مساواة الخالق .

ولو كان هـذا البيت لله ربنا
لصبّ علينا النار من فوقنـا صبّا
لأننا حججنـا حجّة جاهليـة
محللة لم تبق شرقـا ولا غربا
وانّا تركنـا بين زمزم والصفا
جنائز لا تبغي سوى ربها ربّا (١٣٠)

كانت حجة جاهلية حقا ، تلك التي قاموا بها . ما كـان النصارى ولا اليهود ليفعلوا أسوأ مـــن ذلك (١٣١) . لقد أتمّ أبو طاهر تنفيذ مخططه : فالاماكن المقدسة ظلت مهتوكة الحرمات، والحجر الاسود اختطف من دون أن تتدخل القوى الالهية لحماية الحرم. ولعله قال في نفسه : لن يتسنّى للمسلمين أن يستنتجوا من هذه النكبات سوى نتيجة واحدة ، ألا وهي ان شعائر مكة ، وبالتالي كل دينهم ، خرافات ليس الا . ولكـن هذا ما خاب به ظن القرمطي . فقد كان جزع المؤمنين عظيمـــا ، وبكاؤهم على ما نكبوا به مرا ، الا ان تعلقهم بديانتهم كان أقوى . كان ما حدث بقضاء من الله ، والله أكبر ــ وحتى في غيـــاب الحجر كانوا يضعون أيديهم في موضعه القـــديم ويغمرونه بالقبل (١٣٢) . كانت قافلة الحج تذهب كل سنة لا يعترضها فيها أبو طاهر . وفي العام ٣٢٦ ، لما لم تجرؤ القافلة على المسير ، جازف بعض أهل بغداد بعبور الصحراء مشيا على الاقدام للوصول الى مكة ، بينما اكترى بعضهم الآخر رواحل من البدو واشتروا حمايتهم ، ثم قفلوا عائدين عن طريق الشام (١٣٣) .

وقد سميت تلك السنة المشؤومة سنة الجنابي (١٣٤) ،

---

(١٣٠) ونجد عند الهمذاني كلمة « كسبها » بدلا عن كلمة « ربها » ، ولعل هذه القراءة هي الافضل .

(١٣١) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ .

(١٣٢) أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٥ .

(١٣٣) العتيقي ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(١٣٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

لأن أبا طاهر كان يلقب بالجنابي ، مثل أبيه أبا سعيد المولود ، كما ذكرنا سابقا ، في جنّابة .

قد يخيل الينا ، للوهلة الاولى ، ان أحداثا جساما كهذه ستسبب عاصفة غضب تدفع بكل أتباع الاسلام لمواجهة الذين انتهكوا حرمة المقدسات ، ولكننا نخطىء اذ نظن ذلك . فقد ولّى عصر العباسيين المجيد . كانت الامبراطورية الضخمة آنذاك في حالة من التفكك يرثى لها . لم يعد الخليفة سوى دمية في يد أصحاب النفوذ الذين كانوا يحتربون حربا شعواء ، ويتجاذبونه كل الى طرفه ، وكان الاقوى فيهم ذاك الذي استطاع تجميع أكثر ما يمكن من المال . حلّت المجاعة والانهاك محل الوفرة السابقة والغنى . استعملت كل الوسائل لضرب النقود وتسابق على ذلك الحكومات وأصحاب النفوذ . وقد تمكن قاطع طريق بارز ، يدعى ابن حمدي ، من الحصول على ترخيص رسمي من أحد الوزراء في العام ٣٣١ ، لمزاولة صنعته (١٣٥) ، وذلك مقابل ضريبة شهرية قدرها ١٥٠٠٠ دينار . ولم يتمكن من الانتصار على الفساد المتفاقم حتى رجل دولة واسع الحيلة والدهاء ، نظيف الكف والذمة ، كعلي بن عيسى ، وتحطمت أفضل تدابيره على صخرة أنانية الكبار . أصبحت الجيوش لا تضم ، في معظمها ، سوى المجندين الاتراك الذين كانوا يتطلبون معاشات مرتفعة ، ويتربصون أقل تأخير في دفع أجورهم ليعيشوا سلبا ونهبا فيمن يفترض فيهم أن يوفروا الحماية لهم ، حتى لقد صار رؤساء هؤلاء الجنود طغاة مستبدين . انها حقا لمن أكثر حقبات التاريخ حزنا ، تلك التي ترينا النزع الاخير لشعب عظيم نبيل يتهافت أمام تفوّق البرابرة ، تلك التي نشهد فيها انتقال السلطة من يد العرب الى يد الترك والبربر . فأنّى الوقت المناسب

---

(١٣٥) Defrémery , C. , Emirs al - Omara , P 78 . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٨١ . ويسمى اللص في هذين الموضعين « حمدي » ويعطى رقم ٢٥٠٠٠ دينار . قارن ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣١١ . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ص ٣٨٧ - ٣٨٨ . الهمذاني ، تكملة ، ص ١٣٧ .

لمشاريع عظيمة ونبيلة في حقبة كهذه ؟ كانت الاثرة والجشع يتحكمان في كل شيء . أي شعور كان سيثير أصحاب النفوذ آنذاك لمحاربة القرمطي ؟ كانوا لصوصا مثله . وكيف يغارون على الدين وهم يكادون لا يعرفون اللغة التي بشّر به فيها ؟

في العام ٣١٨ ، فتح أبو طاهر عمان ، وفرّ واليها لاجئا الى فارس. هذا ما يخبرنا به ابن خلدون . فيعطي العام ٣١٥ (١٣٦) تارة والعام ٣١٧ طورا (١٣٧) ، الا انه يضيف في النص الثاني ان ذلك قد حدث بعد اختطاف الحجر : وهذا يعني ان الفتح قد تمّ في العام ٣١٧ . أضحى أبو طاهر ، باخضاعه عمان ، سيد الجزيرة العربية غير المنازع ، وصار بامكانه عندئذ أن يفكر في متابعة هدفه الرئيسي الذي آن أوانه ، ألا وهو السيطرة على العراق .

في العام ٣١٩ استولى القرامطة على الكوفة . وقد كان من شأن الذعر الذي خلّفه انتشار النبأ أن هرع معظم سكان قصر ابن هبيرة فارّين الى بغداد التي اقفل الرعب أسواقها (١٣٨) . ولكن ردة الفعل اقتصرت على حالة التنبه العام هذه . وبعد أن مكث أبو طاهر ٢٥ يوما في الكوفة وضواحيها ، ارتحل عنها عائدا الى بلده ، عاقدا العزم على الرجوع بعد وقت وجيز ، ومقتنعا انه سيجهز عندئذ على الخلافة العباسية . وقد عبّر عن رأيه هذا في قصيدة حفظ لنا بعضا منها كل من البيروني (١٣٩) وابن تغري بردي (١٤٠) :

أغرّكم مني رجوعي الى هجر
فعمّا قليل سوف يأتيكم الخبر

---

(١٣٦) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٩ .
(١٣٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٩٣ .
(١٣٨) عريب ، صلة ، ص ١٦٣ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ . حمزة الاصفهاني ، تاريخ ملوك الارض ، ص ١٦٠ .
(١٣٩) الآثار الباقية ، ص ٢١٤ .
(١٤٠) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

اذا طلع المريخ من ارض بابل
وقارنه كيوان فالحذر الحذر (١٤١)

فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأني انا المرهوب في البدو والحضر

فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة
يساقون سوق الشاء للذبح والبقر

أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم
فلا أبقي منهم نسل أنثى ولا ذكر

أنا الداعي للمهدي لا شك غيره
أنا الصارم الضرغام والفارس الذكر (١٤٢)

ألست أنا المذكور في الكتب كلها
ألست أنا المنعوت في سورة الزمر (١٤٣)

سأصرف خيلي نحو مصر وبرقة
الى قيروان الترك والروم والخزر (١٤٥)

أعمّر حتى يأتي عيسى بن مريم
فيحمد آثاري وأرضى بما أمر (١٤٦)

نفي جنة الفردوس لا شك مربعي
وغيري يصلى في الجحيم وفي سقر (١٤٧)

ولكنه حتم علينا مقدّر
فنفنى ويبقى خالق الخلق والبشر

عدا عن اختلافات الرواية الواردة في الحواشي فان الذي

(١٤١) ان عجز البيت الذي نجده عند البيروني « وقارنه النجمان ... » يبدو لي غير صحيح .
(١٤٢) الابيات ٣ ـ ٦ لا يذكرها البيروني .
(١٤٣) هذا البيت لا يذكره ابن تغري بردي .
(١٤٥) ونجد عند البيروني « سأملك أهل الارض شرقا ومغربا » .
(١٤٦) عند البيروني يقرأ عجز البيت كما يلي : « فيحمد آثاري ويرضى بما أمر »
(١٤٧) هذا البيت غير مذكور عند ابن تغري بردي ، والذي يليه لا يذكره البيروني .

ابن تغري بردي بديلا عن عجز البيت الثاني يقرأ كما يلي : « وقارنه كيوان » . يجدر بنا أن نتوقف بعض الوقت عند هذا البيت لانه يعطينا مفتاح تفسير مباينة خطوات القرامطة النشيطة قبل العام ٣٢٠ لضعفهم بعد تلك السنة (١٤٨) .

لقد أبحت لنفسي هــذا الاستطراد (١٤٩) لأبيّن بوضوح عمق الايمان بالتنبؤات التنجيمية وسيطرتها على عقول الناس في القرون الوسطى ، حتى ان هولاكو التتري نفســه لم يجرؤ على مهاجمة بغداد قبل أن يطمئنه منجّمه الطوسي الشهير (١٥٠) . كان هذا الايمان شاملا الدول كلها ، والذي كان يلهب حماس بعضهم كان يثبّط عزائم بعضهم الآخر . ومع انه كان يُتوصل الى شلّ مفعول نبوءة مشؤومـــة بالاستعانة ببعض الظـواهر الطبيعية ، الا ان الاعتقاد فيها كان يظل راسخـا لا يتزعزع . وكان من شأن ذلك أن يسمّر الفريق الخاسر خوفا ، ويلهم المنتصر عزيمة أقوى . وغني عن البيان انه كان ثمة عقلاء يسخرون من توقعات المنجمين . فالطبري (١٥١) يهزأ بهم ، وابن سينا (١٥٢) يفند مزاعمهم ، وأبو العلاء المعري يواجـه الايمان بكيوان (زحل) بالكائن الابـدي (١٥٣) ، وابن خلدون يكفّر كل انسان عـادي يحاول سبر المستقبل ، وأخيرا نجـد أبا علي [الجبّائي] المتكلم المعتزلي الشهير ، يسلّم بأن الله يستخـدم الاجرام السماوية للاعلان عن المستقبل ، ولكنه يحارب المنجمين الـذين ينسبون اليها التأثير المباشر (١٥٤) . وعلى الرغم من كل هـذا ، فان

(١٤٨) [يستطرد دي‌خويه هنا بكلام يؤرخ فيه لتأثير الاعتقاد بالتنجيم منذ العصر الاموي ، وقد رأيت أن أجعل ذلك في الملحق رقم ٥ للحفاظ عـلى التسلسل الطبيعي للاحداث] .

(١٤٩) [المنوه به في الحاشية السابقة] .

(١٥٠) وايل ، عباسيين ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ .

(١٥١) تاريخ ، ٣ / ١٣٦٤ ، [٢١٨٢ هي الاصح] .

(١٥٢) [رسالة القضاء والقدر] مخطوطة ليدن رقم 1020 a n II

(١٥٣) [اللزوميات ، بيروت ، ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٣٦٤ . ج ٢ ، ص ١٩٦] .

(١٥٤) الهمذاني ، تكملة ، ص ١٧ . [عن أبي علي الجبائي ، قارن مـذاهب الاسلاميين لعبد الرحمن بدوي ، ج ١ ، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦] .

الجمهور ، أمراء ورعايا ، ظل ساذجا سريع التصديق (١٥٥) . ولكني لن أتوسع أكثر مما فعلت في هذا الموضوع ، بل سأعود الى أبي طاهر .

ان الابهام الناتج عن الاختلافات في روايـة قصيدته يحول دون الجزم بوقت انشادها . بيد ان رحيله من سواد الكوفة في العام ٣١٩ يرجح انه كان يعتبر العام ٣٢٠ (٩٣٢) وقتا مؤاتيا لضرب خلافة بغداد ضربة قاضيـة ، ولظهور « المنتظر » من آل البيت ظهور المنتصرين . ويبدو لي ان الدليل على ان أبا طاهر كان يفكر بهذه الطريقة آنئذ ، يكمن في حدث ، لم يحظ بالانتباه الكافي ، وهو ما سأورده الآن استنادا الى مصادر مختلفة .

هذه أولا رواية عريب القرطبي (١٥٦) :

« وفي هذه السنة وصل زكري الخراساني الى عسكر سليمان ابن أبي سعيد الجنابي ، فجاز له عليهم من الحيلة والمخرقة ما افتضحوا به وعبدوه ودانوا له بكل ما أمرهم به من تحليل المحارم وسفك الرجل دم أخيه وولده وذوي قرابته وغيرهم ، وكان السبب في وصوله اليهم ان القرامطة لما انتشروا في سواد الكوفة وانتهوا الى قصر ابن هبيرة فأسروا جماعة من الناس كانوا يستعبدون من يأسرونه ويستخدمونهم ، وكان له عرفاء على كل طائفة منهم فأسر زكري هذا فيمن أسر وملكه بعض العرفاء المترأسين عليهم ، فلما أراد الاستخدام به تمنع عليه وأسمعه ما كره ، فلما نظر الى قوة كلامه وجرأته هابه وأمسك عنه وأنهى خبره الى الجنابي سليمان فأحضره من وقته وخلا به وسمع كلامه ففتنه ودان له وأمر أصحابه بأن يدينوا له ويتبعوا أمره

---

(١٥٥) Reinaud , J. T. , Monuments arabes , persans et turcs du cabinet de M. le duc de Blacas et d'autres cabinets considérés d'après leurs rapports avec les croyances , les mœurs et l'histoire des nations musulmanes , Paris , 1828 , II , P 367 et sq.

(١٥٦) صلة ، ص ١٦٢ .

وحمله في قبة وستره عن النــاس ، وشغل خبره القرامطــة وانصرفوا به راجعين الى بلادهم وهم يعتقدون انــه يعلم الغيب ويطلع على ما في صدورهم وضمائرهم وهو كان بعد ذلك السبب لهلاكهم وفنائهم على ما يأتي ذكره في الوقت الذي دار فيه ذلك » .

وهذه رواية البيروني (١٥٧) :

« وظهر في أول شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة ابن أبي زكرياء الطمامي ، وكان غلاما فاجرا مؤاجرا، فدعا الى ربوبيته فاتبعوه ، وسنّ لهم هذا الغلام أن تشق بطون المــوتى وتغسل وتحشى حمرا ، وقطع يد من أطفأ نارا بيده وقطع لسان مــن أطفأها بنفخه والفجور بالغلمان على أن لا يفرط في الايلاج ومــن أفرط في ذلك جرّ على وجهه أربعين ذراعا ومن امتنع من الغلمان ذبح عند القصاب ، وأمرهم بعبادة النيران وتعظيمها ، ولعن من مضى من الانبياء وأصحابهم فانهم كانوا محتاليــن ضالين وغير ذلك مما سقت شرحه سياقة شافية في أخبار المبيضة والقرامطة، ومكثوا على ذلك ثلاثين يوما الى أن سلط الله عليه من كان تولى اظهاره فذبحه ذبحا وارتدّ كيدهم في نحورهم » .

أما المصدر الثالث فهو «كتاب العيون» حيث نقرأ ما يلي عن موت أبي طاهر في العام ٣٣١ (١٥٨) :

« وكان للقرامطة سبعة من الوزراء ، وكان فيهم رجل يعرف بابن سنبر ، وكان يعادي زوج أخت أبي طــاهر ، أبا حفص ابن زرقان الذي كان يدعى الشريك ، فأحضر رجلا من أهل أصفهان وكشف له أسرارا كان أبو سعيد كشفها له ، وعرّفه مواضــع دفائن لم يعلم بها غيره ، ولم يعلــم أبو طاهر ان أباه كشف ذلك لابن سنبر ، فقال ابن سنبر للاصفهاني : « امض الى أبي طاهر وعرّفه انك الرجل الذي كان أبوه ، وهو ، يدعوان اليه ، فــاذا سألك عن العلامات والدليل ، أظهر له هذه الاسرار » ، وعاهده

(١٥٧) الآثار الباقية ، ص ٢١٣ .
(١٥٨) ج ٤ ، ص ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠ .

انه اذا تمكن من هذا الامر يقتل أبا حفص الشريك ، رجلا كان يعاديه ، فضمن الاصفهاني ذلك ومضى الى أبي طاهر وأعطاه العلامات ، فلم يشك أبو طاهر في صحة العلامات ، وحدّثه الاسرار فلم يشك فيها ، فوثب أبو طاهر وقام بين يديه وسلّم اليه الامر وقال لاصحابه : « هذا هو الذي كنت أدعوكم اليه والامر له » .

فتمكن الرجل من الامر وثبت ووفى لابن سنبر بما كان ضمنه ، ثم كان يأمر أبا طاهر واخوته بقتل من شاء وهو يقول : « قد مرض » يعني انه شكّ في الدين فيقتل ، فأخذ يقتل واحدا واحدا من رؤساء القوم وأهل البصائر منهم النّجدة ، وأمره ممتثل ، الى أن أتى على عدد كبير ، وكان اذا أمر الرجل أن يقتل أباه أو أخاه أو ابنه لم يتوقف وبادر الى امتثال أمره .

فخافه أبو طاهر على نفسه وبلغه انه يريد قتله فقال لاخوته : « اني قد وقع لي غلط وشبهة في أمر هذا الرجل وليس هو صاحب الامر ، والرأي قتله والا قتلنا كلنا » . فأطاعه اخوته ، وفي عقد أمرهم ان صاحب الامر يعلم ضمائر القلوب ولا تخفى عليه الاسرار ويمكنه أن يبرىء المريض ويعمل كل ما يريد ، فجاء أبو طاهر واخوته الى هذا الرجل الاصفهاني وعرّفوه ان والدتهم عليلة وسألوه أن يدخل عليها ، ونوّموا والدتهم وغطوها فدخل اليها فلما رآها قال لهم : « هذه علّة لا يبرأ صاحبها فطهّروها » ، معناه : أقتلوها ! فلما قال لهم ذلك قالوا لأمهم : « اجلسي » فجلست وقالوا له : « هي في عافية وأنت كذاب » فقتلوه .

وتتفق روايتا ابن الاثير (١٥٩) والهمذاني (١٦٠) مع رواية « كتاب العيون » . الا ان ابن الاثير يضع الحادث في العام ٣٢٦ ، وهذا غلط . أما الهمذاني فلا يأتي على ذكر الاصفهاني بل على

---

(١٥٩) الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٦٣ وما يليها .

(١٦٠) تكملة ، ص ١٣٩ .

اسم خصم ابن سنبر ، الـــــذي كان الاخير يريد قتله ، وهو أبو حفص الشريك .

واضح ان هذه الروايات تتفق في نقطة هامة جدا ، الا وهي انه في العام ٣١٩ ظهر بين القرامطة دجال زعم انه صاحب الامر المنتظر ونجح في أن يحوز اعترافهم بصفته هذه ، لانه كان قد اكتشف بعض أسرار الدولة . استخدم هذا الرجل نفوذه ليقضي على عدد من القرامطة البارزين ، الا ان تصرفاته أدت الى اقـلاق أبي طاهر واخوته . ويبدو ، فضلا عن ذلك ، ان سيرته ، وطابع العديد من أوامره جعلاهم يرتابون من امره ، فقرروا أن يمتحنوه، فانكشف لهم كذبه ، فقتلوه . من الارجح ان ايقاف حملة العراق كان بسببه كما يخبرنا عريب القرطبي . ولكن اذا كـان لقاء أبي طاهر به قد تم كما وصفه المؤلف نفسه ، استحـــال على تواطؤ ابن سنبر أن يكون تاريخيا . وثمة أسباب أخرى تحملنا عــلى الشك في هذا التواطؤ . وبما ان آل سنبر حافظوا على المقـام الثاني في الدولة ، ولما لم يوجد أي دليل على ارتيابهم فيمبادئهم، فلا مجال لقبول كون ابن سنبر قد انحاز الى رجل يعلم انه دجال. والاغلب ان ابن سنبر كان معرضا لان يكون أول من اغتر به . ويحق لنا أن نعتقد بصواب رأي عريب عندما يقول لنا ان المهدي اتخذ منذ البداية لهجة متسلطة آمرة . والامثلة على الاشخـاص الذين ادعوا تجسد الاله فيهم ونعموا بتقديس الجمهور وتأليهـه لهم ، في تلك الحقبة وفي ما قبلها ، كثيرة مـوفورة . فالكـل يعرف نبي قصيدة مور (Moore) « مقنّع خراسان » (١٦١) .

---

(١٦١) قارن دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٦١ .

Darmesteter , J . Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'à nos jours , Paris , 1885 , P 43 et sq .

ويروي ابن الجوزي انه قد « ظهر بين الكوفة وبغداد رجل يدعي انــه محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وجمع جمعا عظيما من الاعراب واستفحـــل أمره فـــي شوال [٣١٢] » ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٨٩ .

ولا يخفى أن الحلاج (١٦٢) استطاع ايهام نفر من أهل البلاط العباسي بعبادته نظيرا لله وكفوا له ، كما ان الشلمقاني (١٦٣) حظي باجلال عدد من الناس اجلالا الهيا. وبيّن ان لا أرض أخصب لمثل هذه المعتقدات ولا أكثر قبولا من البيئة القرمطية ، اذ انها كانت تؤمن بالتجسيد وتتوقعه ، ولأنها ، فضلا عن ذلك ، أسهل خداعا بالخزعبلات من البغداديين الآخذين من التمدن بقسط أوفر .

يستحيل علينا أن نحدد اسم المهدي المزيف بصورة يقينية. وفضلا عن الروايات السابقة الثلاث لدينا رواية للنويري يرتكب فيها مفارقة تاريخية مقدارها أربعون سنة ، اذ يجعل بدايات الدجال في مطلع سيرة أبي سعيد (١٦٤) ، ويسميه بأبي زكريا الصمامي ، ويروي أن أبا سعيد أهلكه . ولما كان يحيى يكنى عادة بأبي زكريا ، فمن غير المستبعد أن يكون كل من يحيى بن المهدي ، الذي يذكره ابن الاثير (١٦٥) بدلا من أبي زكريا هذا والصماني شخصا واحدا ، ولذلك وجب أن يزال من تاريخ بدايات دعوة أبي سعيد . ولقد ألمعنا من قبل (١٦٦) الى ان ما يروى عن يحيى بن المهدي هذا ، مشكوك في صحته . وثمة دليل غير مباشر على وحدة هذا الرجل مع مهدي العام ٣٢٠ المزيف ، نجده في التهمة الموجهة الى كليهما بادخال ممارسات لا أخلاقية. ولئن قبلنا هذه الوحدة اذن لأعطتنا رواية ابن الاثير حلا لمعضلة كبيرة ، وهي معرفة كيف يمكن التوفيق بين التعرف الى المهدي الدجال والتعرف الى عبيد الله ، الخليفة الفاطمي . فان يحيى هذا يسمي نفسه بابن المهدي ، ويزعم انه مرسل من قبله . واذا قبلنا بكونه قد زعم انه مبعوث عبيد الله الذي سيقود القرامطة

---

(١٦٢) [ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ١٦٣] .

(١٦٣) [لعله ابن أبي الغراقر محمد بن علي بن شلمقان المذكور في الآثار الباقية للبيروني ، ص ٢١٤] .

(١٦٤) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٤ .

(١٦٥) الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٤١ .

(١٦٦) ص ٤١ .

ويقضي على خلافة بغداد اتضحت القضية تماما (١٦٧) .

تأخر تحقيق آمال أبي طاهر الجريئة ، التي عبّر عنها في قصيدته ، بسبب حكم المهدي الدجال . قتل الكثير من الرجال النافذين ، ومن هنا نشأت العداوات بين أهل الضحايا وأصدقائهم من جهة وبين منفذي أحكام المهدي من جهة ثانية . ولا يستبعد ان يكون هذا قد ترك أشياعا ومريدين يودون أن ينتقموا لموته (١٦٨) . من المؤسف ألا نملك الرواية التي وعدنا عريب بروايتها عن انحطاط القرامطة بعد ظهور المهدي الدجال (١٦٩) . الا ان عريبا (١٧٠) يعلمنا ان سبعين قرمطيا بارزا كانوا تحت امرة مؤنس القائد في العام ٣٢٠ ، وانهم « كلهم أنجاد مبرزون في البأس لا يرد أحدهم وجها عن عدو » ، وان مؤنسا كان يستخدمهم في المهمات الصعبة . ولعلهم نزحوا خشية من المهدي الدجال .

بيد ان القرامطة لم يكلوا تماما عن النشاط . ففي العام ٣٢١ غزوا بلاد فارس غزوة كانت على الارجح لصالح تجارتهم ، فعاثوا قتلا في مدينة سينيز القريبة من جنّابة ونهبوها (١٧١) . ومن الجائز ان تكون هذه الغزوة وتلك التي حصلت في العام ٣٢٢ ، واستهدفت مدينة توّج (١٧٢) ، غزوة واحدة . ولكن الحملة الاخيرة باءت بالخسارة ، لان العديد من القرامطة أسروا واقتيدوا الى بغداد ، ومن بينهم ابن الغمر أحد الدعاة الرئيسيين . ولقد كان من شأن الجزع الذي انتاب الخليفة القاهر ، قبيل خلعه على يد حرسه الخاص ، أن دفعه الى الافراج

---

(١٦٧) ويبدو ان الشخص نفسه يسمى بأبي زكريا في كتب الدروز المقدسة ، قارن دي ساسي ، دروز ، ج ١ ، ص ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ . أما ابن سعدون فيسميه الاصبهاني ، قارن البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(١٦٨) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٤ .

(١٦٩) الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٦٤ .

(١٧٠) صلة ، ص ١٦٨ .

(١٧١) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(١٧٢) الكامل ، ج ٨ ، ص ص ٢٢١ و ٢١٠ .

عن القرامطة واغداق العطايا عليهم ليكسب مساندتهم . ولا نعلم بالضبط ما صار اليه هؤلاء ، ولكن الارجح انهم وجدوا فرصة للعودة الى البحرين .

اما عن الحج فقد جازفت قافلة صغيرة في العام ٣١٨ بالسفر من العراق الى مكة ، وعادت الى بغداد في صفر ٣١٩ . ولكن على الرغم من انها لم تتعرض لمضايقة القرامطة ، فقد عانت الامرّين من الجوع ، لان معظم المحطات كانت منهوبة (١٧٣) ، واستمرت كذلك فيما بعد ، وهذا ما يفهم من ذكر ياقوت (١٧٤) لدمار محطة الربذة الهامة في العام ٣١٩ . ومع ان عريبا القرطبي يسمي أمراء الحج لسنتي ٣١٩ و ٣٢٠ الا انه لا يقول لنا ما اذا حج أحد من العراق ، بينما يؤكد الفاسي (١٧٥) ان أحدا لم يحج تلك السنة . وفي السنة التالية جربت قافلة صغيرة السفر ونجحت في الوصول (١٧٦) . ولكن الخوف من القرامطة كان من العظم بحيث حاولت حكومة بغداد ايجاد مخرج من هذا المأزق . ففي العام ٣٢٢ ، بدأ محمد بن ياقوت ، حاجب الخليفة الرضي، مفاوضات مع أبي طاهر . وقد طلب مبعوث الخليفة العباسي من أبي طاهر أن يدين بالولاء للخليفة ، وألا يتعرض للحجاج ، وأن يرد الحجر الاسود ليحصل ، لقاء ذلك ، على اعتراف الخليفة به أميرا على البلاد التي يحكمها ، كما وعده المبعوث أن يحصل له على كل ما يطلبه فضلا عن ذلك (١٧٧) . ويبدو ان ابا طاهر

---

(١٧٣) عريب ، صلة ، ص ١٥٧ . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٥٧ . ابن الجوزي، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٣٦ . ويروي ابن الجوزي ان الحجاج تاهوا في البرية وهم عائدون ، ووجدوا فيها « آثارا عجيبة وعظاما مفرطة في الكبر وصور الناس من حجارة وحمل بعضها الى الحضرة . وحدّث بعضهم انه رأى امرأة قائمة على تنور وهي من حجر . وقيل هي بلاد عاد وقيل ثمود » .

(١٧٤) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ .

(١٧٥) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(١٧٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ص ٢٣٩ ، ٢٤٥ .

(١٧٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٢٠ . قارن :
Defrémery , C. , Mémoire d'histoire Orientale , I , P 19 .

أجاب بلطف انه لن يتعرض للحجاج وانه لا يقدر علـى ارجاع الحجر ، وانه مستعد لاداء الطاعة للخليفة اذا سمح له بالتجارة الحرة مع البصرة . والارجح ان هذه المعلومات ليست تاريخية ، لان وفاة عبيد الله ، التي وقعت في تلك السنة ، لم تكن لتغير شيئا في العلاقات بين القرامطة والفاطميين (١٧٨) ، كما يخولنا رفض ارجاع الحجر الاسود أن نظن . ان مضمون الخبر يبدو صحيحا ، وليس مستبعدا أن يكون علي بن عيسى ، الذي دعاه الراضي الى الوزارة فرفض لتقدمه في السن (١٧٩) ، قد اشترك في المفاوضات . وقد تم حج العام ٣٢٢ من دون ازعاج . تلك كانت نتيجة المفاوضات الوحيدة ، اذ هاجم أبو طاهر قافلة الحج في العام ٣٢٣ ، فعاد الحجاج أدراجهم ، ومكث هو أياما في الكوفة (١٨٠) . وفي العام ٣٢٥ ، احتل الكوفة مرة ثانية ، فتوجه ابن رائق ، أمير الامراء ، بجيشه الى لقائه حتى وصل الى قصر ابن هبيرة ، وبادر الى التفاوض معه . ويؤكد ابن الاثير (١٨١) وابن تغري بردي (١٨٢) انه لم يتوصل الى أية معاهدة سوى ان أبا طاهر عاد الى بلده . ويذهب الهمذاني الى عكس ذلك ، اذ يقول ان ابن رائق أقنع القرمطي بالانسحاب ، ووعده بجزية سنوية قدرها ١٢٠٠٠٠ دينار من الحنطة والفضة . ويبدو لي ان كلتا الروايتين صحيحتان ، اذ ظل الحج مستحيلا حتى العام ٣٢٦ ، ولم يتوصل الى عقد معاهدة الا في العام ٣٢٧ بفضل مساعي أبي علي عمر بن يحيى ، أحد علويي الكوفة . كان هذا الرجل ، صاحب الرصيد الشعبي

---

(١٧٨) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

(١٧٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢١١ .

(١٨٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٣٢ . أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٣١ .

(١٨١) الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٤٩ وما بعدها .

(١٨٢) النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(١٨٣) تكملة ، ص ١٠٢ .

الكبير (١٨٤) ، أميرا للحج . ولما كان صديقا شخصيا لابي طاهر أقنعه بالسماح لقافلة الحج بالمرور لقاء فدية سنوية مقدارها ٢٥٠،٠٠٠ أو ١٢٠،٠٠٠ دينار (١٨٥) تدفع من بيت المال ، ورسما فرديا هو « الخفارة » يدفعه كل حاج . لا يذكر المؤرخون الرسميين منفصلين ، الا انني أجد من الضروري أن أميز بينهما كما فعلت . وفي الواقع ، عندما يعدد ابن حوقل مصادر دخل القرامطة ، نجده يميّز بين دخل طريق مكة وما يدفعه الحجاج (١٨٦) . بالاضافة الى ذلك ، فان أولى الضريبتين تذكر مع مفاوضات ابن رائق ، أما الثانية فنجد عنها كشوفا مفصلة . ان أدق تفصيل للخفارة نقع عليه مثبتا في «كتاب العيون» (١٨٧) . كان على كل عمارية كبيرة (مركبة) أن تدفع ثلاثة دنانير ، وعلى كل عمارية صغيرة (١٨٨) دينارين ، وعلى كل جمل يحمل متاعا دينارا واحدا . والاغلب ان هذه الضريبة قد زيدت فيما بعد ، وهذا ما يستشفّ مما نقله ابن الجوزي (١٨٩) على الاقل ، اذ يقول انه كان على كل جمل خمسة دنانير وسبعة على كل عمارية ، وهذا ما يؤكده ابن تغري بردي (١٩٠) بالنسبة الى الجمال . ونقرأ في « كتاب العيون » (١٩١) ان أبا الحسين بن المعمر قبض هذه الضريبة لاول مرة في العام ٣٢٧ في محطة زبالة . ويروي ابن الجوزي ان القاضي أبا علي بن أبي هريرة الشافعي (١٩٢) لما حجّ « لوى راحلته ورجع » عندما طلب منه دفع الخفارة وبرر تصرفه بقوله : « لم أرجع شحّا على الدراهم ولكن قد سقط

---

(١٨٤) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٢ ، ص ص ٩٢ ، ١٠٠ . [ابن الجوزي، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٩٦] .

(١٨٥) Defrémery , C. , Emirs al - Omara , P 24 et sq .

(١٨٦) كتاب المسالك ، ص ٢١ .

(١٨٧) ج ٤ ، ص ٢٣٣ .

(١٨٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٩٦ .

(١٨٩) [المصدر نفسه ، الموضع نفسه] .

(١٩٠) النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٠ .

(١٩١) [ج ٤ ، ص ٢٣٣] .

(١٩٢) [ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٩٦] .

الحج لهذا المكس » . وفـي تلك الاثناء رفض زعيم القرامطة كل طلبات البلاط البغدادي باعادة الحجر الاسود .

رأينا في العام ٣٢٠ فرقة من القرامطة تحت امرة مؤنس . وفي العام ٣٢٧ نجد كتيبة قرمطية مؤجرة للخليفـة أو بالاحرى لابن رائق (١٩٣) . ولعل بلاط بغداد كان قد فرض على أبي طاهر أن يمدّه بالجنود . ومن ناحية ثانية ، نجد ان مساعدة أبي طاهر للبريدي ليسيطر على البصرة ، وبعد ذلك في العام ٣٣٠ ليسيطر على بغداد ، كانت ارادية تماما (١٩٤) . ونصادف عند ابن تغري بردي (١٩٥) دليلا على عرفان البريدي بالجميل ، اذ انه لما ولد لابي طاهر ولد في العام ٣٣١ بعث اليه بهدايا نفيسة منها مهـد ذهبي مرصع بالحجارة الكريمـة . ولما اضطر البريدي للالتجاء الى هجر في العام ٣٣٢ ، استقبل فيها بكل حفـاوة (١٩٦) ، وبعد ذلك صحبه أحد اخوة أبي طاهر شخصيا في محاولة لاعادته الى السلطة (١٩٧) . وفي العام ٣٣٩ نجـد بعض القرامطة فـي خدمة معزّ الدولة البويهي (١٩٨) . في تلك الاثناء كانت بـلاد عمان قد تخلصت مجددا من سيطرة القرامطة ، وهـذا ما تثبته لنا الحملة التي حملهـا يوسف بن وجيه في العام ٣٣١ عـلى البصرة (١٩٩) . ويخبرنا ابن خلدون (٢٠٠) بشكل عام ان أبـا طاهر ما انفكّ يغزو الغزوة تلو الغزوة في الشام والعراق حتى

---

(١٩٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٩ ، ص ص ٢٦ ، ٣٢ . وهو يسمـي اثنين من قادتهم (رافع وعمارة) . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٦٥ .

(١٩٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٨٥ . ابن تغري بـردي ، النجـوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ . المسعودي ، مروج الـذهب ، ج ٨ ، ص ٢٤٦ .

(١٩٥) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

(١٩٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ .

(١٩٧) الهمذاني ، تكملة ، ص ١٤٠ .

(١٩٨) الهمذاني ، تكملة ، ص ١٦١ .

(١٩٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩٨ . قارن أيضا ص ٣١٢ .

(٢٠٠) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٩ . قارن أيضا :
Defrémery , C. , Emirs al - Omara , P 26 , note 1 .

اجبر خليفة بغداد ووالي دمشق على دفع جزية سنوية ، ولكن يبدو ان في كلام ابن خلدون مفارقة تاريخية ، والحقيقة ان هذه الامور حدثت في العام ٣٥٧ ، وهذا ما سنتناوله بالعرض فيما بعد . ومما يرجح افتراض المفارقة ، سكوت المؤرخين عن أية حملة لابي طاهر على الشام .

توفي أبو طاهر في رمضان ٣٣٢ ، بعد عشرة أعوام من موت عبيد الله . لقد كان واسطة العقد في سلالة الجنابيين ، وفقدانه لا يعوّض . لم يكن من الممكن لموته أن يقع في أسوأ من تلك الحقبة المنكودة . وبالفعل ، فقد قامت حينئذ ردة هائلة على الفاطميين في افريقيا . وفي العام ٣٢٢ ، كان أبو يزيد اليفرني قد ذهب في انتصاراته الى حد اجبار القائم بأمر الله ، خليفة عبيد الله ، على الانسحاب الى قلعته في المهدية (٢٠١) ومحاصرته فيها . وبعد وفاته سنة ٣٣٤ ظل خليفته المنصور محاصرا حتى العام ٣٣٥ ، حيث أدى انقلاب موفق في مجرى الاحداث الى تغيير وجه السياسة ، وأنقذ بذلك نجم الفاطميين من الافول التام . واضح اذن ، انه لم يكن بمقدور الامام أن يفكر في تدبير خلافة زعيم القرامطة في ظل هكذا أوضاع حرجة . وسيكون من شأن هذه الظروف بالذات أن تسبب انحطاط سلطانهم .

---

(٢٠١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

[illegible]

ولعل بلاط بغداد [illegible]

[illegible] القوة [illegible] في الشام والعراق [illegible]

---

(٢٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ص ٢٦ ، ٣١ ، [illegible] ، [illegible] ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٦٥ .

(٢٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٨٥ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٧٩ .

(٢٤) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

(٢٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ .

(٢٦) الهمداني ، التكملة ، ص ٢١٠ .

(٢٧) الهمداني ، التكملة ، ص ١٦١ .

(٢٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٩٨ . وانظر أيضا ص ٢١٢ .

(٢٩) [illegible] ، ج [illegible] ، ص [illegible] . انظر أيضا [illegible] 25, note 1.

٦ — خلافة أبي طاهر
والعلاقات الخارجية للدولة القرمطية

تختلف الروايات حول خلافة أبي طاهر كثيرا . فيقول كل من الهمذاني (١) وابن الاثير (٢) ما يلي : « وكان له سبعة من الوزراء أكبرهم ابن سنبر . وكان لأبي طاهر أخوان : أبو القاسم سعيد بن الحسن ، وأبو العباس الفضل بن الحسن ، وكان أمرهم واحدا . فكانوا اذا أرادوا حالا خرجوا الى الصحراء ، واتفقوا على ما يعملون ، فاذا انصرفوا تمّموا ما عوّلوا عليه . وكان لهم أخ متشاغل باللذات لا يدخل معهم في أمورهم » . ويذهب ابن تغري بردي (٣) الى ان أبا القاسم سعيدا خلف أخاه . أما ابن خلدون (٤) فيخبرنا ان أبا منصور أحمد هو الذي خلف أبا طاهر . ويزعم آخرون (٥) ان أبا منصور هذا مات مع أخيه أبي طاهر من الجدري أيضا ، ولكن هذا الخبر ليس صحيحا كما يفهم من بقية الرواية (٦) . ويلاحظ ان رواية الهمذاني وابن

---

(١) تكملة ، ص ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٢) الكامل ، ج ٨ ، ص ٣١١ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

(٤) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٥) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٧ .

(٦) أنظر أيضا النهروالي في أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .

الاثير ناقصة ، اذ ان ثمة أخا ، غير الثلاثة الوارد ذكرهم . وهو ابو يعقوب يوسف المتوفي في العـــام ٣٦٦ . ولا تنطبق تهمة الاقبال على الخمر والميسر لا عليه ولا على أخيه أحمد . ويناقض ابن خلدون نفسه عندما يقول ان أبا طاهر خلفـــه أخوه البكر ، ويسميه أحمد ، مع علمه الاكيد بأن سعيدا هو البكر . وهـاكم كيفية تسلسل الاحداث فيما نظن : بعد وفـــاة أبي طاهر قام سعيد ، بمعاونة أخيه الفضل ، بأعباء الحكم ، بانتظـــار صدور قرار الخليفة الفاطمي في الخلافة . يقـول ابن خلدون ان القائم هو الذي اتخذ القرار ، والارجح ان المنصور هو الذي فعل ذلك . وقد أمر المنصور أن يؤول الحكم لا الى سابور ، ابن أبي طاهر ، كما تمناه معظم أعضاء المجلس العقداني ، بل الى عمه أحمـد ، والد الحسن الاعصم الشهير ، وأضـــاف ان سابور هو الذي سيخلف عمه في الحكم . سنرى فيما بعد ، ما تسبب به هـذا القرار من كوارث ، ولنتابع الآن رواية المؤرخين .

لم يحجّ الناس في العام ٣٣٢ ، لغياب الخليفـة عن بغداد ولاضطراب الوضع في البلاد ، على ما يذكره العتيقي (٧) . أما الذهبي (٨) فيعزو ذلك الى موت أبي طاهر الـذي كان يواكب القافلة منذ معاهدة ٣٢٧ (٩) . ولم يحجّ في السنة التي تلت بسبب موت الاخشيد ، أمير مصر ، وحـوادث بغداد ، علـى الارجح . على ان المعاهدة مع القرامطة ظلت سارية المفعول ، فأمن جانبهم على الاقل . ولكن موضع الحجر الاسود في الكعبـة ظل خاليا . بذلت جهود كثيرة لحمل القرامطة على رده ، حتى لقد عرض [بجكم] عليهم مبلغ ٥٠٠٠٠ دينار (١٠) ذات يوم ، ولم

(٧) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٨) Defrémery , C. , Emirs al - Omara , P 26 , note 2 .
وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

(٩) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

(١٠) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠١ . كتاب العيـون ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ .
الهمذاني ، تكملة ، ص ١٦٣ . ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٣٦٥ .
Defrémery , C. , Mém. d'histoire Orientale , I , P 18 .

يحصل على أي جواب سوى قولهم : « أخذناه بأمر وما نرده الا بأمر » .

أخيرا ، رضي المنصور ، حفيد عبيد الله ، باعطاء هذا الامر (١١) . فقام سنبر ، أحد القرامطة البارزين ، في العام ٣٣٩ ، بمواكبة الحجر الى الكوفة أولا ، حيث عرض في المسجد الجامع (١٢) ، ومن هناك الى مكة ، حيث أعيد الى مكانه بحضور أمير مكة وأشخاص آخرين منهم رجل أندلسي (١٣) : ظل الحجر غائبا ٢٢ سنة الا بعض أيام (١٤) .

اتضح ان الهدف المتوخى من اختطاف الحجر ، وهو سلب مكة طابعها المقدس ، يستحيل بلوغه . بدا للامام الخليفة الفاطمي ان الامر بارجاع الحجر سيكسبه ، بصفته حاميا للدين ، رصيدا شعبيا لا بد منه بعد قمع التمرد الاخير . وقد رأينا جده عبيد الله من قبله ، يجد من الضروري انكار أي ضلع له في عملية الاختطاف انكارا علنيا . وقد تمكن المنصور ، باقناعه القرامطة ان يردوا الحجر ، من كسب قلوب المسلمين وجذبها نحوه ونحو سلالته . أما بالنسبة الى القرامطة ، فلم لا يرضون بالمبالغ الطائلة التي بذلت لهم بدلا من الاحتفاظ ، لمدة أطول ، بشيء يعدّ في نظرهم عديم القيمة ؟ يبدو ، على الاقل ، انهم استفدوه . ويذهب ابن الاثير (١٥) ، ومن بعده النويري (١٦) ، الى انهم ردّوه بلا

---

(١١) أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٦ . ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٠ . [ثابت بن سنان ، أخبار القرامطة ، ص ٥٧] .

(١٢) [المصدر نفسه ، ص ٥٧] . النويري ، نهاية الارب ، مخطوطة ليدن رقم 2 h ، ص ٢٥٢ . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(١٣) أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٦ . المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق دوزي ، ليدن ، ١٨٥٦ ، ج ١ ، ص ٦١٨ .

(١٤) كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ص ٢٥٧ ، ٤٦٣ . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٢٢ . البكري ، الممالك والمسالك ، ص ٣٥٦ . أما حمزة الاصفهاني (تاريخ ، ص ١٥٦) فيقول انه ردّ في العام ٣٢٩ ، وغيره يؤكد ان أبا طاهر رده ، ولكن هذين القولين لا أساس لهما من الصحة .

(١٥) الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٦٥ .

(١٦) النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٢ ، مخطوطة ليدن ، الموضع نفسه .

بدل . الا ان معظم المصادر تتحدث عن مبالغ ضخمة (١٧) ، وغيرها يعطي رقما (١٨) ، كما ان ياقوتا يذكر حتى اسم الرجل الذي توسط بين القرامطة وبين الخليفة (١٩) . وفضلا عن ذلك ، فقد اشترط القرامطة شروطا أخرى أيضا .

ويذهب المسبّحي (توفي سنة ٤٣٠) وغيره من المؤلفين (٢٠) الى اتهام القرامطة بكسر الحجر : « ... وعليه ضباب من فضة في طوله وعرضه تضبط شقوقا قد حدثت فيه بعد قلعه » . حتى ان ابن تغري بردي يخبرنا بأنهم فعلوا ذلك عمدا . وعلى الرغم من هذه الشهادات ، فاني أبيح لنفسي اعتبار التهمة باطلة . كان الحجر مكسورا منذ عهد بعيد ، وقد حدث ذلك ابان حريق المسجد ، أيام عبد الله بن الزبير . ويعطينا الازرقي تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع (٢١) . فقد تصدّع الحجر « وتفلّق بثلاث فلق » أمر ابن الزبير برأبها بحزام من الفضة ، ولكن كان ينقصه شظية احتفظ بها آل شيبة . حقا ان ابن جبير يصف الحجر وكأنه مؤلف من أربع قطع مجموعة سويا ، ولكن هذا الفرق يفسر بكلمات بوركهارت : « انه ذو شكل بيضوي ، مكون من حوالي اثنا عشر حجرا ذات أحجام وأشكال متفاوتة ملتصق

---

(١٧) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٢٢ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ . حمزة الاصفهاني ، ص ١٥٦ . أنظر كلمات القرمطي فيما يلي ص ص ١٥٧ – ١٥٨ .

(١٨) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، تحقيق وستنفلد ، ويسبادن ، ١٨٤٨ – ١٨٤٩ ، ص ٥١ . كتاب العيون ، ص ٢٥٨ : « خمسين ألف دينار » .

(١٩) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٣ . وهو أبو علي عمر بن يحيى العلوي نفسه ، وهو الذي باشر المفاوضات بين بغداد والقرامطة في العام ٣٢٧ . [أنظر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٦٤] .

(٢٠) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ . أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٦٦ . ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٦٧ .

(٢١) أخبار مكة ، ج ١ ، ص ص ٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ .

بعضها ببعض بالملاط والكل صقيل ناعم ، ويبعث مظهره على الظن انه قد فصم بضربة عنيفة الى عدة قطع ، ثم أعيد تجميعه من جديد » . بيد اني لا أحسب ان قد تعرض الحجر لضربات اخرى منذ ابن جبير . واضح اذن ان وصف الاخير للحجر ليس من الدقة بحيث يتيح لنا استنتاج النتائج ، وان الفرق بين روايته ورواية الازرقي يمكن فهمه بسهولة اذا قبلنا ان الثاني لم يلاحظ سوى ثلاث قطع من الاثنتي عشرة قطعة ، بينما رأى الاول أربعا . ولن نلومهما على تباين نظرتيهما اذا ما اعتبرنا انه لا يتسنى للحاج أكثر من برهة ليمرّ أمام الحجر بسبب الجموع المزدحمة والمتدافعة من حوله (٢٢) . الا ان هذه الملاحظة لا تنطبق على الازرقي الذي كان يسكن مكة ، ولعلنا نجد سبب مباينة وصفه لوصف بوركهارت في التلف الذي لحق الحجر في العام ٤١٤ (٢٣) . أما بالنسبة الى كون الحجر الذي ردّ هو الحجر نفسه الذي اختطف ، فيكفله وجود عدد كبير من الاشخاص الذين حضروا اعادته ، والذين لم يقم واحد منهم باثارة الشك حول أصالته ، وقد كان من بينهم أناس حضروا اختطافه أيضا (٢٤) . ترى ماذا كان بوسع الفقيه المسلم أن يرد على القرمطي الذي قال له (٢٥) : « عجبت من عقولكم ، بذلتم مالا كثيرا في هذا الحجر ، فما يؤمنكم انا ما امسكناه ورددنا اليكم غيره ؟ » .

لدينا تقرير هام عن العام ٣٣٦ ، نجده في « كتاب العيون » (٢٦) وعند ابن الاثير (٢٧) . لما قصد معزّ الدولة

---

(٢٢) Burton , Pilgrimage , III , P 210 .

(٢٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٤ . أو في العام ٤١٣ كما يقول البكري الذي يورد رواية شاهد عيان ، الممالك والمسالك ، ص ٣٥٧ .

(٢٤) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢٥) القزويني ، آثار البلاد ، ص ٥١ . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٢٥٨ . ان ما نجده في فوات الوفيات ، تحقيق د. احسان عباس ، ج ٢ ، ص ٦١ ، ليس سوى كلام مربك مليء بالاغاليط التاريخية .

(٢٦) ج ٤ ، ص ٤٥٦ .

(٢٧) الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥٢ .

البويهي البصرة لينتزعها من يد البريدي ، اختار طريق الصحراء ليقترب من المدينة . استاء القرامطة من ذلك ، وبعثوا له رسالة يحتجون فيها على سيره في الصحراء متنكرا لحقوقهم ، غير عابىء باذنهم . رد معز الدولة بلهجة شديدة قائلا : « ومن أنتم حتى تستأذنوا في سلوك البرية ، وكأني انا أقصد البصرة ، انما قصدي بلدكم واليكم بعد فتحي اياها ، وستعرفون خبركم » (٢٨) . يتبين من كتاب القرامطة ان حقوقهم على تلك الاراضي كان معترفا بها سابقا . ومن نص آخر لابن الاثير (٢٩) ، نميل الى الاستنتاج انه كانت لهم علاقات مع البويهيين ، ولن نستغرب ذلك اذا تذكرنا ميول البويهيين الى التشيع (٣٠) ، ولكن ، في الحالة التي نحن بصددها ، لم يتمكن معز الدولة ولا من خلفه من البويهيين ، من اخضاع عمران بن شاهين الذي اقتطع لنفسه امارة مستقلة في مستنقعات دجلة (٣٢) ، كما لم يستطع القرامطة دعم احتجاجهم بغزوة كما في أيام أبي طاهر . وفي العام ٣٤٠ (٣٣) أو ٣٤١ (٣٤) ساندوا أمير عمان في محاولته الاستيلاء على البصرة ، ولكن اضطرت قواتهم ، التي قادها أبو يعقوب يوسف ، أحد اخوة أبي طاهر ، الى الانسحاب من غير أن تحرز شيئا .

منذ ذلك الحين وحتى العام ٣٥٣ يسكت المؤرخون عن أخبار القرامطة سكوتا شبه تام ، وهذا يعني انهم لم يقوموا بأعمال عسكرية بارزة . ولكن نفوذهم واثرهم استرجعا سيرهما

---

(٢٨) [ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٦ ، ص ١١٢] .
(٢٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٧٢ . قارن أعلاه ص ١١٢ .
(٣٠) قارن ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ص ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ .
(٣١) المصدر نفسه ، ص ٣٦١ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ص ص ٣٦٩ ، ٤٢٤ وما بعدها ، ٤٥٠ .
(٣٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ . كتاب العيون ، ج ٤ ، ص ٤٦٥ .
(٣٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٧٢ .

صعودا . ويعطينا ابن حوقل (٣٥) عن هذه الفترة تفاصيل ، وان كانت لسوء الحظ مبهمة أحيانا ، تتيح لنا القاء نظرة على الاحوال الداخلية للقرامطة . ولكن بدلا مـــــن سرد أقواله ، سأحاول ، مستعينا ببعض المعلومات المستقاة من التـــاريخ وخصوصا من ملاحظات ناصر بن خسرو ، أن أرسم الخطـــوط العريضة لنظام حكومة تلك السلالة البارزة ولادارتها .

---

(٣٥) المسالك ، ص ص ٢١ ــ ٢٣ .

[illegible] البويهية ان حصولهم على تلك الاراضي كان [illegible] [illegible] نص آخر لابن الاثير (٢٩) ، نميل الى الاستنتاج [illegible] خلافات مع البويهيين ، وان [illegible] ذلك اذا تذكرنا ميول البويهيين الى التشيع (٣٠) ، وكذلك ، في الحالة التي [illegible] ، لم يشكل خطر الدولة ولا من خلفه [illegible] البويهيين [illegible] عمران بن شاهين الذي استطاع [illegible] [illegible] في [illegible] البطيحة (٣٢) ، كما لم يستطع [illegible] كما [illegible] ايام ابي طاهر [illegible] [illegible] (٣٤) [illegible] في محاولته [illegible] التي [illegible] اخوة ابي طاهر ، الى الانسحاب [illegible]

[illegible] العام ٣٥٢ يسكت المؤرخون عن [illegible] تام ، وهذا يعني انهم لم يقوموا [illegible] ، ولكن نفوذهم واثرهم استرجعا [illegible]

---

(٢٨) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ج ٦ ، ص ١١٢ .

(٢٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٧٢ ؛ [illegible] ص ١١٢ .

(٣٠) [illegible] ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ص ٣٤٤ ، ٤٠٧ ، ٤٢٥ ، ١١٢ ،

(٣١) [illegible] نفسه ، ص ١١٢ .

(٣٢) [illegible] نفسه ، ص ص ٣٦٥ ، ٣٢٢ [illegible] .

(٣٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ ؛ كتاب العيون ، [illegible]

٧ – البنية الداخلية للدولة القرمطية

لم يكن نظام الحكم القرمطي ملكيا على وجه الدقة . من المحتمل ان أبا سعيد لم يكن سوى « أول بين مثلاء » (Primus inter Pares). أما الاشخاص الذين أعانوه على بناء قوته والذين تربطهم به علاقات وثيقة سواء بالمصاهرة أو بالرسوخ في تعاليم الفرقة ، فقد عملوا دائما مستشارين له . وبينما سمّي أنصاره الآخرون بالمؤمنين (١) أطلق على هذه النخبة لقب العقدانية ، اي أهل الحل والعقد (٢) . كانوا يشكلون مجلس شيوخ يطلع ، تحت رئاسة أبي سعيد ، على الامور الاكثر أهمية ، ويضطلع بالمهام والمناصب الاساسية . ويبدو ان الحسن بن سنبر ، حما أبي سعيد ، وأبا طريف عدي بن محمد بن القمر ، الذي أسر سنة ٣٢٢ (٣) ، كانا الوزيرين الاولين . ويأتي في مرتبتهم كل من أبي الحسن علي بن أحمد بن بشر الحارثي وزير العدل والشرطة ، وثور بن ثور الكلابي الذي كان يشرف على اعداد السرايا التي كانت ترسل كل سنة في اتجاهات مختلفة ، وأبي الحسن علي بن عثمان الكلابي الذي كان يشغل منصب ادارة

(١) Guyard , S. , Frangments , P 102 .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٨ . وايـل ، عباسيين ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ ، حاشية .

(٣) أنظر الصفحة ١٠٨ أعلاه . ويتحدث كل من الهمذاني وابن الاثير ، في نص مذكور سابقا (ص ١١٥) عن وزراء القرامطة السبعة .

البريد الهامة جـــدا آنئذ ، وأبي الفتح محمود بن الحسين (٤) المعروف باسم كشاجم وزير الدولة ، وهو شاعر ذائع الصيت . بالاضافة الى ذلك نجد ابنه أبا نصر بن كشاجم الذي كان كـاتب الحسن الاعصم ، وأخيرا العديد من الاشخاص الذين نجهـل أسماءهم . كان من شأن ما تمتع به أبو طاهر من مزايا أن يضمن له تفوقا غير منازع فيه ، وأن يمنحه سلطان ملك مطلق ، ومـع ذلك فقد احتفظ بالبنى القديمة . ولقد بينا سابقا (٥) ، انـه قد حدثت فترة خلت فيها القيادة العليا ممن يتولاها بعد وفـاة أبي طاهر . وقد دامت تلك الفتـرة حتى ما بعد العام ٣٢٥ ، وخلال ذلك قام سعيد بمهام الرئاسة لانـه كان يستحيل علـى الامام ، حينئذ ، أن يهتم بشؤون المشرق . ويبدو أيضا ان احمد، الذي عينه المنصور ، لم يكن سوى أول بين مثلاء . ومما يجعل الامر أكثر احتمالا ان ابن حوقل يخبرنا انه كـان لأبناء أبي سعيد حقوق متساوية في شؤون الدفاع والقيـادة ، والعقد والحل ، وفي كل الامور المتعلقة بمداخيلهم ، بيد انهـم كانوا يتشاورون فيمن يعهد اليه بقيادة الحملات . ولكن الرجـل المسموع الكلمة في كل أمر ، كان أبا محمد سنبر ابن حمي أبي سعيد ، وهو الذي أعاد الحجر الاسود الى مكـة في العام ٣٣٩ . وكان أول من يستشار الرأي ، كما كانت أسرته تتمتع بمركز مرموق ، حتى انه عند اقتسام العائدات الخاصة بعائلة أبي سعيد ، كان أبو محمد يأخذ خمسها له ولاخوانه وأبنائـه . وقد ورث أبنـاء أبي طاهر السبعة شرف أبيهم ومكانتـه ، وخصوصا سابور ، الذي أدى مصرعه في العام ٣٥٨ ، الى عواقب كانت وخيمة على القرامطة ، كما سنرى فيما بعد . حتى الفترة التي وصلنا اليها، ما انفكت العقدانية تمتاز باتحاد بارز . ويعطينا ابن حوقل (٦)

---

(٤) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٢ ، ولكن هـذا المؤرخ يسميـه الحسين بن محمد ، وهذا خطأ . فالشاعر من سلالة سندي بن شاهك المعروف في أيام هارون الرشيد . انظر الفهرست ، ص ١٦٨ .

(٥) ص ١١٥ و ١١٦ .

(٦) المسالك ، ص ٢٢ .

مثالا على التفاهم التام السائد بينهم : « وكان من رسومهم ركوب مشائخهم وأولادهم فرادى ، فيجتمعون الى قبلة الاحساء ، بالمكان المعروف بالجرعاء (٧) ، ويلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم ، وينصرفون أفذاذا بغاية التواضع وقد لبسوا البياض لا غير » . ولعل ما أوردناه سابقا (٨) ، من الهمذاني وابن الاثير ، عن خروج أبي طاهر واخوانه الى الريف للتشاور ، ليس سوى ظل ضعيف لما كان يعرف عن مباريات الجرعاء .

كانت عائدات القرامطة ترد من مصادر متعددة ، وفي طليعتها ضريبة عقارات البحرين من ثمار الحقول والبساتين . البحرين بلد أخصب بكثير مما وصفه أبو سعيد في كتابه الى المعتضد ، فأرضه كانت في غاية الخصب في بعض المواضع وتثمر الكثير من التمر (٩) . وكما يضرب الانكليز مثل « الذي يحمل الفحم الى نيوكاسل » كذلك كان يقال ، في الشرق ، عن الذي يعمل ما لا طائل تحته انه : « كجالب التمر الى هجر » (١٠) . ويؤكد ابن حوقل ان هذه الضريبة كانت تصل الى ٣٠،٠٠٠ دينار سنويا . وفي المرتبة الثانية تأتي المكوس الثابتة على سواد الكوفة والبصرة ، وعلى طريق الحج . كما كانت رسوم المرور على السفن التي تبحر في الخليج تجبى من مركز المكوس في جزيرة أوال . وأخيرا تأتي الضرائب السنوية من عمان ومن الحجاج ، عدا عن الغنائم النفيسة التي كانت تؤوب بها سراياهم وعائدات الجزية المفروضة على البدو ، وحصة حكام الاحساء من صيد اللؤلؤ في

---

(٧) Sprenger , Die Alte Geographie Arabiens als Grundlage der Entwicklungs geschichte des Semitismus , Bern , 1875 , P P 132 , 135 .

(٨) ص ١١٥ .

(٩) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٢ . ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٤ . البكري ، المسالك والممالك ، ص ٣٢٥ .

(١٠) أو كمبضع تمر الى هجر . قارن ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ج ٣ ، ص ٧٧٤ .

بحر البحرين (١١) . أما عن قسمة هذه العائدات فيعطينا ابن حوقل تفاصيل لا تتصف بالضبط والدقة . كان على جميع المؤمنين أن يؤدوا خمس عائداتهم للامام صاحب الزمان ، وقد استمروا على هذه الحال فيما بعد . كان هذا المال يدفع في الاحساء الى خزينة خاصة ، تسمى « خزانة المهدي » (١٢) ، وتديرها ادارة خاصة . وكان جزء معلوم من الباقي ، أو بالاحرى وارد بعض العائدات المعلومة ، يخصص لكبار المؤمنين ، أي للعقدانية . أما بعض المداخيل الاخرى ، وعلى ما يبدو ، جزية البصرة والكوفة وعمان وحاصل خفارة الحجاج وقسم هام من غنائم الحرب فكانت من نصيب آل أبي سعيد وآل سنبر . ويقول ابن حوقل ان مجموع هذه العائدات ، مطروح منها خمس الامام ، كان يقدّر بمليون الى ١٠٢٠،٠٠٠ دينار . وكانت ثمة قواعد ثابتة تحكم توزيع الاخماس الثلاثة على آل أبي سعيد الذين كانوا يعدّون ثلاثمائة شخص . واذا ما احتيج البدو للنجدة في الملمات الطارئة ، فانهم كانوا يحصلون بالطبع على قسم لا بأس به من الغنائم ، كما رأينا أثناء الحديث عن الازهري .

لا نعلم ما كان مقدار مساهمة آل أبي سعيد وآل سنبر في مصاريف الدولة والحرب مما كان يؤول لهم من العائدات ، ولا أية مداخيل كانت تخصص لهذين الفرضين . ولكن يبدو لي ان بامكاننا الاستدلال ، من توزيع العائدات نفسه ، على ان القرامطة البارزين كانوا يمتلكون ممتلكات خاصة ، وبالتالي ، ان الشيوعية التي بشّر بها حمدان قرمط في العراق ، ومن بعده (١٣) أبو سعيد في جنّابة ، لم تدخل الى البحرين ، أو انها لم تضرب

(١١) قارن ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٤ . ابن بطوطة ، رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ . الادريسي ، [نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تحقيق تشرولي غبريالي ، ليفي دلافيدا ، وغيرهم ، Instituto Universitario Orientale نابولي ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ، المستلة الرابعة ، ص ص ٣٨٧ ـ ٣٩١] .

(١٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٤ .

(١٣) [في النص الفرنسي « من قبله » وهو خطأ مطبعي ظاهر] .

هناك جذورا عميقة . ومع ذلك فقد بقيت في الـدولة القرمطية عدة مؤسسات شيوعية حتى زمن ناصر بن خسرو . وهاكم مـا يرويه لنا هذا الرحّالة (١٤) : « وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي ، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين . وهم لا يأخذون عشورا من الرعية ، واذا افتقر انسان أو استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمـله ، واذا كـان لاحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له . وكل غريب ينزل هـذه المدينة [الاحساء] وله صناعة ، يعطى ما يكفيـه من المال حتى يشتري ما يلزم لصناعته من عـدد وآلات ويرد [الى الحكام] ما أخذ حين يشاء . واذا تخرّب بيت ، أو طاحون أحد الملاك ، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح ، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون ، ولا يطلبون من المالك شيئا . وفي الاحساء مطاحن مملوكـة للسلطان ، تطحن الحبوب للرعية مجانا ويدفع السلطان نفقات اصلاحها وأجور الطحانين » .

وثمة نتيجة أخرى تلزم عن هذه المبادىء ، وهي استعمال العملة الرصاصية في التعامل اليومي . كانت المبالغ الضخمة تدفع في قفاف تحتوي على وزن معلوم من الرصاص . هذا على الاقل ما فهمته من نص ناصر بن خسرو (١٥) المبهم التالي : « والبيـع والشراء والعطاء والاخذ يتم هناك بواسطة رصاص في زنابيل يزن كل منها ستة آلاف درهم ، فيدفـع الثمن عددا من الزنابيل ، وهذه العملة لا تسري في الخارج » .

في المهمات الخطيرة ، كان جميـع أعضاء مجلس العقدانية يسيرون معا . أنظر مثلا ما يرويه ابن حوقل عن حملة القرامطة على عمان . انها تلك التي سيّرها أبو علي ، الذي عرف فيما بعد بالحسن الاعصم والتي باءت جهوده فيهـا بالفشل . نجهل متى حدثت هذه الحملة لان تاريخ عمان غير معروف لنا الا بصـورة

---

(١٤) سفر نامه ، ص ٩٣ .

(١٥) سفر نامه ، ص ٩٣ .

سطحية . يقول ابن خلدون (١٦) ان القرامطة ما انفكوا يبذلون كل جهد لتدعيم سيطرتهم على عمان ، منذ فتحها على يد أبي طاهر في العام ٣١٨ (١٧) وحتى العام ٣٧٥ . ونعلم ، من جهة ثانية ، انه قد قام أمير مستقل في تلك البلاد (١٨) في العام ٣٣١ و ٣٤١ ، ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون تابعا لهم بصورة من الصور . وحين كان القرامطة يقررون القيام بحملة ضخمة من هذا النوع ، فقد كانوا يتركون في البحرين الشخص الاجدر بالثقة ، ويولونه أمر الحكم وتدبيره . أما بقية المجلس العقداني فكان يسير الى الحرب ، ولم يكن أي أحد يحاول التخلف عن حملة عسيرة في الغالب وخطيرة ، وعندئذ كانوا لا يقهرون . لقد ذكرت سابقا ما قاله ابن تغري بردي (١٩) متحدثا عن عدد من مآثرهم العسكرية ، ولا حاجة بي لاعادته هنا . كان اسم القرامطة ينشر الهلع حتى ليشل سكان المدن ويقعد المسافرين في القوافل الى درجة انهم قلما كانوا يجرؤون على الدفاع ، وغالبا ما كانوا يستسلمون للسلب كالنساء بلا مقاومة .

---

(١٦) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٣ .
(١٧) أنظر أعلاه ، ص ١٠٠ .
(١٨) أنظر أعلاه ص ١١٢ و ١٢٠ .
(١٩) أنظر أعلاه ص ٨٧ . ابن تغري ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

٨ — الديانة القرمطية

انه لما يؤسف له ألا يخبرنا ابن حوقل شيئا عن القرامطة من حيث هم فرقة دينية . لذلك نرانا مجبرين على اللجوء الى بعض الملاحظات المتناثرة ، والى ما نعلمه عن فروع قرمطية أو اسماعيلية أخرى في محاولتنا الوقوف على مذهبهم . بيد اننا ، لسوء الحظ ، ملزمون باستقاء معلوماتنا كلها تقريبا من ألدّ أعدائهم . كما ان ثمة روايات نجدنا مضطرين الى ردها من أول نظرة . وفي هذا الصنف يقع ما يقوله فيهم المفتري الورع ، ابن سعدون ، والذي نجد نتفا منه عند ابن عذاري (١) . كيف نثق بكلام رجل يدّعي الاطّلاع على خفايا أمرهم بينما يجهل ما هو بيّن تماما ؟ فأبو سعيد ، عنده ، يدعى أبو عبيد . ويروي لنا ان الحجر الاسود بعث الى عبيد الله ، وان عبيد الله (لنلاحظ هذا الامر) مات بعيد ذلك بأيام ، وان الارض ظلت تلفظ جثته ، كلما دفن ، حتى أعاد ابنه (كذا) الحجر الى مكانه . أرى من الثابت ان ما يسمى « ليلة الامام » (٢) لم يكن معروفا عند القرامطة وان الامر من اختلاق أعدائهم . كذلك لا أعتقد ان بالامكان أن ننسب

---

(١) البيان المغرب ، ج ١ ، ص ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٢) ابن سعدون ، المصدر نفسه . دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٩٠ . ويقول ابن الجوزي : « ولا يجوز لاحدهم أن يحجب امرأته عن اخوانه » المنتظم ، ج ٥ ، ص ١١٩ . ويعلق دي خويه على ذلك مجوزا أن يكون سفور نساء القرامطة سببا للاتهامات التي كيلت ضدهم .

اليهم [التشريق] (٣) المخجل ، ولو انه لا يمكن انكار كون أحد المتحمسين الاغبياء قد بشّر بذلك في نواحي افريقية الغربية . ويستحيل عليّ أن أتصور كيف يمكن لدولة قائمة على مبادىء أخلاقية مماثلة ، أن تتقوى وتستمر في عنفوانها لمدة من الزمن متطاولة . أضف الى ذلك ان ابن حوقل ، خير من يعرف القرامطة ، لا يعلم عن ذلك شيئا ، بل على العكس يتكلم عنهم باحترام (٤) . ومن ذلك ان ناصر بن خسرو الذي زارهم في العام ٤٤٣ لا يذكرهم الا بالخير . وينبغي ألا ننسى أبدا ان القرمطي كان موضوع مقت المسلم التقي ، وانه كان يظن أحيانا ان ما من شيء أرضى لله وللملوك من اظهار أعداء الدين والدولة بأبشع الالوان وأحلكها . لذلك أراني مبررا تماما في اعتقادي ان الاتهام الاقل غلوا من جميع الاتهامات التي وجهت الى القرامطة ، هو الاحرى والاقرب لاحتواء الحقيقة ، ولا سيما انه يأتي في سياق هجاء لاذع ، قيل في أحد قادة القرامطة في اليمن . وسأستعيره من تاريخ اليمن للخزرجي (٥) :

خذي الدف يا هذه واضربي
وغنّي هزاريك ثم اطربي

تولّى نبي بني هاشم
وهذا نبي بني يعرب

---

(٣) [وهو أن يدخل الرجل الى « حليلة جاره فيطأها وزوجها حاضر ينظر اليه ، ثم يخرج ، فيبصق في وجهه ، ويصفع قفاه ، ويقول له : تصبر ، فاذا صبر عد كامل الايمان وأسمي من الصابرة » ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٨٥] .

(٤) باستثناء أبي طاهر بالطبع .

(٥) [تاريخ الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها في الاسلام] ، مخطوطة ليدن رقم ٣٠٢ ، ص ٣٣ وما بعدها . [الفخري ، تلقيح البيان ، مخطوطة ليدن رقم ١٤٥ ، ورقة ٣٣ ظ . الشهرستاني ، الملل والنحل، ج ١ ، ص ٣٢٥ (حاشية) . أخبار القرامطة باليمن للقاضي البهاء الجندي ، في تاريخ اليمن لنجم الدين عمارة ، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٦٩] .

لكـل نبيّ مضـى شرعـة
وهذي شريعـة هـذا النبـي

فقـد حطّ عنّا فروض الصلاة
وحطّ الصيـام ولـم يتعـب

اذا الناس صلّوا فـلا تنهضي
وان صوّموا فكـلي واشربـي

ولا تطلبـي السعي عند الصفا
ولا زورة القبـر فـي يثـرب

ولا تمنعـي نفسك المعرسيـن
مـن الاقربيـن أو الاجنبـي

فلم ذا حللت لهـذا الفـريب
وصرت محرّمـة لـلأب

أليس الغـراس لمـن ربّه
وأسقـاه فـي الزمـن المجـدب

وما الخمـر الا كمـاء السمـاء
حـلال فقدّست من مـذهبي

وصلّ الهـي عـلى أحمـد
واخزِ الفويسق مـن يعـرب

وحرّم عليـه جنـان النعيـم
فقـد باح بالكفر لم يرقب .

كان على تهجّم عبد الله بن ميمون على العرب وتحامله على الاسلام أن يخضعا لبعض التعـديل في البحرين . فهناك كان العرب بالذات هم أنصار الفرقة وأبطـالها . واننا لنجد أعظم المقامات فيها يشغلها رجال من العرب الاقحاح ، الذين لم يطّلعوا، بالطبع ، الا على الهدف الثانوي . لذلك تركزت الجهود جميعها على هدف واحد قبل كل شيء . نسف الخلافة والقضاء عليهـا

وعلى الاسلام المزيف الذي تقوم عليه ، اغراء أتباعـه بالارتداد أو ابادتهم . تلك كانت الغاية التي كان قرامطـــة البحرين يصبون اليها . كانوا خارج الاسلام تماما ، ولئن لم يقوموا بأداء فرائض هذا الدين وشعائره ، أو علّموا ان الصـــلاة والصيام والحج نوافل لا حاجة لعباد الله الحقيقيين بها ، وكسبوا بهذه الطريقـة قلوب البدو واستمالوا منهم أنصارا كثيرين ، فهذه كلها أشيـاء للمسلم الورع أن يدينها من وجهة نظره ، أما نحن فلا يحق لنا أن نفعل كذلك . ان ما لا خلاف فيه هو ان مذهبهم كان خطيرا وأدى الى عواقب مؤسفة على يد الاقوام الافظاظ الذين بشّروا به ، ولا خلاف أيضا في انهم تسببوا بامّحاء الاثر الضعيف الـذي تركه الاسلام في البدو ، وسقوط هـــذا الكابح الفعال للبربريـــة القديمة (٦) . ولكن مهما كان شيطانيا مخطط ابن القداح مؤسس فرقتهم ، فانني مقتنع تماما بأن القرامطة ، وخصوصا قرامطة البحرين ، كانوا يعملون بوجدان الـذي يخدم قضيــة عادلـة . وسأضرب على ذلك مثلا واحـدا (٧) . لما اقترب أبو طاهر مـن بغـــداد في العام ٣١٥ نمي الى علي بن عيسى الوزير ان في العاصمة رجلا من شيراز يزوّد أبا طاهر بالاخبار . فاستدعاه علي بين يديه ، فما كان من الرجل الا أن اعترف وقال : « ما عرفت أبا طاهر لكن صحّ عندي مذهبه وانه حق ، وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ، ولا بد لله من حجـــة في أرضه وامامنا المهدي محمد (٨) بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب » . فلما عذله الوزير على اتصالاتـه

---

(٦) قارن ناصر بن خسرو ، سفر نامه ، ص ٩٥ .
Burton, Pilgrimage III , PP 113, 119 - 120 ; Dozy, Islamisme, P 9

(٧) الهمذاني ، تكمـــلة ، ص ٥٥ . ابن الجوزي ، المنتظـــم ، ج ٦ ، ص ص ٢٠٩ — ٢١٠ . ابن الاثير ، الكـــامل ، ج ٨ ، ص ١٢٧ . [ابن سنان ، تاريخ أخبار القرامطة ، ص ٥٠] .

(٨) كان عبيد الله يتسمى بمحمد بصفته المهدي . انظر جدول الانساب في : وستنفلد ، فاطميين ، ص ١٣ . ومن الجائز أن يكون عبيد الله اعتبـر ابنه محمدا القائم صاحب الزمان .

ببعض الجند وسأله أسماء أهل شيعته منهم ، أجابه القرمطي : « وأنت بهـــذا العقل ، كيف أسلّم ناسا مؤمنين لقوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك أبدا » . كما تحملنا أشعار أبي طاهر على حكم مماثل . كان ينـــوي ابادة هؤلاء الحمير المشركين عن بكرة أبيهم ، وكان يحدوه شعور بأن عيسى ابن مريم سيبارك همتـه عند مجيئه العتيد .

هذه الكلمات الاخيرة تستحق الملاحظـة . بينما توحي التفاصيل الطريفة التي يعطيها الشريف أخو محسن (٩) بأن غاية نظام ابن القداح ليست سوى نوع من عبـادة العقل ، نجد أبيات أبي طاهر مشبعة بالحماس الـــديني . مهما استهجنا تصوّر أبي طاهر للذي سيأتي ، فمن الواضح انه كان ممتلئا من انتظاره . قد يبدو غريبا أن يدعو هذا المسيح باسم عيسى بن مريم . ولكن ، في رأي محمد ، كان عيسى نبيا حقيقيا ، وكل المسلمين الاتقياء يؤمنون بأن عيسى سيأتي في منتهى الدهر ليدين البشر ، حتـى غدت عبارة « الى مجيء عيسى بن مريم » مرادفة لعبارة « الـى يوم القيامة » (١٠) . ينبغي ألا نفكر اذن بتأثيرات مسيحية عندما نجد القرامطة يستعملون هذه العبارة . علمنا ان أبا سعيد كان مسلما في بداية أمره . وعلى الاقـــل يخبرنا الاصطخري (١١) وابن حوقل (١٢) ان عم أبي طاهر ، أخا أبيه ، سجن في شيراز هو وعائلته ، أيام أبي طاهر ، لان الحكام اشتبهوا بهم أن يكونوا من أتباع الفرقة ، ولكن ثبتت فيما بعد براءتهم وأخلي سبيلهم : ان الالفاظ التي يستعملها هذان المؤرخان تثبت ان أهل أبي سعيد مسلمون . اذن كيف نوفق بين هذه العبارة في قصيدة أبي طاهر

---

(٩) دي ساسي ، دروز ، ، مقدمة ، ص ١٣٣ وما بعدها. [المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ص ٢٨] .

(١٠) مثلا الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٤٠ . قارن :
Snouck Hurgronje, Der Mahdi, tirage à part de la Revue Coloniale Internationale, Dec. 1885 , P 7 et sq.

(١١) مسالك ، ص ١٥٠ .

(١٢) كتاب المسالك ، ص ٢١١ .

وبين مذهب ابن القداح ؟ في هذا النظام أيضا اعترف بعيسى نبيا ، ولكن الاشخاص الذين وصلوا الى أعلى مراتب السلوك كانوا يقصدون بذلك داعيا الى فرائض شرعية وسياسية كما يذكر أخو محسن (١٣) . حقا كان ابن القداح يعلّم ان ثمة ظهورا آخر (ولم يطّلع على المغزى الروحي لهذا الكلام الا ذوي المراتب العليا (١٤)) ولكنه ظهور محمد بن اسماعيل العلوي . ومع ان أخا محسن (١٥) يقول ان الفرقة تشعبت ، فيما بعد ، الى شعب عديدة ، تتباين مذاهبها بعض التباين ، الا انني غير مقتنع بأن قرامطة البحرين قد انحرفوا كثيرا عن غيرهم في موضوع أساسي كهذا . ينبغي اذن أن نقبل بكون المذهب القرمطي قد احتوى العقيدة ، التي طوّرها الدروز فيما بعد ، القائلة « ان الالوهة ، أو بالاحرى تجلياتها المسماة بالعقل الكلّي والنفس الكلّية (١٦) قد تكشفت للبشر مرات عديدة » (١٧) . رأينا سابقا، في الاستجواب الذي أجراه المعتضد (١٨) لاحد قادة القرامطة المسمى بابن أبي الفوارس ، ان القرامطة كانوا متهمين باتباع هذا المذهب . ويترتب على ذلك ، وهذا أمر طبيعي ، ان القرامطة لم يصلوا الى أعلى مراتب السلوك التي يفسر فيها مجيء محمد بن اسماعيل تفسيرا روحيا .

أما مذهب الدروز ، فلا بأس في عرضه هنا عرضا وجيزا . فهم يقولون ان الطبيعة الحقيقية للالوهة لا يمكن فهمها الا عن طريق صورة ، وليس في واقعها وفي ماهيتها . بيد انه نظرا لرفق الالوهة ورحمتها للبشر ، فهي ترينا الحجاب الذي يحجبها والمكان الذي تتكلم منه ، لكي تمكننا من عبادتها عبادة كائن يشاهَد ويفهم . ان هذا الحجاب وهذا المكان اللذين يقعان تحت معاينتنا،

---

(١٣) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٣٥ .

(١٤) المرجع نفسه ، ص ص ١٣٦ ، ١٥٧ .

(١٥) المرجع نفسه ، ص ١٣٧ وما بعدها .

(١٦) Guyard , S. , Journal Asiatique , 1877 , I , P 328 .

(١٧) دي ساسي ، دروز ، ج ١ ، ص ١ .

(١٨) ص ٣٢ .

يسمعان كلامنا ويسمعاننا كلامهما ، يستحقان منا الاجلال والعبادة لمدى الاجيال (١٩) . (الحجاب والمكان هما الشكل الانساني الذي تتخذه الالوهة) . منذ جيل آدم وحتى نهاية عهد مذهب محمد ، لم يحصل وحي جديد (٢٠) ، والتجسد الثاني لم يحصل الا في زمن محمد بن اسماعيل (٢١) . ان التجليات التالية لذلك تأخذ غالبا مظهر الخلفاء الفاطميين ، وقد ظهر التجلي الاخير والاعظم في شخص الحاكم بأمر الله الفاطمي . ان هذه الحجب المتعددة لا تختلف الا في الاسم والرسم ، أما في الواقع فهي واحدة ، ولذلك حق لنا اجلال الالوهة في كل واحد منها (٢٢) .

استمد نظام الدروز من نظام القرامطة أو الاسماعيليين ، أي من ابن القداح . وقد طبقه كل من حمزة والحاكم تطبيقا مختلفا كما فعل من بعدهم سنان امام الحشاشين (٢٣) ، ولكن قاعدة النظامين كانت هي ذاتها . وهذا ما أعتقده : يقول أخو محسن (٢٤) ان ابن القداح علّم ان ثمة سبعة أنبياء ناطقين هم : آدم ، ونوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، ومحمد بن اسماعيل . وقد علّم كل منهم شريعة تنسخ سابقاتها . ان آخرهم ، محمد بن اسماعيل ، هو أكملهم وهو الذي نشر المذهب الذي سيملأ العالم بأسره ، وهو الذي يرتقب رجوعه المجيد . أرى ان هؤلاء الناطقين السبعة يمثلون التجسيدات الالهية (٢٥) السبعة (٢٦) . والمفروض أن تكون الانسانية قد مرّت في تطورها عبر سبعة أدوار ، وفي نهاية الدور السابع الذي بدأ بتجسد الالوهة في محمد بن اسماعيل ، سيشاهد

---

(١٩) دي ساسي ، دروز ، ج ١ ، ص ١٧ .
(٢٠) المرجع نفسه ، ص ٣١ .
(٢١) المرجع نفسه ، ص ص ٣١ ، ٣٤ .
(٢٢) المرجع نفسه ، ص ٤٠ وما بعدها .
(٢٣) قارن : Guyard, Fragments, PP 13 , 101 ; Un grand - maître des Assassns, Journal Asiatique, 1877 , I , 363 .
(٢٤) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ١٠٣ – ١٠٩ .
(٢٥) المرجع نفسه ، ص ص ١١٣ – ١١٥ .
(٢٦) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

ظهور أخير وهو عودة محمد بن اسماعيل . وقد استعاض الدروز عن هذه التجسدات بأخرى ، ولكنهم استبقوا الناطقين السبعة كذكريات قديمة ، ولو انها لا تتسق تماما مع بقية نظامهم (٢٧) .

ان كنت أصبت في رأيي ، فقد ذللت الصعوبة التي تمثلها أبيات أبي طاهر ، وتلك التي في القصيدة التي ينسبها ابن الاثير خطأ الى الشاعر المشهور ابن هاني ، والتي تدور حول دخول عبيد الله الى رقادة (٢٨) . لا فرق بأي من الاسماء نخاطب الالوهة ، لان الاشخاص السبعة ليسوا في الحقيقة الا واحدا ، مع اختلاف يسير في الاسم والرسم . وهذا يفسر أيضا تصرف الحاكم بأمر الله (٢٩) وولادة فرقة الدروز . كان الخلفاء الفاطميون الخمسة الأول أوفر اطلاعا على مجريات الامور السياسية وأذكى من ادعاء كونهم تجسيدات للالوهة الا أمام أتباعهم المخلصين ، وهذا ما نقف عليه في كتاب من المعزّ لدين الله الى القرامطة (٣٠) ، وان مع بعض التعديلات الهامة (٣١) . بل انهم على العكس من ذلك ، كانوا يعاقبون أو يقمعون الغلاة – وكانوا كثرا (٣٢) – الذين كانوا يخفون لتعظيمهم التعظيم المستحق للالوهة وحدها . الا ان الحاكم كان من الطيش بحيث لم يقاوم اغراء إعلان كونه الله حقا . ولكل ناطق ، في مذهبهم ، معاون هو الاساس الذي يتلقى الوحي منه ويخلفه بعد موته ،

---

(٢٧) دي ساسي ، دروز ، ج ١ ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٥٧ . ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٢٩) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٤٣١ وما بعدها .

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ٤٣١ وما بعدها . [اتعاظ الحنفاء ، ص ص ٢٥١ – ٢٦٥] .

(٣١) Guyard, Journal Asiatique, 1877 , I , P 337 .

(٣٢) فيما يخص عبيد الله أنظر ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ص ١٦٠ ، ١٨٤ ، ١٨٦ وما بعدها . وستنفلد ، فاطميين، ص ٦٠ .

ينشر رسالته ويكشف معناها للسالكين (٣٣) ، وهو الامام يليه ستة أئمة بالتتالي ، وبعد هذا الدور يظهر ناطق جديد ، أي يحدث تجسد جديد . شيت كان أساسا لآدم ، وسام لنوح ، واسماعيل لابراهيم ، وهارون لموسى (وكان آخر امام في هذا الدور يوحنا المعمدان) ، وبطرس للمسيح عيسى بن مريم ، وعلي لمحمد . أما خلفاء علي فهم : الحسن ، فالحسين ، فعلي بن الحسين ، فمحمد بن علي ، فجعفر الصادق ، فابنه اساعميل .
وأما أساس محمد بن اسماعيل فهو عبد الله بن ميمون القداح ، يليه ابنه أحمد الذي خلفه الائمة الخلفاء الفاطميون (٣٤) . ولما كان والد الحاكم يتمم سلسلة الائمة السبعة (٣٥) ، وكان موته يختم هذا الدور ، فربما وجد الحاكم في ذلك ذريعة حاسمة ليعلن نفسه ناطقا جديدا . ـ والنظرية ذاتها تنطبق على التصور الذي كونوه عن الله . فالكائن المحجوب المعدوم الصفات (٣٦) قد ولد الالوهة (العقل الكلي) التي تظهر في الناطق ، والتي يحق للناس ويجب عليهم طاعتها ، والناطق خلق معاونه (النفس الكلية) التي تظهر في الاساس . فالامام والحجة ، الذي يأتي بعد الامام مباشرة والمكلف باعطاء الادلة على رسالة الناطق ، وأخيرا الداعي (٣٧) يوازون تجليات النفس الكلية في المادة الاولى

---

(٣٣) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٠٤ وما بعدها .
Guyard , Loc. cit , PP 327 , 331 ;
الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٣٢٧ . المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(٣٤) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٣٣٣ وما بعدها . دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ٢٢٦ ـ ٢٥٢ وما بعدها .

(٣٥) كان المعز امام هذا الدور كما يتبين من قول التميمي النسابة ، قارن دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٨٥ .
Guyard, Journal Asiatique, 1877 , I , PP336 , 170

(٣٦) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٣٣٦ . وعما يلي قارن :
Guyard , Loc. cit. , P 328 , et Fragments , P 188 .

(٣٧) Guyard , Fragments , P 146 .

والمكان والزمان (٣٨) ، أي ان الارضيين الثلاثة يشاركون ، وان بدرجة أقل ، في الطبيعة الالهية . لنلاحظ الى أي مدى ينم كل شيء في هذا المذهب عن أصله الفارسي . عندما كتبت عن مذهب القرامطة للمرة الاولى ، لم يكن هذا المذهب يعرف الا من شهادة أخي محسن التي يوردها دي ساسي ، ومما كان يمكن استنباطه من مذهب الدروز ، ولكن منذ ذلك الحين ، وبفضل ساليزبوري (٣٩) وغيار (٤٠) ، أصبحنا نملك عن مذهب اسماعيلي فارس وثائق نفيسة أتاحت لنا معرفته بدقة أكبر . وقد حصلت مكتبة جامعة ليدن ، حديثا ، على كتاب هام (٤١) منسوب الى جعفر ، زعيم قرامطة اليمن (منصور اليمن) ، يعالج قضية التأويل الباطني للزكاة . وتأتي أهمية المعلومات الجديدة عن عقائد القرامطة ، المحتواة في هذا الكتاب من كونه قد ألف في الجزيرة العربية نفسها . ويبدو انه يرقى الى زمن المعز لدين الله (٤٢) كغيره من الوثائق العديدة المنشورة في كتاب غيار ، ويؤكد ما قدمناه سابقا . « فكل امام في زمانه هو اسم الله في أهل عصره ، وطاعتهم له وجه لعبادة الله . فمن عرف امام زمانه وأخذ عهده ، وسلم له في جميع أمره ، وعرف حدوده فأقر بها وأدى لكل ذي حق حقه ، ولم يلحد فيه فقد عرف الله بحقيقة المعرفة ووحده من وجد توحيده » (ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨) . والاختلافات التي تميز هذا النظام عن مذهب الدروز ليست كثيرة . فمحمد بن اسماعيل هو الامام السابع منذ الحسن بن علي كما نقرأ في هذا الكتاب (ص ٣٦٥) ، وهذا موافق لنظرية العديد من الاسماعيلية (٤٣) . أما علي فلا يعد اماما ، بل هو الاساس ،

---

(٣٨) حول أصل نظرية التجليات أنظر : Guyard , Fragments , P 165 .

(٣٩) Journal of the American Oriental Society , II , 300 et sq.

(٤٠) Fragments , op. cit.

(٤١) [كتاب تأويل الزكاة] ، مخطوط ليدن رقم (١) ٢٦١٣ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ورقة ٢١٣ . قارن « الفهرست » ص ١٨٩ .

(٤٣) Guyard , Fragments , P160 note 5 ; comp. Defrémery , C. Histoire des Ismaéliens de la Perse , Journal Asiatique, 1856 , II , P 367 .

والباب ، والقرآن الجليل ، حامل المذهب الصحيح الابدي الثابت الذي يظهر بمظاهر مختلفة (أي الاديان) . والائمة السبعة الذين يعقبونه هم التجليات السبع الجديدة [السبع المثاني] (٤٤) . أما ابن محمد بن اسماعيل ، أول الائمة المستورين، فهو في الوقت عينه أول أئمة السلسلة الثانية التي تتم بالمعزّ لدين الله (ص ٢١٣) . وهذا يتفق كليا والنظام المعروض في كتاب « دستور المنجمين » (٤٥) ، الذي يقول ان ثمة أئمة ثلاثة مستورين بعد محمد بن اسماعيل . ولكن لما كان « الدور النوراني » يبدأ بظهور المهدي (عبيد الله) ، فان المعزّ هو رابع أئمة هذا الدور الهام (٤٦) . وهنا أيضا يبدو الانتقال الى مذهب الدروز سهلا ، ولا سيما انه الروح الالهي نفسه الذي يتجلى بتجليات مختلفة (٤٧) .

ويؤكد هذا الكتاب [تأويل الزكاة] أيضا أشياء عديدة أخرى كنا نعلمها عن مذهب القرامطة . ليست تعاليم القرآن كلها الا صورا للحضّ على طاعة الامام طاعة تامة . ويعتبر الكتاب عقيدة حشر الاجساد مضحكة (ص ٤٠١) ، والحياة الابدية ليست سوى عودة الروح الى مبدئها [أنظر الملحق ٨] ، كما انه يجب تفسير يوم الدين تفسيرا روحيا [أنظر الملحق ٨] . المؤمنون الحقيقيون هم أولئك الذين يأوّلون الوحي الالهي على هذا النحو، وأما الذين يأخذون القرآن والسنّة على ظاهرهما الحرفي فلا يستحقون أن يسمّوا مسلمين ، بل هم حمير كافرون (ص ص ١٣٠ ، ١٤٣) . أما الشيعة فقد « حاموا حول المعنى » ، الا ان تأويلهم الرمزي ليس صحيحا بعد ، وان كان محمودا (ص ص ٣١٤ ، ٣١٦) .

انه لمن المرغوب فيه جدا أن يحقق هذا الكتاب وينشر لانه ،

---

(٤٤) Sprenger, Mohammed, III , P XXI et sq.

(٤٥) أنظر الملحق ٢ .

(٤٦) « سابع أسبوعين ورابع أربعة » ، ص ٢١٣ .

(٤٧) قارن : Guyard , J. A. , 1877 , I , P337

بالاضافة الى النصوص التي نشرها غيار وساليزبوري ، يساهم كثيرا في معرفة مذهب الفاطميين ، المماثل في جملته لمذهب القرامطة وغيرهم من الاسماعيليين . وينبغي أيضا أن نقدّر ما قدمه لنا هرمان اتي عن تحول ناصر بن خسرو الى العقيدة الفاطمية بين العام ٤٣٧ والعام ٤٤٤ حين اعترف بالخليفة الفاطمي المستنصر اماما (٤٨) . وقد تؤدي دراسة ديوان ابن هاني (المتوفي في ٣٦٢) ، الشاعر الاندلسي الكبير الذي تحول الى الاسماعيلية في زمن المعزّ لدين الله (٤٩) ، الى القاء بعض الاضواء على المسائل الصميمية في المذهب ، وأن يفسر لنا ما كان لهذه الدعوة من اغراء كبير للرجال ذوي العقول الراجحة ، كما يتبين من المقتطفات التي نشرها فون كريمر (٥٠) . بيد اننا يجب الا ننسى ان تمحيص هذه المصادر لن يثمر لموضوعنا النتائج الدقيقة المرجوة ، لان المريدين كانوا يقسمون اليمين بعدم البوح بأسرار المذهب (٥١) .

ولكن لنعد الآن الى قرامطة البحرين . ليس من المحتمل أن يكونوا قد تعمقوا كثيرا في نظريات دينهم . لقد أخلصوا في ايمانهم بالظهور الاخير المجيد للالوهة في نهاية الدور النهائي الاعلى ، حتى ان أبا طاهر كان يفتخر بأمل مشاهدة مجيء المصطفى . كما كانوا يعتقدون ان الخلفاء الفاطميين هم الائمة الحقيقيون ، ودانوا لهم بطاعة لا حدود لها . ولست بعدما ذكرت

---

(٤٨) Herman Ethé , « Nasir bin Khusraus Leben, Denken und Dichten » , in Les Actes du 6 ème Congrès des Orientalistes à Leide Sect. Sém. , PP 169 - 237 .

(٤٩) قارن ديوان ابن هاني ، بيروت ، ١٩٦٤ ، [مثلا ص ص ١٢ ، ٢٤ ، ٩١ وخصوصا ١٤٦] .

(٥٠) Von Kremer , A. , [Ueber den Shî'itischen Dichter Abu - l Kâsim Mohammed ibn Hâni , Z.D.M.G. , 24 , 1870, P 481] .

(٥١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٨ . المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

بحاجة للتدليل على ايمان أبي طاهر ، أما عن ايمان سائر القرامطة فان كتاب المعزّ وشهادة الدروز (٥٢) تكفيان مؤونة ذلك (٥٣) . ويبين لنا ابن حوقل انهم كانوا يدفعون ، في زمنه ، خمس عائداتهم لصاحب الزمان : وهذا مصدر ممتاز للخلفاء الفاطميين الذين كانوا بأمسّ الحاجة الى المال (٥٤) ، ولا يرغبون في زعزعة قواعدهم الشعبية وتنفيرها بتحميلهم اياها أعباء ضرائب جديدة مرهقة .

ولئن توصلنا ، على ضوء ما تقدم ، الى تكوين صورة واضحة الى حد ما عن عقائد القرامطة الدينية ، فان اطلاعنا اطلاعا دقيقا على المبادىء الاخلاقية التي سادت حياتهم ، ليس بالامر اليسير . ينبغي أن نعترف أولا بأنه كانت لهم مثل هذه المبادىء ، خصوصا اذا ما تذكرنا الاتحاد العجيبالذي ساد بينهم حتى العام ٣٥٨ ، والذي استعاد سابق عهده ، بعد فترة من الاضطراب ، حتى انه كان لا يزال قائما ابان زيارة ناصر بن خسرو في العام ٤٤٣ . لقد أبطل العارفون بالحقيقة (٥٥) منهم العديد من فرائض الاسلام الشرعية وتنكروا لها ، الا اننا لا نستطيع الاستدلال على تأثير هذه المعرفة على الحياة الا بشيء من الحرص والحذر . ولا يطلعنا المثل القائل : « أرقّ من ريق النحل ومن دين القرامطة » (٥٦) على شيء يعتد به ، لان المقصود بالدين هنا

---

(٥٢) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢٤٠ .

(٥٣) أما كلام حمزة الوارد في كتاب دي ساسي (ص ٢١٨) فسأعود اليه فيما بعد . وقد وحد أبو العلاء المعري ، معاصر ناصر بن خسرو ، بين القرامطة والفاطميين كما يتبين من تفسير فون كريمر في مقالته : Philosophische Gedichte des Abou - l Alâ Ma'arri Z.D.M.G. , 38 , P 499 , note

(٥٤) فيما يخص عبيد الله ، انظر ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص‌ص ١٨٦ — ١٨٧ . كما ان المعز جمع ٢٤ مليون دينار لتجهيز حملته على مصر ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .

(٥٥) قارن دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ١٣٥ .

(٥٦) [الميداني ، مجمع الامثال ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ج ١ ، ص ٣١٧] .

الاسلام والقيام بفرائضه . وقد نسخت الصلوات الخمس والصيام ، وهجرت المساجد (٥٧) ، وبيعت لحوم الحيوانات النجسة في شريعة الاسلام ، كالكلاب مثلا ، كما كان يفعل في بعض مدن افريقية (٥٨) . ويروي ناصر بن خسرو (٥٩) : « وفي الاحساء تباع لحوم الحيوانات كلها ، من قطط وكلاب وحمير وبقر وخراف وغيرها ، ويوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري . وهم يسمنون الكلاب كما تعلف الخراف ، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها ثم يذبحونها ويبيعون لحمها » .

ويخبرنا الكاتب نفسه (٦٠) ان أهل الاحساء « لا يشربون مطلقا » . وقد يجوز لنا أن نستدل من هجاء أبي طاهر لمؤنس (٦١) القائد ان ذلك يرقى الى أيامه . كان شرب الخمر مباحا في أول الامر . ويبدو انه لم يحرّم الا لتقوية الانضباط ، وقد كان صاحب الزنج حرّم ذلك للسبب نفسه أيضا (٦٢) . ونجد في أخبار ابن الجوزي تحت العام ٣١٧ (٦٣) الرواية التالية : « وحدثني أبو أحمد الحارث قال : أخبرني رجل من أصحاب الحديث أسرته القرامطة سنة الهبير واستعبدته سنين ثم هرب لما أمكنه قال : كان تملكني رجل منهم يسومني سوء العذاب ويستخدمني أعظم خدمة ، ويعربد عليّ اذا سكر . فسكر ليلة وأقامني حياله وقال : ما تقول في محمد هذا صاحبكم ؟ قلت : لا أدري ولكن ما تعلمني أيها المؤمن أقوله . فقال : كان رجلا سائسا . فما تقول في أبي بكر ؟ قلت : لا أدري . قال : كان ضعيفا مهينا . فما تقول في عمر ؟ قلت : لا أدري . قال : كان والله فظا غليظا . فما

(٥٧) سفر نامه ، ص ٩٣ . [وقد نسبت الاساطير الشعبية القرامطة الى الوثنية . الملحق ٧] .

(٥٨) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٤ .

(٥٩) سفر نامه ، ص ٩٤ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٦١) أنظر ص ٨٨ أعلاه .

(٦٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٣ / ١٧٦٣ .

(٦٣) المنتظم ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ .

تقول في عثمان ؟ قلت : لا أدري . قال : كان جاهــلا أحمق . فما تقول في علي ؟ قلت : لا أدري . قال : كان ممخرقا ، أليس يقول ان ها هنا علما لا أصيب له حملة . أما كان في ذلك الخلق العظيم بحضرته أن يعلم كل واحد منهم كلمة حتى يفرغ ما عنده ؟ هل هذا الا مخرقة ؟! ونام . فلما كان من غد دعاني فقال: ما قلت لك البارحة ؟ فأريته اني لم أفهم . فحذرني من اعادته والاخبار عنه بذلك . فاذا القوم زنادقـــة ، ولا يفكرون في أحد مـــن الصحابة » .

ويذكر المؤلف هـــذه الاحدوثة ليثبت ان القرامطة كانوا ينافقون وانهم لم يخلصوا لآل البيت مع ادعائهم النضال لاجلهم . ولتدعيم رأيه يضيف الكاتب أيضا ان أبا طاهر لم يزر قبر علي ولا قبر الحسين ، وان القرامطة تمردوا على المعز في العام ٣٦٠ وأدوا الطاعة لخليفة بغداد ، مع انهم ما انفكوا يزعمـــون نصرة الفاطميين . هذا واقع لا نزاع فيه ، ولكـن يجب تأويله بطريقة مختلفة تماما .

ان ما روي عن أبي طاهر من تفاصيل لا تطعـــن في صدق ايمانه ، حتى ولو كانت صحيحة . ولا أستطيـع البت في كون أحدوثة القرمطي الثمل تاريخية أم لا ، ولكـــن ، على أية حال ، لا يجوز لنا أن نستقرىء منها نتـــائج بالعموم الذي يريده ابن الجوزي وروايته ، كما لا نجد فيها دلائل مرجحة للقطع فيما اذا كان شرب الخمر محرما أم لا .

أما عن زواج المؤمـــن بأمه أو أخته أو ابنته حسب تعاليم زردشت (٦٤) ، فيصعب البت في كونه قد أبيح عند القرامطة ، ولو أثبتته القصيدة الهجائية التي ذكرناها من قبل . ولعله قـد حلل في بادىء الامر ، ثم سرعان ما أعرض عنه لانـــه يتعارض بشدة مع أعراف البـــلاد غير الفارسية وعاداتها . والاخلاقيات التي علمها المعز الفاطمي (٦٥) لشيوخ كتامة تختلف تماما عما

(٦٤) Nœldeke, Th., article Persia, Encyclopedia Britannica, 9 th edition, Edimburgh, 1885, Vol. 18, P 579 B.

(٦٥) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .

تذكره اتهامات أعداء الفرقة . فقد أوصاهم بالبساطة والتواضع وأمرهم أن يلينوا جانبهم لمن هو دونهم ، كما حضتهم على الا يتخذوا سوى زوجة واحدة ليزيدوا سعادتهم في الدنيا ، ويصونوا قوة أجسادهم . وقال لهم : « ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم » . لا أعرف هل كان القرامطة يقولون بالزوجة الواحدة أم لا ، ولكن الخبر المذكور في الصفحة ١٠٥ يدل ، في جميع الاحوال ، على ان أبا طاهر واخوانه كانت لهم أم واحدة . ويقول ناصر بن خسرو (٦٦) ان أبا سعيد أوصى أبناءه أن يحكموا الناس بالعدل والقسطاس ، كما يمدح (٦٧) ما كان يبديه الامراء من « رقة وتواضع » في علاقاتهم مع مواطنيهم ، كما ان المقدسي (٦٨) يثني على عدالة الحكومة . وتوضح التفاصيل التي استعرناها أعلاه من رحلة ابن خسرو (٦٩) ان المدينين والاجانب كانوا يعاملون بانسانية . وقد كان يسمح لغير القرامطة (٧٠) بممارسة شعائرهم الدينية علنا ، أيام زيارته ، ولكن من الجائز ان هذا التساهل لم يعرف في الحقبة التي كانت فيها السلالة في أوجها ، ولو اننا نلاحظ في مصر ، في زمن المعز ، تساهلا كبيرا ازاء الديانات الاخرى (٧١) .

وقد رأينا في كلام ابن خسرو سابقا ان الارض كان يفلحها العبيد بشكل أساسي . كان القرامطة يتعاطون التجارة ، ويهادنون بلاط بغداد حينا ، وغيرهم من الامراء أحيانا ، لحماية مصالحهم التجارية . وكان جميع الرجال القادرين يتدربون على استعمال السلاح ، وفي أثناء حروب أبي طاهر التي كان قوام الجيش فيها من القرامطة ، تؤازرهم قبائل البدو كقوى رديفة ، نشأ نوع من الجنود المحترفين الذين صاروا يقاتلون فيما بعد تحت ألوية غير القرامطة اذا لم يحتج اليهم حكام البحرين .

(٦٦) سفر نامه ، ص ٩٣ .
(٦٧) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .
(٦٨) أحسن التقاسيم ، ص ٩٤ .
(٦٩) ص ١٦٨ .
(٧٠) سفر نامه ، ص ٩٣ .
(٧١) Guyard , Journal Asiatique , 1877 , I , P 335 .

ولعل سبب هذا السلوك يعود الى الهجرات التي تسبب فيهـا طغيان المهدي الدجال في العام ٣٢٠ .

لا نعلم هل كان للقرامطة شعائر دينية أم لا . وقد يدفعنا وجود دار الهجرة الى الاعتقاد بأنهم كانوا يعقدون مجالس كمجالس الفاطميين (٧٢) . كان القرآن في نظرهم أيضا كتـابا مقدسا ، ولكن كان ينبغي تأويله تأويلا باطنيا (٧٣) . ويطلق ابن تغري بردي على أحد القرامطة لقب « الحافظ » (٧٤) ، ويذكر أبو نعيم في « تاريخ أصفهان » اثنين من المحدّثين القرامطة ، ولكن من الجائز أن يكون هذان الشخصان قد لقبا بلقب القرامطة من دون أن يكونا على ذلك المذهب .

على أية حال لم يفتقر القرامطة الى الرموز اطلاقا . ويروي ابن حوقل ان العقدانية كانوا يلبسون الابيض دائما (٧٥) . كان اللون الابيض ، رمز النقـاوة والنور ، شعار أتبـاع الديانة البيضاء (٧٦) المميز ، وقد اعتمده القرامطـة (٧٧) والفاطميون أيضا . ويعتقد دي فريمري ان القرامطة كانوا يرتدون الثيـاب البيضاء يوم القتال ، وان هذه الثياب كـانت تدل على عزم من لبسها على الاستبسال في المعركة حتى الموت . مـن المحتمل أن

---

(٧٢) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص‌ص ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٤٩ الخ . ج ١ ، ص ١١١ .

(٧٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٨ .

(٧٤) [وهو أبو عمر أحمد بن الحباب القرطبي الحائظ وليس « القرمطـي الحافظ » كما في الاصل وكما في طبعة جونبول (ليـدن ، ١٨٥٥ ـ ١٨٦١) . قارن النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ ، الحاشية رقم ٦ . ويحيل دي خويه الى شخص آخر يدعى محمد بن وضاح « القرمطـي » في الاصل ، ولكن محقق الطبعة المصرية يرجح تسميته بالقرطبي لانـه ولد بقرطبة ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٢١] .

(٧٥) قارن أيضا : Defrémery , Mém. sur les Sadjides , P 71 .

(٧٦) وكان الاخضر لون العلويين ، قارن الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٠١٢ .

(٧٧) عن قرامطة اليمن انظر الخزرجي ، تاريخ الكفاية والاعـلام ، ص ٣٥ ، حيث نقرأ : « ولبس البياض وقطع ذكر بني العباس » .

يكون للون الابيض هذا المعنى الرمزي (٧٨) . ولكنه لم يكن يعني ذلك عند القرامطة . كانت راياتهم من اللون نفسه أيضا (٧٩) . وفي مواكب الخلفاء الفاطميين الرسمية في القاهرة ، كانت رايات الخليفة الخاصة وثيابه بيضاء أيضا (٨٠) . كان الحاكم بأمر الله يرتدي رداء صوفيا أبيض (٨١) . الا ان عبيد الله تميز بألـوان أخرى عند دخوله رقادة (٨٢) ، ولا أعلم لماذا ، اذ من الثابت انه كان للابيض طابع رسمي في افريقيا (٨٣) . لقد رويت سابقـا خبرا لابن الجوزي يتعلق بمحمل أو قبة كان القرامطة يصطحبونها معهم في المعارك (٨٤) . وقد استحال عليّ الوقـوع على صفات أخرى لهذه القبة ، وثمة ما يحمل على الظن بأنها أقرب ما تكون الى كرسي المختار (٨٥) أو العطفة (٨٦) أو المحمل (٨٧) .

---

(٧٨) قارن : Hamaker , H. E. , Takyodini Ahmedis al-Makrizii [Narratio de expedionibus a Graecis Francisque adversus Dimyatham ab A. C. 708 - 1221 susceptis, Amesterdam 1824 , P 127] .

(٧٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٣٧ .

(٨٠) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٤ ، ص ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ـ ٩٥ .

(٨١) دي ساسـي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ٣٦٢ ، ٤٣٠ . ج ١ ، ص ص ١٤٤ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٨٢) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ١٥٨ . وستنفلد ، فاطميين ، ص ٣٩ .

(٨٣) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٨٠ وما يليها .

(٨٤) أنظر ص ٨٦ أعلاه . وقد أخذهـا القرامطة معهم الى الشام ابان حملتهم على الفاطميين ، اذ ان ابن الجوزي يخبرنا ان جنود جوهر ، فاتح مصر ، قد دمروهــا .

(٨٥) الطبري ، تأريخ ، ٢ / ٧٠٢ ، ٧٠٦ .

(٨٦) Burkhardt , J. L. Notes on the Bedouins and Wahabys , London , 1831 , P 145 . Prolégomênes , II P 52 , n 3 .

ولعلها تشبه الشطفة التي يذكرها دي سلاين .

[ولكن تجدر الاشارة الى ان الكلام عن الشطفة والعيصبة عبـارة عن تعليق مثبت في أحد المخطوطات التي اعتمدها دي سلاين في الترجمة ولا توجد في النص العربي ، قارن المقدمة ، ص ٨٠٧] .

(٨٧) Rogers , E. T. , [The atfah , the mahmil and the ark of the covenant] , Academy , March 31 , P 221 et sq.

٩ ـ الخلاف مع الفاطميين وانحطاط الدولة القرمطية

لنعد الى قصتنا . ان تعداد مصادر دخل القرامطة قد بيّن لنا مدى قوتهم . فمن مجرد عصابة قطاع طرق في نظر بلاط بغداد ، ارتفع هؤلاء القوم الى مصاف امارة مرهوبة الجانب يتردد الامراء في محاربتها ، بل ويسعون أحيانا الى خطب ودها ومحالفتها . ولقد بيّنت سابقا علاقات البريدي بأبي طاهر ، وهاكم الآن بعض التفاصيل عن علاقات القرامطة بالحمدانيين . يذكر كل من الهمذاني (١) وابن تغري بردي (٢) ان القرامطة طلبوا ، في العام ٣٥٣ ، من سيف الدولة أن يهدي اليهم كميات من الحديد (مكافأة على خدمات قدموها ، طبعا) ، وان الحمداني بعث اليهم بكمية ضخمة منه . ولكي يتمكن من الوفاء بمطلوبهم أمر بانتزاع أبواب الرقة الحديدية وبسدّ تلك الابواب بالحجارة ، وأخذ كل الحديد الذي وجده في ديار مضر ، بما في ذلك موازين البقالين والباعة . وقد نقلت هذه الهدايا على الفرات حتى بليدة هيت ، ومن هناك حملت الى الصحراء . ويخبرنا ابن الاثير (٣) ان أبا تغلب ، ابن أخي سيف الدولة ، بعث اليهم في العام ٣٥٨

---

(١) الهمذاني ، تكملة ، ص ١٨٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٣) الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٤٣ .

بهدايا قيمتها ٥٠،٠٠٠ درهم . ويذكر ابن حوقل مكاتبة القرامطة للحمدانيين وغيرهم من الامراء فيقول : « وربما أنفذ ابن عرفة قاضيهم برسائلهم الى بني حمدان وغيرهم فعقد عليه بيعتهم وأخذ عليهم العهود بموالاتهم » (٤) .

وفي تلك الاثناء كان المشروع الذي حاول أول الخلفاء الفاطميين انجازه منذ خمسين عاما يقترب من التحقيق . لقد حالت العقبات العديدة الكأداء التي كان على الخليفتين الفاطميين الثاني والثالث أن يتغلبا عليها للمحافظة على سلطتهم في افريقية، دون متابعتهما مشاريع الفتح التي رسمها عبيد الله المهدي . أما الآن فقد انجلى الافق ، وتيسرت للمعزّ سبل السير على خطى جده الاكبر ، وبشّرت النجوم بنجاحه (٥) . كان من شأن قوة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الاموي (الملقب بالناصر) ودهائه أن يجعلا فتح الاندلس مستحيلا أو قريبا من المستحيل . ولكن ، كانت تمتد على حدود المعزّ الشرقية فريسة سهلة القنص، وربما أغنى من الاندلس بكثير : انها بلاد الفراعنة والاهرام ، مصر . تلك الارض الخصيبة الحسنة الموقع ، الارض التي سيمهد فتحها الطريق لاخضاع المدن المقدسة والصراع مع العباسيين . كانت الفوضى تعم هذا البلد الجميل . وقد تضافرت المجاعة وسوء الادارة على مضاعفة عدد المستائين فيه ، ويسّرا ، في الوقت نفسه ، على الفاطميين مهمة تنظيم حزبهم (٦) . ولزعزعة أركان حكم الاخشيديين ، بعث المعزّ بأعداد كبيرة من أنصاره الى مصر (٧) ، وأعطى الامر في الوقت نفسه لملك النوبة بالقيام بغزوات على وسط البلاد ، والى القرامطة بالوثوب على الشام التي كانت آنئذ خاضعة للمصريين . وقد حدث هذا الغزو القرمطي

---

(٤) المسالك ، ص ٢٣ .

(٥) أنظر الملحق رقم ٥ .

(٦) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

(٧) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٢٩ وما يليها . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ .

في العام ٣٥٣ (٨) بقيادة الحسن الاعصم ، كما يتبين من كلام ابن حوقل (٩) . ويضيف هذا المؤرخ انه قد اشتبه في قلة انصاف الاعصم في توزيع الغنائم ، ولذلك استعيض عنه باثنين من أولاد عمه في الحملات التالية . كانت هذه الحملة (٣٥٧) جزءا من الهجوم العام الذي وقع بعد وفاة كافور ، وقد هزم القرامطة فيها الوالي حسين (١٠) بن عبيد الله في الشام هزيمة نكراء ، وفي الوقت نفسه استولى القائد الفاطمي جوهر على مصر (٣٥٨) من غير مقاومة تذكر . قد رأينا الحمدانيين يقدمون الحديد اللازم لحلفائهم القرامطة ، وبعد فتح مصر مباشرة ، كاتبوا جوهر (١١) وخطبوا باسم المعزّ ، في العام ٣٥٩ بدلا من المطيع العباسي (١٢) ، كما اعترف بالمعزّ خليفة في مكة والمدينة في العام ٣٥٨ .

بدا النصر المؤزّر من نصيب الفاطميين عندما وقع أمر لم يكن في الحسبان ، وضع حدا لمسيرتهم المظفرة وكاد أن يفقدهم كل ما كسبوه حتى ذلك الحين . أصبح الفاطميون والقرامطة متجاورين ، ولكن هذا القرب أساء الى علاقاتهم المتبادلة . هل انفجرت العاصفة فجأة أم كانت تتراكم منذ بضع سنوات ؟ هل حدث ما يثبط بعض الطموحات ويحبط بعض المطالب المشروعة ؟ أم ترى فقد المثال من هيبته وبريقه لما شوهد عن كثب ؟ هذا

(٨) وقد حدث ذلك في العام ٣٥٢ كما يذكره ابن تغري بردي ، الموضع المذكور .

(٩) كتاب المسالك ، ص ٢٢ .

(١٠) هذا ما يذكره ابن حوقل والمقريزي ، الموضع نفسه . الا ان وستنفلد (فاطميين ، ص ص ١٠٤ ، ١١٢) يسميه حسن ، وهذا ما نجده في كتاب المقفى للمقريزي (مخطوطة ليدن ١٣٦٦) تحت اسم محمد بن أحمد بن سهل بن نصر النابلسي . [يشير دي خويه الى طبعة جونبول للنجوم الزاهرة تأييدا لقراءة الحسين ، ولكن الطبعة التي اعتمدتها تظهر الحسن ، ج ٤ ، ص ٢٢] .

(١١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .

(١٢) الهمذاني ، تكملة ، ص ٢٠٤ .

ما يصعب البت فيه . على كل حال اندلعت ، بين القرامطة في العام ٣٥٨ وبعد حملة الشام مباشرة ، ثورة حوّلتهم من أعوان للفاطميين الى أعداء لهم ، ودفعتهم الى اشهار السيف في وجه السيد الذي خدموه بكل اخلاص وتفان منذ نيف ونصف قرن .

هاكم ما أتصوره في هذا الشأن . عندما بويع أحمد ، أخو أبي طاهر ، كان قسم من العقدانية يميل الى رفع سابور الى مقام أبيه (١٣) . ويذكر كل من ابن الاثير (١٤) وابن خلدون (١٥) ان سابور طلب في العام ٣٥٨ من أعمامه أن تؤول ادارة الامور وقيادة الجيش اليه عملا بوصية أبيه ، حتى انه ألقى القبض على عمه أحمد . الا ان أحمد لم يلبث طويلا في السجن ، بل خرج وزجّ بابن أخيه فيه ثم قتله (في ١٥ رمضان ٣٥٨) ، ونفى اخوته وأنصاره الى جزيرة أوال . ان مقتل سابور حدث هام الى درجة ان تفصيله يرد عند جميع المؤرخين ، حتى ان ابن حوقل يرجع انحطاط القرامطة الى هذه الحادثة ، ويؤكد ان الثورة على الفاطميين والولاء لخليفة بغداد عقبتها مباشرة . لذلك يهمنا أن نطلع على هذا الموضوع بصورة أدق . وانه لمما يؤسف له ان نكون مجبرين على الاقتصار على ما يغلب في الظن استنادا الى المعطيات المحدودة التي بين أيدينا . لا بد ان سابور هذا كان رجلا واسع النفوذ ، كما ان منافسته للحسن الاعصم ، ابن السيد الحاكم ، أمر طبيعي . ويجوز لنا أن نسلم بأن اتهام الاعصم بالاجحاف في توزيع الغنائم ، بعد حملة العام ٣٥٣ ، كان من عمل سابور ، وبأنه هو الذي حال دون تسليم قيادة حملة العام ٣٥٧ الى الاعصم . ولكن خصوم سابور نجحوا في الحؤول دون عقد لواء الحملة له ، فانتهى الامر الى تكليف اثنين من أبناء عمه . على الرغم من كل هذه المظاهر ينبغي الا نعزو انقلاب سابور الى طموح شخصي ، اذ ان ثمة أسبابا من السياسة

---

(١٣) أنظر ص ١١٦ أعلاه .

(١٤) الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٤٣ .

(١٥) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

العليا . فمنذ زمن عبيد الله المهدي انفصمت عرى التعاون بين الفاطميين والقرامطة ، الا ان امامتهم ظلت معترفا بها ، وحصتهم من العائدات تدفــع ، وأمر المنصور فيما يخص الحجر الاسود نافذا . لم يكن الفاطميون يجترؤون على المجاهرة بتحالفهم مــع القرامطة ، واحتفظوا في امبراطوريتهم بعادات عديدة كانت في نظر العقيدة من بقايا عبادة الاوثان . ان اعـــادة الحجر الاسود اعتبرت تنازلا لمن كانوا ، في نظر القرامطة ، من الكافرين ، ولا بد انها نفّرت الكثيرين منهم . كان من شأن الصعوبات التي واجهت الخليفتين الفاطميين الثـــاني والثالث ، وعـــدم تحقق انتصار الحقيقة المتنبأ به للعام ٣٢٠ ، أن يبعثا الريبة والقلق في نفوس نفر عديد من القرامطة حول الاصل الالهي لدعـــوة الفاطميين . وهكذا تكوّن حزب ثوري بقيـــادة الحسن الاعصم . أصبحت سياسة القرامطة السائدة ، منذ تولي أحمد واخوانه زمام الحكم ، سياسة احتراس ومهادنة ومفاوضات ديبلوماسية ، بعيدة كل البعد عن التعصب الجامح الذي كان يحرك أبا طاهر . ولما تلقى القرامطة أوامر الخليفة الفاطمي بمسانـــدة خططه لفتح مصر ، انصاعوا لها حقا ، وبعثوا جيشا الـــى الشام ، ونشط صنّاع الاسلحة لتحضير كل شيء للحملة الكبرى . وقد أحرز الجيش الذي سار الى الشام في العام ٣٥٧ انتصارا باهرا عـــلى الوالي حسين بن عبيد الله مما اضطره الى الفرار الى مصر . ولكن بدلا من متابعة المسيرة المظفرة مال الحزب الحاكم الى مهادنة حسين على فدية سنوية كبيرة يدفعها الاخير (١٦) . ويبـــدو ان هذا الظرف أسخط سابور وتسبب في تمرده على عمه . ومن المحتمل أن تكون غزوة عين التمر (١٧) لنهبهـــا ، أولى ثمـار سياسة

---

(١٦) ٣٠٠،٠٠٠ دينار ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٥٢ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
Defrémery , Emirs al - Omara , P 26 , note I ; Journal Asiatique , 1856 , II , P 375 .

أما وستنفلد (فاطميين ، ص ١١٣) فيتحدث عن مئة ألف دينار .

(١٧) الهمذاني ، تكملة ، ص ٢٠١ .

سابور . ولكن كل هذا لا يكفي لتفسير القطيعـــة مع الفاطميين بعد عودة أحمد الى الحكم . وأظن ان سابور قد حصل على وعد من الامام بخلافة أبيه تقديرا لما قدمه الاخير من خدمات للفاطميين، وعلما من الامام بأن أحمد لن يتعاون معـه بشكل مجد لفتح مصر وللقضاء على خلافة بغداد بعد ذلك مباشرة . ان من شأن هـذا الافتراض أن يفسر انقلاب سابور وارتداد القرامطة عـــن الخط الفاطمي بعد اعادة الامور الى نصابها (١٨) . لما وجـــد الحسن الاعصم ان سابور قد أهـــانه شخصيا ، وان ايمـــانه بادعاءات الفاطميين قد تزعزع ، رأى نفسه قد انحط من المقام الذي كان له أيام أبيه أحمد ، لذلك استحالت معارضته لسابور معارضـة الخليفة الفاطمي الذي جرح كبرياءه وأحبط طموحه .

ان نسبة ارتداد القرامطة الى كونهم قد طالبوا بدفع ما كان يستحق لهم سابقا من جزية على الشام توقفت بعد وقوع دمشق في أيدي الفاطميين (١٩) ، لا تكفي لتفسير هذا الارتداد . ولا يتفق هذا السبب والتسلسل التاريخي للاحداث ، لان القـائد الفاطمي جعفر بن فلاح لم يحرز أول انتصار له في الشـام الا في آخر شهر من العام ٣٥٩ (٢٠) . ويناقض ابن تغري بردي الوقائع أكثر من ذلك عندما يقول (٢١) ان المعز كان يصافي القرامطة ، وانه ظل يصلهم بالهدايا ما أقام في المغرب ، ولكنه امتنع عن دفع حصتهم من العائدات بعد دخوله مصر .

بعد العام ٣٥٩ مباشرة ، شرع بالمفاوضات مع بلاط بغداد . ويزعم بعض المؤرخين (٢٢) ان الحسن جاء بغـداد بنفسه وطلب من السلطان بختيار أن يمده بالجند والمال ، ويوليه مصر والشام،

---

(١٨) [ينبغي قراءة « la restauration » بدلا من « sa restauration » في النص الاصلي ص ١٨٦] .

(١٩) وستنفلد ، فاطميين ، ص ١١٣ .

Defrémery , Journal Asiatique , 1856 , II , P 375 et sq.

(٢٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٣٧ .

(٢١) النجوم ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

(٢٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

وتعهد له لقاء ذلك بطرد الفاطميين من مصر . ويبـدو ان الطلب الاخير لم يستجب لان الارجح ان الخليفة رفض أن يوقع على توليته ، وقال لبختيار : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، فأما المصريون (يعني الفاطميين) فأماتوا السنن وقتلوا العلماء ، وأما هؤلاء (يعني القرامطة) فقتلوا الحـاج وقلعوا الحجر الاسود وفعلوا ما فعلوا » (٢٣) . ولكن الحسن الذي كان يهمه الحصول على المساعدات ضد الفاطميين ، اكتفى بالوعد الذي قطع له بأنه سيجـد المال والرجال في الكوفة ، عنـدما يمر بها قاصدا الشام (٢٤) . وقد أبرم التحالف في العام ٣٦٠ ، على ذمة ابـن حوقل (٢٥) . ولكن حتى قبل نهاية المفاوضات ، أديت للخليفة المطيع العباسي مراسم الولاء العلني التي كانت تؤدى في العـام ٣٥٨ للخليفة الفاطمي ، وذلك في جميع البـلاد التي تقع تحت سيطرة القرامطة ، كمكة مثلا (٢٦) . وفـي النصف الثاني مـن العام ٣٦٠ ، حمل الحسن على الشام وهزم القـائد الفاطمي جعفر بن فلاح هزيمة ساحقة، واحتل دمشق وهدد الرملة (٢٧) . ارتعب الفاطميون كل الرعب ، وكان الخوف الـذي انتاب جوهر القائد حافزا له على بناء القاهرة بشكل يجعلها قادرة على صـد هجوم قرمطي محتمل (٢٨) ، وفي الوقت نفسه كان يرجو سيده

(٢٣) [المصدر نفسه ، الموضع نفسه] .
(٢٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٥٢ .
(٢٥) المسالك ، ص ٢٢ .
(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٥٠ .
(٢٧) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٩ وما يليها . وايل ، عباسيين ، ج ٣ ، ص ١٠ . وستنفلد ، فاطميين ، ص ١١٢ .
Defrémery , J. A. , 1856 , II , P 376 ;
ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٥٢ وما يليها . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٤ ، ص ٥٨ . المقـريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٨ . ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٢٨) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦١ وما يليها ، يعبر عن ذلك بقـوة أكثر . ولا حاجة بي للتذكير بأن الهدف الاول لبناء القلعة كان الدفاع عن عاصمة مصر ، كما يتبين لا من تعجيل جوهر في بنائها فحسب ، بل ومن تسميتها بالقاهرة أيضا .

أن يأتي الى مصر ليمارس تأثيره الشخصي فيها . اما الروح الذي كان يحرك هذه الثورة القرمطية فنكتشفه في الكلمات التي تفوه بها الحسن ، فيما ذكر (٢٩) ، من على المنبر بعد فتحه دمشق : « هؤلاء من ولد القداح كذابون ممخرقون أعداء الاسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدهم القداح » . ان كل كلمة من هذا المقال تندّ عن الطموح الجريح .

في العام ٣٦٢ دخل المعزّ الى مصر وكتب فور وصوله كتابا طويلا للاعصم يدعوه فيه الى الدخول في طاعته ، الا ان الجواب اقتصر على هذه الكلمات (٣٠) : « وصل الينا كتابك الذي كثر تفصيله وقلّ تحصيله ، ونحن سائرون على اثره والسلام » . وقد بقيت لنا أجزاء من رسالة المعز (٣١) تؤكد النتائج التي أدت اليها أبحاثنا السابقة ، والكلمات التالية (٣٢) جديرة باهتمام خاص : « فأما أنت الغادر الخائن ، الناكث البائن عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ولا خفي عني خبرك ولا استتر دوني أثرك ... ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا ، فعرّفنا على أي رأي أصلت وأي طريق سلكت » . تؤكد هذه الاقوال بجلاء لا منازعة فيه ان القرامطة ظلّوا حتى العام ٣٥٨ ، على ولائهم للفاطميين ، وتبرهن على ان أقوال حمزة الواردة عند أبي الفداء (٣٣) لا تتعلق بأبي طاهر البتة ، بل تشير الى الحسن الاعصم وحده .

كانت سيرة الاعصم باهرة الا انها كانت قصيرة المدة . لن أتوقف عندها لانني لا أجد ما أضيفه الى ما نشره وستنفلد (٣٤)

---

(٢٩) [ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٤ ، ص ٧٤] .
(٣٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٦٩ . [ثابت بن سنان ، اخبار القرامطة ، ص ١٠٦] .
(٣١) [المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ص ٢٥١ – ٢٦٥] .
(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ .
(٣٣) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ٢١٨ وما يليها .
(٣٤) فاطميين ، ص ص ١١٤ ، ١٢١ وما يليها ، ١٣٧ .

ودي فريمري (٣٥) عن هذا الموضوع . قاتل الحسن الفاطميين بالشجاعة نفسها التي خاض فيها القرامطة سابقا غمار الحرب ضد جيوش العباسيين . حينذاك كان الحماس لقضية الفاطميين يخلق منهم جنودا لا يقهرون ، أما الآن فتحركهم النقمة لما غرر (بالضم) بهم ولما أنكر من سابق فضلهم . تمتع الحسن بمواهب عسكرية وشعرية (٣٦) تذكّر بعمه . ولكن ، على الرغم من مآثر هذا القائد الكبير فقد انحطّ نفوذ القرامطة في تلك الحقبة بسرعة تعادل تلك التي وسمت نموهم في السابق . لقد كلفتهم الحرب ضد الفاطميين خسائر ضخمة في المال والرجال . ومنذ مقتل سابور فقدت اللحمة والثقة المتبادلة اللتان كانتا سبب قوتهم . وقد علم ابن حوقل (٣٧) بذلك في العام ٣٦١ ، على أيام الحسن ، من فم قرمطي اسمه أبو الحسين علي بن أحمد الجزري ، قابله في صقلية وأطلعه على تفاصيل عديدة عن هذه السلالة ، منها انه قد « قل حولهم وفلّ حدهم بما جروا اليه من قتل سابور بن سليمان ، وأمورهم كالواقفة بينهم » ، ومنذ تلك الايام أيضا توقفت اجتماعات الجرعاء . أضف الى ذلك ان معظم العقدانية كانوا قد ماتوا .

وفي العام نفسه (٣٦١) توفي سعيد ، بكر أبي سعيد (٣٨) ولم يبق من كل اخوان أبي طاهر سوى واحد هو أبو يعقوب يوسف . وقد وافته المنية في العام ٣٦٦ (٣٩) الذي شهد وفاة الحسن الاعصم . ومنذئذ أصبحت دفة الحكم بين أيدي زعماء ستة ، يلقبون بالسادة ، وينتخبون من بين أحفاد أبي سعيد . وقد شاهد ناصر بن خسرو هذه الحكومة عندما زار الاحساء في

---

(٣٥) Journal Asiatique , 1856 , II , PP 376 - 380 .

(٣٦) ونجد نموذجا منه في فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٣٧) المسالك ، ص ٢٣ .

(٣٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٥٠٦ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٤ ، ص ١٢٨ . وقد ظل ابن سنبر يذكر حتى العام ٣٦٣ (قارن وستنفلد ، فاطميين ، ص ١٢٣) ولكن ليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأنه الشخص نفسه المذكور سابقا .

العام ٤٤٣ ، وهو يقول (٤٠) : « ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف ، هو دار ملكهم . وبه تخت يجلسون هم الستة عليه ويصدرون أوامرهم بالاتفاق ، وكذلك يحكمون . ولهم ستة وزراء . فيجلس الملوك على تخت والوزراء على تخت آخر ، ويتداولون في كل أمر . وهؤلاء السلاطين الستة يسمون السادات ، ويسمى وزراؤهم الشائرة » . وفي زمن هذا الرحالة كان أهل الاحساء يسمون أبو سعيديون .

وبعد وفاة الحسن تابع أخوه جعفر الحرب ضد الفاطميين لبعض الوقت . ولكن العزيز ، خليفة المعز ، الذي هزم جعفر هذا في وقعة كبيرة في العام ٣٦٨ ، لم يفلح مع ذلك في اخضاعه ، بل تمكن من اقناعه بالعودة الى الاحساء لقاء جزية قدرها ٧٠،٠٠٠ دينار سنويا (٤١) .

وفي هذه الاثناء ، قام قائد قرمطي ، هو أبو بكر بن شاهويه ، بفتح الكوفة وسوادها باسم عضد الدولة (٤٢) . وولى عهد كان فيه القرامطة مكروهين ، وتغيرت مواقف الناس تجاههم الى حد ان أسواق الكوفة ظلت مقفلة ثلاثة أيام حدادا ، لما وصلها في العام ٣٦٧ ، نبأ وفاة أبي يوسف يعقوب أمير القرامطة (٤٣) . ظل البويهيون على احترامهم للقرامطة طيلة حياة عضد الدولة ، حتى لقد كان لهؤلاء ممثل رسمي في بغداد ، هو أبو بكر بن شاهويه نفسه ، وكان يتمتع بنفوذ واسع . الا ان صمصام الدولة الذي خلف أباه عضد الدولة لم يمل اليهم ولم يطل به الوقت حتى اصطدم بهم . وفي العام ٣٧٤ اقترب جيش للقرامطة من أطراف بغداد ، ولم يلبث أن استرضي بمختلف التنازلات ، ولكن الحرب اندلعت في السنة التالية . دخل

---

(٤٠) سفر نامه ، ص ٩٣ .

(٤١) الهمذاني ، تكملة ، ص ٢٢٨ . ابن الاثير (الكامل ، ج ٨ ، ص ٤٨٧) يتكلم عن ٢٠،٠٠٠ دينار سنويا .

(٤٢) الهمذاني ، تكملة ، ص ٢٣٣ .

(٤٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ .

القرامطة الكوفة بقيادة اثنين من السادة ، هما اسحق وجعفر ، دخول الظافرين ، ومن ثم ، انهزموا ، بعد بضعة انتصارات ، هزيمة شنعاء لم تقم لهم من بعدها قائمة في العراق ، « وزال من حينئذ ناموسهم » ، على حد تعبير ابن الاثير (٤٤) . ولم يطل الزمن حتى رأوا وسط الجزيرة العربية وطريق الحاج ينسلان من بين أيديهم ، لان الاعراب لم يعودوا ينقادون لهم . وينسب ابن خلدون (٤٥) نهاية نفوذهم في عمان الى العام ٣٧٥ . وفي العام ٣٧٨ هزموا في معركة مع شيخ المنتفق ، المدعو الاصفر أو الاصيفر (توفي في العام ٤١٠) (٤٦) ، حتى انه حاصرهم في الاحساء . وقد أخذ القطيف وآب الى بلده بغنائم وافرة . ومنذاك قام هو (٤٧) وغيره من زعماء البدو (٤٨) بقبض الجزية والمكوس التي كانت تدفع سابقا للقرامطة .

كيف كانت آنئذ علاقاتهم بالفاطميين ؟ يقول ابن خلدون (٤٩) ان الحسن الاعصم لما عاد الى الاحساء مهزوما أمام العزيز ، لامه القرامطة على اعترافه بسلطة العباسيين ، وقرروا أن يعزلوا أبناء أبي سعيد من الحكم . وقد نفي هؤلاء الى جزيرة أوال حيث قتل أبناء أبي طاهر أبناء أحمد بن أبي سعيد . وسوّد القرامطة على انفسهم رجلين هما جعفر واسحق اللذان انحازا الى حزب الفاطميين وغزوا سواد الكوفة في العام ٣٧٤ . الا ان صمصام الدولة هزمهما فاضطرا الى العودة الى البحرين . وما لبث الخلاف أن نشب بين جعفر واسحق لان كلا منهما طلب الاستئثار بالحكم ، فضعفت لذلك قوتهم حتى استطاع الاصفر أخذ الاحساء وكسر شوكتهم في العام ٣٦٨ .

---

(٤٤) الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٠ . الذهبي ، تاريخ الاسلام [السفر الثالث] مخطوط مكتبة بودليانا رقم ٧٦٤ .

(٤٥) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩٣ .

(٤٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٢١ .

(٤٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٧٣ و ١٢٩ . اخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٤٨ ، ١٤٥ ، ٢٢٩ .

(٤٩) تاريخ ، ج ٤ ، ص ٩١ .

تشتمل هذه الرواية على أخطاء عديدة . فمن غير الممكن أن يكون الحسن الاعصم قد تصرف بعكس ارادة الكتلة الحاكمة في الاحساء . وعلى أي حال فقد توفي في الشام في العام ٣٦٦ . واخوه جعفر هو الذي قبل من العزيز ضريبة سنوية ثابتة في العام ٣٦٨ . وبالاضافة الى ذلك ، ليس من الصحيح ان آل أبي سعيد قد حرموا من الحكم ، وان دولة القرامطة قد دالت في العام ٣٧٨ . والثابت هو ان التحالف غير الطبيعي مع بلاط بغداد لم يكن ليكتب له الاستمرار طويلا ، كما انه فقد مبرراته بعد ابرام المعاهدة مع الفاطميين . وقد كان من شأن حوادث العامين ٣٧٤ و ٣٧٥ أن تضع حدا نهائيا لذلك التحالف . وبالرغم من ذلك ، يبدو ان اقتراح اعادة الاتحاد بالفاطميين قد صادف مقاومة جدية ، وخصوصا من قبل جعفر وغيره من أبناء أحمد بن أبي سعيد ، ولكنهم اضطروا الى الرضوخ ثم نفوا . ان عرض الامور بهذه الطريقة يجد مستندا له في كون المقدسي يشير ، في العام ٣٧٨ ، الى وجود كنز المهدي في الاحساء (٥٠) . ولكن بأس القرامطة كان من الضعف بحيث ان شيخ المنتفق ، المدعوم من حكومة بغداد ، تمكن أن يتغلب عليهم ويعيث فسادا في مناطق واسعة من بلادهم . بيد انهم صمدوا في الاحساء وتمكنوا ، في مدة وجيزة ، من النهوض الى بعض مراتب القوة ، وكانوا ، على الاقل ، قادرين على الدفاع عن بلدهم (٥١) . وفي العام ٤٠٣ نسمع مجددا عن سرية قرمطية حاولت التعرض للحجاج ، ولكن هؤلاء استطاعوا الافلات منها . عبثا حاول القرامطة محاصرة الكوفة ، الا انهم اضطروا أخيرا الى الانكفاء (٥٢) .

لم تعد الفرقة تقوم بأية دعاية تذكر ابتداء من السنوات الاولى لحكم المعز . وهذا واضح « الفهرست » يقول في العام

---

(٥٠) أحسن التقاسيم ، ص ١٨٩ .

(٥١) يروي ابن الجوزي ان القرامطة حاولوا ، سنة ٣٨٥ ، القيام بحملة للسيطرة على البصرة ، قارن [مرآة الزمان] مخطوطة مكتبة بودليانا رقم ٦٧٩ .

(٥٢) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

٣٨٠ (٥٣) : « ومنذ نحو عشرين سنة تناقص أمر المذهب ، وقلّ الدعاة فيه ، حتى اني لا أرى من الكتب المصنفة فيه شيئا بعد أن كان في أيام معز الدولة في أولها ظاهرا شايعا ذائعا ، والدعاة فيه منبثون في كل صقع وناحية . هذا ما أعلمه في هذه البلاد ، وقد يجوز أن يكون الامر على حاله بنواحي الجبل وخراسان (٥٤) . فأما بلاد مصر فالامر مشتبه . وليس يظهر من صاحب الامر المتملك على الموضع شيء يدل على ما كان يحكى من جهته وجهة آبائه » .

ولكن كل ذلك تغير في ولاية الحاكم بأمر الله ، فقد نشطت الدعوة له في مستهلّ القرن الخامس (٥٥) ، وازدادت في ظل الظاهر (٥٦) . ولعلنا أن نرى في قيام أحد المصريين بمحاولة كسر الحجر الاسود (٥٧) في العام ٤١٤ ، نتيجة لانبعاث المذهب القرمطي . وثمة نتيجة أخرى أعظم أهمية وهي ظهور فرقة

---

(٥٣) ص ١٨٩ .

(٥٤) يروي ابن حوقل (المسالك ، ص ٢٢١) ان سلطة الامام الفاطمي امتدت في زمنه الى جبل القفص . وبعد ذلك جاء فتح ملتان (أو مولتان) في الهند على يد القرامطة . قارن دي فريمري
Journal Asiatique , 1856 , II , 381 et sq.
والمؤلفين الذين يذكرهم [البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة عند العقل أو مرذولة ، طبعة زاخاو ، لندن ، ١٨٨٧ ، ص ٥٦ . وأيضا
Reinaud , J. , Fragments Arabes et Persans inédits relatifs à l'inde , Paris , 1845 , P 141 , 142 ; Mirkhond , Historia Gaznévidarum ; Persice , éd. Fridericus Wilken , Berlin , 1832 , PP 206 , 207 .
وأيضا
Briggs , John , History of the Rise the Mahomedan Power in India, Translated, Calcutta, 1829 , London, 1908 , I , PP 62 , 63] .

(٥٥) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣ .

(٥٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٢٣٩ ، ٢٤٦ .

(٥٧) أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٤ .

الدروز ، الذين راوا في الحاكم تجسيدا للالوهـــة . ونجد في كتابات هذه الفرقة رسالة ، بعثت سنة ٤٢٩ الى قرامطة البحرين تدعوهم الى الانضمام الـــى الدروز ، وتشير الى ان مذهبهما واحد (٥٨) .

وفي العام ٤٢٥ استؤنفت الدعـوة بحمية متجددة (٥٩) . فقد أنبأ المنجمون بقران المشتري وزحل في العام ٤٣٩ وعلق به أمل انتصار الفاطميين على العباسيين انتصارا نهائيا . ويبدو ان القرامطة اشتركوا في الترويج لذلك النبأ بدليل هـــذا البيت للمعري :

يقولون تأثير القران مغيّر　　من الدين آثار السراة الاماجد

وهو يقول الشيء نفسه فـي قصيدة أخرى أيضا (٦٠) . والاعتقاد بهذه النبوءة ألهم الفاطميين حماسا عظيما كان من آثاره أن توصل الخليفة المستنصر الى توسيع رقعة نفوذه في آسيـــا بالرغم مما اعترضه من عديد الصعاب ، وقـد بلغ ذلك حد اعلانه خليفة في بغداد سنة ٤٥٠ ، ونقل علائم الخلافة الى القاهرة (٦١) . وقد ذكر ناصر بن خسرو ذلك الانتصار فـي قصيدة له (٦٢) . ونحن مدينون لهذا الرحالة ، الذي زار البحرين في العام ٤٤٢ ، بآخر تقرير معاصر عن تلك الفرقة . لقد أشرت من قبل مرارا الى

---

(٥٨) دي ساسي ، دروز ، مقدمة ، ص ص ٢٢٧ ، ٢٤٠ .

(٥٩) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ . وستنفلد ، فاطميين ، ص٢٢٦ .
Guyard, Journal Asiatique, 1877 , I , P 340 .

(٦٠) Von Kremer , A. Philosophische Gedichte des Abu , l Ala Ma'ari Z.D.M.G. , 38 , PP 499 , 504 .
واسمح لنفسي بالشك في تفسير كريمر للبيت الاول مـن القصيـــدة الثامنة ، فالشاعر يروي ، في رأيي ، كلمات القرامطة انفسهم . انظر ايضا ص ٥٢٦ . [اللزوميات ، ج ١ ، ص ٣٦٤ . ج ٢ ، ص ١٩٦] .

(٦١) وايل ، عباسيين ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ . المقـريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٦ . وستنفلد ، فاطميين ، ص ٢٤٤ .

(٦٢) Ethé Herman , Nasir bin Khusraus Leben, P 202 .

أخبار رحلته وسأذكر منها الآن ما يلي (٦٣) : « وقد ذهب امير عربي الى أبواب الاحساء ورابط هناك سنة ، واستولى على سور من أسوارها الاربعة وشن عليها غارات كثيرة ، ولكنه لم ينل من أهلها شيئا . وقد سألني حين رآني عما تنبىء به النجوم ، قال : اريد أن أستولي على الاحساء ، فهل أستطيع أم لا ؟ فان أهلها قوم لا دين لهم ، فأجبته بما فيه الخير له » . ولا نعلم ما اذا كان الامير قد حقق نجاحا أفضل بعد ذلك أم لا ، ولكن من المؤكد انه لم يتمكن من انجاز مشروعه . فالجوبري الذي كتب في مطلع القرن السابع « كتاب كشف الاسرار » ، يقول (٦٤) انه رأى في الاحساء عقبا لابي سعيد يعرفون بالسادة . وعندما زار ابن بطوطة تلك الناحية بعد حوالي القرن ، لم يجد لتلك السلالة اثرا ، مع ان المذهب القديم كان لا يزال قائما (٦٥) .

ولكن القرامطة ما عادوا أولئك الرجال المرهوبين في البدو والحضر ، ترتعد لاسمهم الشعوب والامراء . وقد قام بأداء دورهم ، من بعدهم ، قرامطة الشام وفارس أو اسماعيليوهما ، وهم المعروفون بالحشاشين الذين دوى العالم لمدة قرنين بصدى فعالهم المشؤومة . ولعل هزيمة هؤلاء على أيدي التتار ، هي الفائدة الوحيدة التي نتجت عن غزو هولاكو . ان تحطيم قوة الحشاشين أفقدت القرمطة أهميتها السياسية الى الابد . ومنذئذ استمرت بصورة ضعيفة حتى يومنا هذا في بعض نواحي الشام والجزيرة العربية ، ولكن خصوصا في فارس وكرمان وفي الهند ، ويبدو انها بدأت تترسخ في الزنزيبار (٦٦) .

---

(٦٣) سفر نامه ، ص ص ٩٤ – ٩٥ . [قارن الرواية القصصية لنهاية القرامطة في الملحق رقم ٧] .

(٦٤) كشف الاسرار ، ص ١٢ .

(٦٥) ابن بطوطة ، رحلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٦٦) أنظر تقارير غيار في :
Journal Asiatique , 1877 , I , PP 377 - 386 .

الدروز ، الذين رأوا في الحاكم تجسيدا للألوهيـة ، وتجد في

[illegible]

Von Kremer, A: Philosophische Gedichte des Abu'l 'Ala Ma'arri. Z.D.M.G., 38, PP 499, 504.

[illegible]

ملحق

- ١ -

أصل تسمية القرامطة

ان أصل تسمية القرامطة يكتنفه الغموض ، كما هي الحال في غالبية أسماء الفرق . ومن الثابت الآن ان الفرقة قد سميت بهذا الاسم نسبة الى لقب حمدان ، داعي دعاة العراق . ولكن رأي العلماء لم يجتمع على تحديد معنى الكلمة أو على كيفية لفظها . يكتفي دي ساسي بتعداد مختلف التفسيرات التي يوردها المؤرخون الشرقيون ، بينما يعلن فرايتاغ ان أصل الاسم مجهول . الا انني أظن انه يمكن الاجابة عن السؤال الاول بقدر كبير من اليقين . هاكم ما نجده عند أصحاب المعاجم العرب عن جذر (قرمط) ومشتقاته : « والقرمطة مداناة الخطو ومقاربته ، ومنه قرمطة الكتاب ، وقرموط وقرمود ضربان من ثمر العضاة ، وقرمطيط متقارب الخطو » (١) .

ونجد عند الجوهري (٢) ان « القرمطة في الخط مقاربة السطور وفي المشي مقاربة الخطو ، واقرنمط الجلد اذا انضم

---

(١) ابن دريد ، جمهرة اللغة ، ج ٢ ، ص ص ٣٤٠ ، ٣٧٩ ، ٤٠١ .

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية ، تصحيح نصر الهوريني ، القاهرة ، ١٢٨٢ ، ج ١ ، ص ٥٦١ .

بعضه الى بعض ، قال زيد الخيل :

تكسبتها في كل أطراف شدة   اذا اقرنمطت يوما من الفزع الخطا

والقرمطي واحد القرامطة » .

أما في القاموس المحيط للفيروزبادي (٣) ، وتاج العروس للزبيدي (٤) فنقرأ : « القرمطة في الخط دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور ، وقرمط الكاتب اذا قرّب بين كتابته . وفي حديث علي (رضي الله عنه) : فرّج ما بين السطور وقرب بين الحروف . والقرمطة في المشي مقاربة الخطو . يقال قرمط الرجل في خطوه اذا قرّب ما بين قدميه ، وكذلك قرمط البعير اذا قارب خطاه وتدانى مشيه ، وهو قرمطيط كزنجبيل متقارب الخطو . والقرموط كعصفور دحروجة الجعل عن ابن الاعرابي . والقرموط الاحمر من ثمر الغضا يحكي لونه لون نور الرمان أول ما يخرج ، نقله الازهري . وقال أبو عمرو : القرموط من ثمر الغضى كالرمان يشبّه به الثدي ، وانشد في صفة جارية نهد ثدياها :

وينشر جيب الدرع عنها اذا مشت
خميل كقرموط الغضى الخضل الندي

قال : يعني ثديها ، ووقع في الجمهرة ، لابن دريد القرموط والقرمود ضربان من ثمر الغضاة ، قال الصاغاني ، والصواب الغضى . والقرامطة جيل معروف ، الواحد قرمطي (بالفتح) ، وقد تقدم للمصنف ذكرهم في ج ن ب والمنا بذكر بعضهم هناك ، وتمامه في الكامل لابن الاثير . وقال أبو عمرو : اقرمّط الرجل اذا غضب . وقال غيره : اقرنمط الجلد اذا تقبّض ، وفي الصحاح اذا تقارب وانضم بعضه الى بعض ، وأنشد الازهري لزيد الخيل :

اذا اقرنمطت يوما من الفزع المطى

---

(٣) تصحيح نصر الهوريني ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٤١٥ .

(٤) القاهرة ، ١٣٠٦ - ١٣٠٧ ، ج ٥ ، ص ٢٠٤ .

قال الصاغاني كذا هو في التهذيب للازهري في نسخة قرئت عليه وتولى اصلاحها وضبطها وشكلها المطى بالميم والطاء المخففتين ، وأنشده الجوهري أيضا لزيد الخيل :

تكسبتها الخ   من الفزع الخصى

قال : والذي في شعره هو :

وذاك عطاء الله في كل غارة   مشمّرة يوما اذا قلص الخصى

وقال ابن عباد : القرمطتان (بالكسر) من ذي الجناحين كالنخرتين من الدابة ، ورواه الجاحظ : القرمطتان على القلب ، ومما يستدرك عليه القرموط (بالضم) نوع من السمك ، والجمع القراميط ، وبركة قرموط خطة بمصر . والفضل بن العباس القرمطي (بالكسر) البغدادي من شيوخ الطبراني في الصغير وترجمة الخطيب في التاريخ ، وأبو قراميط قرية بمصر من أعمال الشرقية » .

ويقول ابن خلكان (٥) : « القرمطي والقرمطة في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض ، يقال خط مقرمط ومشي مقرمط اذا كان كذلك ، وكان أبو سعيد المذكور قصيرا مجتمع الخلق أسمر اللون كريه المنظر ، فلذلك قيل له قرمطي » .

وفي « الانساب المتفقة » لابن القيسراني (٦) : « القرمطي والقرمطي [بكسر الراء] الاول منسوب الى المذهب المذموم من أهل هجر والبحرين ، الثاني لقب عامر بن ربيعة جد محمد بن عبد الله العدوي . قال أبو القاسم الطبراني انما نسبوا الى القرمطة لان النبي (صلعم) رأى عامرا جدهم يمشي فقال انه ليقرمط في مشيته » .

وفي « لب اللباب في تحرير الانساب » للاسيوطي (٧) : القرامطة الى قرمط بكسر أوله والميم زعيمهم » .

---

(٥) وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

(٦) تحقيق دي يونغ ، ليدن ، ١٨٦٥ ، ص ص ١١٩ – ١٢٠ .

[٧] تحقيق بتروس يوانس فيت ، ليدن ، ١٨٤٠ ، ص ٢٠٦ .

وأخيرا نجد لدى الخفاجي (٨) : « قرمط : يقال وعد مقرمط ، قال هو ما لم يف به مع كثرته ، ومثله خط مقرمط . ووقع في شرح المفصل يقال لمن يقرمط المواعيد عرقوب ، ونقلت من خط ابن النحاس يقرمط أي يجمع بعضها الى بعض ولا يفي بها ، ولم ينقله عن أحد وهو ثقة » .

يدل الفحص المقارن لهذه النصوص ان الجذر « قرمط » يحتوي على فكرة التراص والتضام ، وبالنسبة الى الانسان يفيد معنى المشي المتقارب الخطى . حقا ، ان أصحاب المعاجم لا يعطوننا سوى الفعل والمصدر ، ولا يأتون على ذكر الاسم ، الا ان نص ابن القيسراني يرجح ان عامر بن ربيعة أيضا قد لقب بقرمط أو قرمط (بكسر القاف) . أما عن لفظ « القرمطي » فأظن انه من المستحسن القبول بما يقوله كل من الجوهري والفيروزابادي . ومن الجائز أن يكون التغيير في الشكل قد تم توصلا لتمييز أهل المذهب القرمطي عن الاشخاص الذين ينتسبون الى عامر بن ربيعة جدهم ، أو الذين يحملون الاسم لاي سبب آخر . ويبدو مما جاء في كتاب الانساب وتاج العروس ، على الاقل ، ان هؤلاء كانوا يدعون القرمطي (بسكون الراء) . ـ وفي رواية للطبري (٣ / ٢١٢٥) ان لقب قرمط الذي أطلق على حمدان قد يكون تحريفا لكلمة كرميته النبطية التي تشير الى الرجل الاحمر العينين أو ذي « العينين الحرتين » . كنت قد اعتقدت من قبل بوجوب قراءة « كرمينه » (في حاشية لرايسكه عن أبي الفداء) واعتبار هذا اللفظ تحريفا خفيفا للعبرية « كرميل » ، ولكن هذا خطأ ، لان جميع المخطوطات تتفق على قراءة « كرميته » أو « كرميثه » ، وتجد هذه القراءة سندا قويا لها في الاشتقاق الذي يزعم نسبة قرمط الى هذه الكلمة . وقد سألت صديقي الاستاذ نولدكه اعطائي تفسير الكلمة النبطية ولكنه لم يتوصل الى ذلك .

(٨) شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، القاهرة ، ١٢٨٢ ، ص ١٨٨ .

- ٢ -

مختارات من « دستور المنجمين » ، الورقة ٣٣٣ وما يليها .

كان اسماعيل بن جعفر الصادق أول امام مستور ، وقد اختفى في العام ١٤٥ ، قبل وفاة أبيه بسنتين وأربعة أشهر ، ثم توفي في العريض بعد وفاة أبيه بخمس سنوات ومشهده في البقيع . وقد اعترف المبارك مولى محمد بن اسماعيل بمولاه اماما فسمي أتباعه بالمباركية (الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٢٧٩) ثم وقف جماعة بعد وفاته فسمّوا الواقفية . وقد أخذ هارون الرشيد الآفاق على محمد بن اسماعيل ، ففرّ الى الهند ملتجئا . وأولاده اسماعيل ، وأحمد ، والحسين ، وعلي ، وعبد الرحمن . ويجهل كاتب « الدستور » أيهم خلف أباه في الامامة ، وهو يكتفي بالقول ان محمد بن اسماعيل خلفه « الائمة الثلاثة المستورين الممحنين الصابرين في كتاب الله تعالى : الرضي والوفي والتقي ، رضوان الله عليهم ، ومنهم من استوطن سلمية لما طلبه العباسية » ثم نقرأ ما يلي : ومسجده بها معروف، وفي ألقابهم الرضي والوفي والتقي رضي الله عنهم ، ومن مشاهير رجال الثاني منهم الشيخ عبدان وصاحب الظهور هو الذي التقى به أبو القاسم الفرج بن الحسن بن حوشب بن زادان الكوفي المسمى المنصور باليمن ، ثم سنة ٢٦٦ أنفذه الى عدن لاعة وجنحه بعلي بن الفضل وكتب له عهدا نسخته في افتتاح الدعوة، فدخل أبو القاسم اليمن أول سنة ٢٦٨ وظهرت دعوته بها سنة ٢٧٠ ، ثم أنفذ صاحب الظهور بأبي عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا صاحب المغرب الى منصور اليمن فوجهه أبو

القاسم الى المغرب وهو صاحب البذر وكان تقدم الى المغرب رجلان من المشرق في سنة ١٣٥ قيل ان الصادق (رضي الله عنه) بعث بهما وامرهما أن يبسطا ظاهر علم الائمة رضوان الله عليهم ، أحدهما يعرف بأبي سفيان والآخر بالحلواني ، وقال لهما انكما تأتيان أرضا بورا فاحرثاها وكرّباها (غير منقطة في الاصل) وذللاها الى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها ، وكان بين دخولهما المغرب ودخول أبي عبد الله صاحب البذر مائة وخمس وثلاثون سنة ، وكان دخول أبي عبد الله افريقية سنة ٢٩٦ ، وكان يقال في الستة والتسعين يأتيك المعجب وفي هذه السنة لثلاث ليال مضت من ذي القعدة مات ابراهيم بن أحمد من بني الاغلب بعد أن خرج من افريقية وتساقطت النجوم قبل موته بخمس ليال ، وفي هذه المدة انتقل صاحب الظهور وأوصى وعهد في الامامة الى مولانا المهدي رضي الله عنه وطلعت الشمس من مربها على رأس ثلاثمائة ...

مولانا الامام المهدي بالله أبو محمد عبيد الله صلوات الله عليه أمه وسن من مولدات المغرب وأختاه من أبيه وأمه رشيدة وزبيدة ، وكان يقال له قبل الظهور عبيد الله ، وقد كان صاحب الظهور رضي الله عنه قال له انك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة وتلقى محنا شديدة ، وكان كما قال ، فاضطر الى الهجرة من دار قراره بالمشرق الى سجلماسة من ديار المغرب . خرج بنفسه وبالامام القائم من بعده وهو غلام حدث في حدود سبع عشرة سنة والمهدي رضي الله عنه شابٌ عند ما كمل من ابنا (كذا) سبع وثلاثين حتى انتهى الى مصر على أن يقصد اليمن ، فاتفق أن سبق اليها بعض الدعاة المخيلين واستمال بقلوب بعض أهلها ومنهم علي بن الفضل الذي كان جنح به أبو القاسم فأفضت بهم القصة الى محاربته ، فاتصل ذلك بالمهدي رضي الله عنه فكره دخول اليمن وأقام بمصر مستترا في زي التجار ، فتوالت الكتب من بغداد الى صاحب مصر بصفته والقبض عليه ، فأخبره بعض خاصة العامل ولطف في أمره حتى خرج من مصر ، فلما انتهى الى ناحية تسمى الطاحونة خرج عليه لصوص فسلبوا كثيرا مما

معهم ، وذهب بعض ما كان للمهدي رضي الله عنه وكان من أعظم ذلك كتب كانت معه فيها علم من علوم الائمة رضي الله عنهم ، فلما خرج القائم رضي الله عنه في الغزاة الاولى الى مصر ظفر بأولئك القطاع فاسترجع الكتب بعينها ، فسر بذلك المهدي سرورا عجيبا فقال لو لم تكن هذه الغزاة الا لرد هذه الكتب لكان فتحا عظيما » .

واضح ان مسألة النسب تبقى معلقة . ويسمي كاتب « الدستور » أولاد جعفر بن محمد بن اسماعيل أيضا ، ويعطي اسم أم أحمد بن اسماعيل .

وبالاضافة الى النص المتضمن لاخبار الائمة المستورين نقرأ في الهامش : « وقيل في لقب صاحب الظهور المستودع الامين والحميد (؟) الرضي والآخرين (كذا) في الملاحم عن الفزاري وفي معالم المهدي عن القاضي النعمان (رضي الله عنه) ثم تأتي هذه الكلمات : « وفي أيامهم كان الشيخ أبو حاتم الرازي وبقي بعد انتقال المهدي (رضي الله عنه) » . (والفعل انتقل يعني توفي) .

ويسمي كاتب « الدستور » ميمون القداح في جملة من يسميه من خاصة محمد الباقر (المتوفي ١١٤) وعبد الله بن ميمون في جملة خاصة جعفر الصادق (المتوفي ١٤٧) .

والفعل « جنحه بفلان » يعني أعطاه جناحا (أي مساعدا) وكلمة « جناح » تشير الى لقب في مراتب القرامطة .

- ٣ -

مختارات من حافظ ابرو ، مخطوطـة سانت بطرسبرغ (١) تحت العام ٢٧٨ (استنادا لرسالة من الاستاذ فان‌روزن) .

... ايشانرا اسمعيليه كويند وبعض از أهل تاريخ كويند كه ايشان جمـــاعتى كبران بودند در زمان مأمون خواستند كه مذهب خود آشكارا كنند ومي دانشند كه بر مسلمانان غلبه نمى توانند كرد كفتند وظيفه آنست كه ما تأويل أركان شريعت بوجهي كنيم كه بكلّي دين وملت را براندازه .

[وقد تفضل السيد أحمد الخراساني ، أستاذ تاريخ الادب العربي في جامعتي مشهد وأصفهان ، بنقل هذا النص الى العربية فله الشكر . وهـــذا النص العربي : وهم يسمّون بالاسماعيلية وزعم بعض المؤرخين انهم جماعة من المجوس في عصر المأمـــون أرادوا أن يظهروا دينهم ولما علموا انهم لن يستطيعوا أن يتغلبـــوا على المسلمين قالوا اننا سنؤوّل أصول الشريعة وأحكامها بوجـــه يقضي على دين الاسلام وملّته] .

---

(١) **لم أتمكن من الاطلاع على تفاصيل ببيليوغرافية عن هذه المخطوطة ، لذلك فاني أنقل محتواها على ذمة المؤلف ، وآمل أن أتوصل الى المزيد مـــن المعلومات في الطبعة الثانية .**

- ٤ -

[نجوم التواريخ لابن شاكر الكتبي ، الورقتين ١٣٨ ظهر و ١٣٩ وجه ، عن سنة ٣٠١ .

وفيها استأذن الوزير علي بن عيسى المقتدر بالله في مكاتبة رأس القرامطة ، أبي سعيد بن بهرام الجنابي ، فأذن له ، فكتب اليه كتابا طويلا يدعوه فيه الى السمع والطاعة ، ويوبخه على ما يتعاطاه أصحابه من ترك الصلوات والزكوات ، وارتكابهم المنكرات ، وانكارهم على من يذكر الله ويسبّحه ويحمده ، واستهزائهم بالدين ، واسترقاقهم الحراير . ثم توعده بالحرب وهدده . قال فلما سار الكتاب نحوه ، قتل أبو سعيد قبل أن يصل اليه ، قتله بعض خدمه . وعهد بالامر بعده لولده سعيد ، فغلبه على ذلك أخوه أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد . فلما قرأ كتاب [الخليفة] (١) اليهم أجابوه الى ذلك بما حاصله ان هذا الذي نسب الينا مما ذكرتم لم يثبت عندكم الا من طريق من يشنّع علينا ، واذا كان الخليفة نسبنا الى الكفر بالله فكيف يدعونا الى السمع والطاعة له ؟

وفيها توفي الحسن بن بهرام أبو سعيد الجنابي كبير القرامطة ، كان أولا يبيع الناس الطعام ويحسب للناس بيعهم ، ثم كان منه ما كان ، وكسر جيش الخليفة مرارا . فلما كان في هذه السنة ، كان لابي سعيد غلام صقلبي أراده على الفاحشة في في الحمّام ، فقتله وخرج فدعا رجلا من رؤساء أصحابه وقال

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

له : السيد يستدعيك ، فلما دخل قتله . وما زال يفعـــل ذلك بواحد بعد واحد حتى قتل أربعة من الاعيان ، ثم دعا الخامس ، فلما رأى القتلى صاح وصاح النســـاء ، واجتمعوا على الغـلام فقتلوه . وقام بأمر القرامطـــة بعد أبي سعيد ولده أبو طـاهر سليمـان] .

- ٥ -

[في أهمية التنجيم ودوره في العصر الوسيط]

من المعلوم أن استعمال كتب العرافة والتنبؤ كان رائجا منذ عصر الامويين . من ذلك ان الحجاج لما سمع نبوءة ناسك نصراني عزم على خلع يزيد بن المهلّب ليكسر شوكتـــه (١) . ونجد في النبوءة ذاتها ان الوليد بن عبد الملك سيخلفه رجـل يسمى باسم أحد الانبياء ، وانه سيفتح الفتوحات الكبرى . من ناحية ثانية ، يروي لنا كتاب العيون (٢) انه قد شاعت نبـــوءة تقول ان فتـح القسطنطينية سيكون على يد رجل اسمـه باسم أحد الانبياء . ولما كان سليمان ، خلف الوليد بن عبد الملك ، أول خليفة يحمل اسما من هذا النـــوع فقد ظن ان النبوءة هي عنه ، فقام لهذا السبب بحملته المعروفة عـلى القسطنطينية . كذلك كان ثمـة نبوءة (٣) تشير الى ان ع بن ع بن ع سيقتل م بن م بن م . وقد طبّق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز النبـــوءة ضد مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء الامويين . ولكن تبين من بعد انهـا تتعلق بعبد الله بن علي بن عبد الله . وقد وصلنا بعض أسمـــاء هذه الكتب التنبؤية ، فالطبري (٤) يذكر لنا كتب الدانيالي التي

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ٢ / ١١٣٨ ، ١١٣٩ .

(٢) تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٦٩ ، ص ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

(٤) تاريخ ، ٢ / ٣٩٩ . وفي العام ٣١٨ كان ثمة رجل يدير تجارة مربحـة بكتب وأوراق منسوبة الى دانيال ، يعالجها بطريقة تظهرها قديمة حقا، حتى ان الوزير حسين بن القاسم الكرخي مدين بوزارته لورقة حضرت بغاية الفن وحشرت في الكتاب . أنظر ابن الاثير ، الكامـل ، ج ٨ ، ص ١٦٩ . الهمذاني ، تكملة ، ص ٦٤ .

كانت تقرأ في مصر في العام ٦١ . الا ان أشهر تلك الكتب كان كتاب الجفر المنسوب عادة الى جعفر من أولاد الحسين ، وهو جد محمد بن اسماعيل الذي كان عبيد الله ينتسب اليه . ويحتوي هذا المصنف على كل ما سيقع لآل البيت من الحدثان بصورة عامة ولبعض أشخاص منهم بشكل خاص (٥) . ويذكر الهمداني كتاب نبوءات يتعلق باليمن (٦) . ويبدو من نص للطبري (٧) ان كتب العرافة كانت تلقى اقبالا شديدا في بلاط المتوكل . وكان أحدها يتنبأ باغتيال عاشر الخلفاء في مخدعه ، وهذا ما حصل للمتوكل . كما اقبل الناس على مؤلف لابي العنبس الذي توفي في خلافة المتوكل (٨) . ولا ريب انه كان للحسابات التنجيمية دور بارز في هذه الكتب ، وهذا ما يؤكده ابن خلدون عن الجفر . منذ أقدم العصور سلم الناس في الشرق بعلاقات بين مختلف الكواكب ومختلف البلاد والشعوب ، كما حددوا أقدار هذا الشعب أو ذاك تبعا لموقع كوكبه في دائرة الابراج . ولقد طبق المنهج نفسه على الافراد . ومن المحتمل انه لم يطل الوقت حتى نسبت أهمية خاصة الى قرانات النجوم . ولكن الفلك لم يصبح علما حقيقيا ، كما لم يرتفع التنجيم الى مصاف نظام علمي ، الا في عصر المأمون . ازدهر التنجيم خصوصا في القرن الثالث الهجري ، وقد بقي لنا كتيب للكندي الشهير ، كتبه نحو العام ٢٥٥ ، مع الترجمة اللاتينية التي تمت في القرون الوسطى استنادا لكتاب أبي معشر ، وقد نشره في العام ١٨٧٥

---

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٣٦ .
Guyard , S. , Fragments , P 116 .

(٦) Mueller , A. Burgen und Schloesser , I , P 75 (Sitzunberg de l'Académie des Sciences à Vienne 1879 , X C I V , P 407) .

(٧) تاريخ ، ٣ / ١٤٦٣ .

(٨) النديم ، الفهرست ، ص ١٥١ .
Von Mehren , A. F. , Vues d'Avicenne sur l'Astrologie , et sur le rapport de la responsabilité humaine avec le destin , extrait du Muséon , Louvain , 1885 , P 17 .

مع بعض التعليقات صديقي المرحوم لوت (٩) . ونجد في هـذا الكتيب حسابا لقرانات كـوكبي الشؤم زحل والمريخ في برج السرطان وتطبيقات تاريخيـة حتى العام ٢٤٢ للهجرة ، مـع تفسيرات مجازية مبهمة للقرانات التالية في العام ٢٧٢ (أبو معشر ٢٧١) ، ٣٠٣ (أبو معشر ، ٣٠١) و ٣٣٣ . ويحتـوي تفسير العام ٣٠٣ (٣٠١) على نبوءة هامة ، تلك المتعلقة بنهاية سيـادة العباسيين في المغرب ، والتي بشّرت بها حسابات أخرى (١٠) . سأعود الى ذلك لاحقا . ويعطينا الكندي في هـذا الكتاب حسابا لمدة سيادة العرب ويقوّمها بستمئة وثلاث وتسعين سنة . ونحن مدينون لابن خلدون بوصف واضـح لقرانات الكوكبين العلويين زحل والمشتري (١١) . لكي نفهم هذا الوصف جيـدا ، لا بد أن نذكر ان المنجّمين يقسمون دائرة البروج الى أربعة مثلثـات : مثلثة (١٢) الابراج النارية (الحمل ، الاسد ، القوس) ، مثلثـة الابراج الارضية (الثور ، العـذراء ، الجدي) ، مثلثة الابراج الهوائية (الجوزاء ، الميزان ، الـدلو) ، مثلثة الابراج المائيـة (السرطان ، العقرب ، الحوت) . ويحدث القران مرة كل عشرين عاما ، ويتغير أربع مرات متتالية في أبراج المثلثة الواحدة . وبعد ٢٤٠ عاما ينتقـل الى المثلثـة التي تليهـا ، حيث يتغير أربـع مـرات أخرى فـي الابراج الثـلاثة لينتقـل بعـد ٢٤٠ عاما أيضا الى المثلثة التالية . وبعد أربعة أضعاف ٢٤٠ أي بعد ٩٦٠ عاما يعود القران الى نقطة الانطـلاق وهي البرج الاول في المثلثـة الاولى . وهكـذا يمكننا أن نميز ثلاث فئات مـن القرانات :

١ ــ الاصغر ، ويحدث كل عشرين عاما .

---

(٩) Morgenlaendische Forschungen , Leipzig , 1875 , PP 261 - 309 . وقد تكلمت عن ذلك في :
Revue Critique , 1875 , I , P 293 .

(١٠) حمزة الاصفهاني ، تاريخ ملوك الارض ، ص ١٢٧ .

(١١) المقدمة ، ص ٩٣٨ .

(١٢) [أنظر البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٢١٣ .] .

٢ ـ الاوسط ، ويحدث كل ٢٤٠ عاما ، أي عند الانتقال من مثلثة الى أخرى .

٣ ـ الاكبر ، ويحدث كل ٩٦٠ عاما ، أي عند العودة الى نقطة الانطلاق .

والقران الاكبر ، المقارب لألف عام ، ينبيء بحدوث الاحداث الضخام ، كتغير الديانات والسلالات المالكة ، أو انتقال السيادة من شعب الى آخر . أما القران الاوسط فيدل على ظهور الفاتحين والرجال الطامعين في السلطة والسيادة . وأخيرا فالقران الاصغر يشير الى بروز المتمردين وأصحاب الفرق وخراب المدن والبلدان . وفي الحقب التي تفصل هذه القرانات تقع قرانات الكواكب المشؤومة .

ان لمعرفة هذه التنبؤات الفلكية أهمية كبرى في دراسة تاريخ الشعوب الاسلامية ، لانهم كانوا يصدقونها ويأتمون بها . ويعطينا ابن أبي أصيبعة أمثلة دامغة على الاثر الذي كانت تمارسه على الحياة الخاصة (١٣) : « حدثني عيسى بن الحكم [الطبيب] انه عرض لغضيض أم ولد الرشيد قولنج فأحضرته وأحضرت الأبح والطبري الحاسبين وسألت عيسى عما يرى معالجتها به . قال عيسى : فأعلمتها ان القولنج قد استحكم بها استحكاما ان لم تبادره بالحقنة لم يؤمن عليها التلف .

فقالت للأبح والطبري : « اختارا لي وقتا أتعالج فيه » . فقال لها الأبح : علتك هذه ليست من العلل التي يمكن أن يؤخر لها العلاج الى وقت يحمده المنجمون ، وأنا أرى أن تبادري بالعلاج قبل أن تعملي عملا ، وكذلك يرى عيسى بن الحكم . فسألتني ، فأعلمتها ان الابح قد صدقها . فسألت الطبري عن رأيه فقال : ان القمر اليوم مع زحل ، وهو في غد مع المشتري ، وأنا أرى لك أن تؤخري العلاج الى مقارنة القمر المشتري . فقال الابح : أنا أخاف أن يصير القمر مع المشتري وقد عمل القولنج عملا لا يحتاج

---

(١٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٧ .

معه الى علاج . فتطيرت من ذلك غضيض وابنتها أم محمد وأمرتا باخراجه من الدار وقبلت قول الطبري . فماتت غضيض قبل موافاة القمر المشتري » .

والرواية التالية أبلغ دلالة . أراد أحد الموظفين النافذين انقاذ رجل من خاصته ، ففامر باعطاء المتوكل تقريرا مغلوطا عن تحقيق كلف بالقيام به ، مستندا الى كون التزوير لن يكتشف قبل مرور اربعة أشهر ، والى كون النجوم تنبىء بمقتل الخليفة قبل انقضاء تلك المدة ، وبالفعل فقد اغتيل الخليفة بعد مرور شهرين .

ولم تكن الاحداث السياسية أقل تأثرا بالتنجيم ، اذ يعطينا الطبري مثلا على ذلك تحت العام ٦٦ (١٤) . أما المسعودي فيخبرنا ان الخليفة عبد الملك كان يصطحب في حملته على العراق منجما ينزل منه منزلة خاصة (١٥) . وثمة واقعة أخرى : لما وقف مروان قبيل المعركة الحاسمة التي أفقده فيها العباسيون ملكه (١٦) ، قال انه سينتصر اذا لم يهاجمه أعداؤه قبل الغروب. واضح ان كلامه يستند الى فكرة كون التنبؤات الفلكية غير مؤاتية للامويين في ذلك اليوم ، وان الحظ سيبتسم لهم في اليوم التالي . ويروي المسعودي (١٧) أيضا ان المنصور كان يأتمّ في قراراته بنبوءات المنجمين .

واننا لنجد الادلة الساطعة على الاعتقاد بأثر النجوم في النصف الثاني من القرن الثالث . كان أمير الزنج لا يفارقه اسطرلابه (١٨) ، كما كان للمنجمين سطوة وسلطان كبيران في بلاط بغداد وسرّ من رأى (١٩) . الا ان تاريخ الفاطميين والقرامطة

---

(١٤) تاريخ ، ٢ / ٦٠١ .
(١٥) مروج الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٤ .
(١٦) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ٤٠ .
(١٧) مروج الذهب ، ج ٨ ، ص ٢٩٠ .
(١٨) الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٧٦٣ ، ١٧٨١ ، ١٨٤٨ .
(١٩) أنظر مثلا الطبري ، تاريخ ، ٣ / ١٥٠٢ .

أغنى بالامثلة الحية . كان التنجيم يقوم بدور هـــام في أسرار عبد الله بن ميمون وأبنائه . فلما التجأ سعيد ـ عبيد الله المهدي الى افريقية ، قطع عليه الطريق بعض اللصوص وسلبــوه بعض كتب التنجيم وغيرها من الكتابات السرية (٢٠) ، في جملة ما سلبوا . وقد عثر عليها ابنه القائم ابان حملته الاولى على مصر ، والتي باءت بالفشل . سرّ عبيد الله لهذا الحدث سرورا جعله يقول انه لو لم تسفر الحملة الا عن ارجاع هــذه الكتب لكفى بها ذلك فتحا مبينا . كانت هذه الكتب تحتوي ، بلا ريب ، على توقع زوال سيادة العرب في المغرب نحو أواخر القرن الثالث . وكانت تلك النبوءة تتعلق ، في الاغلب ، بقران زحل والمشتري الـذي حدث في العام ٢٩٦ (٩٠٨ م) (٢١) . وبالفعل ، فقد شهـدت تلك السنة سقوط دولة الاغالبة وانتصار عبيد الله المهدي بعسكر أبي عبد الله المظفر . ومن المحتمل أيضا أن توجد في هذه الكتب نبوءة عن ظفر الفاطميين بالنصر المؤزر عند تمام القران التالي بين الكوكبين العلويين فـي العام ٣١٦ (٩٢٨) ، اذ يروي كـل من البيروني (٢٢) وصاحب « الفهرست » (٢٣) ان القرامطة كـانوا يتوقعون بدء العصر الجديد . عصر الديانـة الحقيقية بحـدوث القران السابع (٢٤) ، بالمرور من مثلثة الابراج المائية الى مثلثـة الابراج النارية ، والانتقال من العقرب الى القوس (٢٥) .

لما كانت أعمال القرامطة والفاطميين تتفق والاعتقـاد بهذه النبوءة ، ولما كانت هذه النبوءة معلنة من مصادر موثوقة ، وجب

---

(٢٠) دستور المنجمين في الملحق رقم ٢ . وستنفلد ، فاطميين ، ص ١٨ .

(٢١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٩٣٧ .

(٢٢) الاثار الباقية ، ص ٢١٤ .

(٢٣) ص ١٨٨ .

(٢٤) الثامن على ما جاء في الفهرست ، وهذا غلط قد لاحظه لوت ، مع انه لم يطلع على ما قاله البيروني (Morgenl. Forsch. , P 269 , note 3) . وهو يخطىء باقتراحه قراءة الثالث عشر ، لان المـــرور الى الابراج الارضية يكون قد حدث أثناء هذا القران .

(٢٥) البيروني ، الاثار الباقية ، ص ٢١٣ .

أن نقبل برواية البيروني لقصيـــدة أبي طاهر ونستبعد روايـة ابن تغري بردي . اذ لو حدثت فعلا قرانات بين المريخ وزحل في السرطان فـي العام ٣٠٣ (٩١٥ م) و ٣٣٣ (٩٤٤) لما تلاءم أي منها مع ما ينوّه اليه البيت . فالوقت الذي يجب أن ننسب اليه البيت كان فيه زحل بعيدا جدا عن السرطان . وقد حصل قران بين المريخ وزحل في العام ٣١٧ (٩٢٩) في برج الجدي، وعندها كان زحل في أوج خطره ، لان برج الجدي هو بيته كما يـذهب بعض المؤلفين (٢٦) . الا ان هذا يناقض النظرية المعتادة (٢٧) . كان على القدر أن يضرب العراق . ولكن بالنسبة الى هذا البلد ، فان ظهور المريخ في برج السرطان من شأنه أن يحـــدث التأثير الاكثر شؤما، الا اذا قابله أثر كوكبيالسعد المشتريوالقمر (٢٨) . لذا يجب أن نقبل بكون ظهور المريخ في السرطان في الوقت الذي يختفي فيه أثر المشتري والقمر منبئا بسنة الشؤم على العراق ، وبوقوع هذه السنة خلال القران السابع بين المشتري وزحل في برج القوس ، والمبتدىء في العام ٣١٦ (٩٢٨) . وفـي الواقع فان هذا القران يبشّر بانتصـــار الديانة البيضاء ، أي ديانـة القرامطـة .

نعرف عن الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله انه كان مغرمـا بالنجوم (٢٩) . ولا يمكننا أن نشكّ في كونه قد قام بحملته على مصر بوحي من قران زحل والمشتري في العام ٣٥٦ (٩٦٧) كما علّقت على قران ٤٣٩ (١٠٤٧) ، أول قرانات مثلثـــة الابراج الارضية ، الآمال الكبار بانتصار القرامطة والفاطميين .

وقد بقي لنا من ابن سينا « رسالة فيالقضاء والقدر » (٣٠) نشر العالم فون مهرن (٣١) ترجمة مقتضبة لها . ويبين فيهـا

(٢٦) ابن أبي أصيبعـة ، عيون الانباء ، ص ٤٥٤ .

(٢٧) Loth , Morgenl. Forsch. P 283 et sq.

(٢٨) المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ .

(٢٩) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٠) مخطوطة ليدن رقم 1020 a , n II

(٣١) في Le Muséon , 1885

الشيخ الرئيس ان أساس التنجيم فاسد ، لانه يعتمد على طروحات قبلية غير مبرهنة وغير قابلة للبرهان ، ومن ذلك فضائل الكواكب وخصالها ، تأثرها بالابراج ، والعلاقات التي تربطها بالبلدان والدول ، وما شاكل . ولكن ، اذا ما قبلت هذه الأسس فان التنجيم يصبح عندئذ علما حقيقيا ، لانه يعتمد على حسابات مضبوطة وملاحظات لا ترد . وقد تفضل صديقي الدكتور باكهوزن مدير مرصد ليدن بالتثبت من حسابات الكندي وغيره فوجدها صحيحة من حيث المضمون . وقد وضع جداول لقرانات الكوكبين العلويين ابتداء من ولادة الرسول (٥٧١ م) وحتى ١٣٨٥ م ، ولظهور المريخ في السرطان بين ٩١٥ و ٩٤٥ ، ولقرانات زحل والمريخ في مختلف الابراج خلال السنوات ٩١٥ الى ٩٤٧ . وللجدولين الاخيرين أهمية كبرى بالنسبة لزمن تعاظم نشاط القرامطة ، لا سيما وان قرانات كوكبي النحس ، ودخول المريخ في برج السرطان تنذر بالشؤم على العراق . أما قرانات زحل والمشتري فتدل على حدوث الاحداث الجسام .

وهاكم بعض الامثلة : نجد عند ابن أبي أصيبعة (٣٢) قصيدة تنبئية عن غزوات التتار المدمرة في منتصف القرن الثالث عشر ، وبكل قساوة سخرية القدر ، نسبت هذه القصيدة الى ابن سينا ، عدو التنجيم المستنير . وتبدأ القصيدة بهذا البيت :

احذر بنيّ من القران العاشر
وانفر بنفسك قبل نفر الناقر

وقد هلك أمير خوارزم القوي حوالى منتصف مدة هذا القران ، الا ان التتار هزموا في الشام ، في أواخرها ، على يد أمير مصر . ويذهب ابن أبي أصيبعة الى ان القران العاشر يقع في الجدي . وهذا ليس صحيحا تماما . فالقران العاشر في مثلثة الابراج الارضية يقع في العام ٦٢٣ (١٢٢٦) ، وذلك في برج الدلو ، وان لم يبتعد ذلك عن الجدي الا بمقدار درجتين . الا ان ظهور التتار (المغول) واشتداد شوكة سلطانهم حدث في

---

(٣٢) عيون الانباء ، ص ٤٥٤ .

غاية الدقة ، حتى ليصعب أن تكون قد نظمت قبل العام ٦٥٨ ، وفيها ان قاهر التتار في الشام هو الملك المظفر أي قطز ، وان الخليفة الذي يلي جعفر ، أي المستنصر ، سيكون الاخير . رأى ابن أبي أصيبعة معجزة في هذه التوقعات ، لان كل ذلك تحقق في حياته كما أشارت اليه القصيدة . ولا بد اذن من افتراض كونه ضحية خدعة فجة ، اذ انه لم يكن ليجرؤ على انكار نسبة القصيدة الى ابن سينا (المتوفي سنة ٤٢٨) ولو انه لم يقدم على الجزم بصحة تلك النسبة .

ويطلعنا المقريزي (٣٨) على مطلع قصيدة تنبئية عن قدر القاهرة ، يشبه الى حد بعيد مطلع القصيدة المذكورة عند ابن أبي أصيبعة :

احذر بنيّ من القران العاشر
وارحل بأهلك قبل نقر الناقر

ويقول ان القران العاشر يبدأ في العام ٧٨٩ . وفي تلك السنة ، أو على وجه الدقة في السنة التي تلتها (١٢ نيسان ١٣٨٥ م) حدث القران ، ولكن لم يكن ذاك القران هو القران العاشر ، بل السادس في مثلثة الابراج المائية . وفيما عدا ذلك فان حساباته صحيحة . وفي العام ٦٦٤ (١٢٦٥) وقع قران فعلا بين زحل والمشتري في الجوزاء ، وفي ٨١٨ (١٤١٥) وقع قران آخر للمريخ وزحل في السرطان . كان من المتوقع أن تسقط القاهرة خلال هذا القران ، لان مدة القاهرة ، وهي ٤٦١ عاما كما جاء في الكتب ، تنتهي في العام ٨١٩ . لذلك يقول المقريزي (٣٩) : « وشواهد الحال اليوم تصدق ذلك لما عليه أهل القاهرة الآن من الفقر والفاقة وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعي الدور للسقوط ، وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة وقرب انقضاء مدتهم ، وغلاء الاسعار » .

---

(٣٨) الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٢ وما يليها .
(٣٩) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

- ٦ -

المقريزي ، مختارات من كتاب نحل عبر النحل ،
مخطوطة ليدن ٥٦٠

ولما نزل أبو علي الحسن الاعصم بن أبي منصور أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي الى الرملة وقد قدم من الاحساء لحرب جوهر القائد سنة ٣٦٦ أحضر اليه الفراشون في بعض الليالي الشموع على العادة فقال لكاتبه أبي نصر بن كشاجم : ما يحضرك في هذه الشموع ؟ فقال : انما نحضر مجلس السيد لنسمع من كلامه ونستفيد من أدبه . فقال الحسن بن أحمد بديها :

ومجدولة مثل صدر القناة
تعرّت وباطنها مكتسِ

لها مقلة هي روح لها
وتاج على هيئة البرنسِ

اذا غازلتها الصبا حركت
لسانا من الذهب الاملسِ

وان رنقت لنعاس عرا
وقطت من الراس لم تنعسِ

وتنتج في وقت تلقيحها
ضياء يجلّي دجى الحندسِ

فنحن من النور في أسعد
وتلك من النار في أنحسِ

فقام أبو نصر وقبّل الارض واستأذن في اجازتها فأذن له فقـــال :

وليلتنـــا هـــذه ليـــلة
تشـــاكل أشكـــال أقليـدسِ

فيـا ربّة العـود حثي الغنـيا
ويا حامـــل الكـأس لا تحبسِ

فخلع عليه وعلى جميع من حضر مجلسه ، وحمل اليـــه صلة سنيّة .

- ٧ -

I مختارات من « الفتح المبين في سيرة السادات البوسعيدين »
مخطوطة كمبردج رقم ١٨٣ الورقة ١٠٣

وكان سبب زوال ملكه ، لعنه الله ، علـى يد عبد الله بن علي . وكان قيامه عليه بأربعمائة رجل ، وكانوا في عسكر وجنود كثيرة ، فلبث في محاربتهم سبع سنين ، ثم انتزع الدولة منهم . وفي ذلك يقول جمال الدين عبد الله بن علي بن مقرّب شعرا :

سل القرامط مـن شظّى جماجمهم
فلقـا وغادرهم بعد العلى خدمـا

من بعـد ما ارتجّ بالبحريـن شأنهم
وأرجفوا الشـام بالغـارات والحرمـا

ولم تزل خيلهـم تغشى سنـابكها
أرض العراق وتغشى تـارة أدمـا

وحرقوا عبد قيس فـي منازلهـا
وصيّروا الغرّ مـن ساداتها خدمـا

وأبطلـوا الصلوات الخمس وانتهكـوا
شهر الصيـام ونصّوا بينهم صنمـا

وما بنـوا مسجـدا لله نعرفـه
بل كلمـا وجـدوه قائمـا هدمـا

حتى حمينا علـى الاسـلام وانتدبت
منـا فوارس تجلوا الكرب والظلمـا

وطالبتنا بنو الاعمام ما عدمت
فلم تجد بكما منّا ولا صمما

وقلّدوا الامر منا ماجدا نجدا
يشفي ويكفي اذا ما حادث دهما

ماضي العزيمة مأمون بقيّته
اعلا نزار الى غاياتها هِمَما

وسار تتبعه غرّ غطارفة
لو زاحمت سد ذي القرنين ما سلما]

- ٨ -

[مختارات من « كتاب تأويل الزكاة » لمنصور اليمن ،

مخطوطة ليدن رقم ٢٦١٣ ، الاوراق ٢٩٠ ، ٢٩١ :

ـ تأويل « الحياة الاخرى » ـ

... قال سبحانه : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (١) ، وهذا وعد من الله صدق وقول حق ، لكنه اذا حمل على ظاهره لم تصححه العقول ولم تشاهده العيون . لانّا ما رأينا أحدا قتل فعاد حيا ولا رأينا ميتا ولا مقتولا يرزق . لان الرزق على قسمين : أحدهما الرزق الذي هو قوت الاجسام وغذاؤها ، ومن المحال أن يكون المقتول الذي فارق روحه جسده ينال غذاءها ولا شيئا مما يقوّم جسده، والقسم الآخر هو رزق العلم الذي هو قوام الروح وحياتها . فالروح اذا فارقت جسدها ، وعلت الى عنصرها ، استغنت عن العلم . لان الروح تحيا بالعلم ما دامت في جسدها ، لتنال به حدّها وتبلغ عنصرها الذي فارقته ، فيكون ذلك حياة أبدية . فالقسمان جميعا المقتول مستغن عنهما بافتراق روحه عن جسده . فقد بطل قول أهل الظاهر [و] ما ذهبت اليه آراؤهم في تفسيراتهم ، وما يركبونه من زخاريفهم . ولو اعترفوا بالحق ، واقروا بأيمة الصدق ، وردوا سؤالهم الى من أمروا بسؤاله من اهل الذكر أوليائهم ، لعلموا صحة قول الله ووقفوا على معرفة حياة المقتولين في سبيل الله ، وما الرزق الذي يأتيهم من ربهم ، وكانوا على صحة من أمرهم ويقين في دينهم .

---

(١) آل عمران ، ١٦٩ .

الاوراق ٣٠٠ ـ ٣٠٤ :

ـ « النفخة في الصور اقامة دعوة الناطق » (١) ـ

... فأما النفخة الاولى (٢) التي تصعق الخلائق فهي دعوة الناطق الى ظاهر الشريعة التي تعمّ كل الناس بريئهم وفاجرهم ، مؤمنهم ومنافقهم ، التي لا حياة فيها ولا جزاء عليها . وكانت النفخة الثانية التي هي مجمع الخلائق للجزاء لاصحاب النفخة الاولى (٢) . كذلك الدعوة الثانية ، التي هي محض التأويل ، انما هي لاهل الدعوة الاولى (٢) . فمن سارع اليها نجا وجوزي بالحسنى ، ومن بقي بالدعوة الاولى (٢) متمسكا هلك وثوى ، لانه في حال الاموات لم يحيَ . لما نطق صاحب الجزاء لم يجدوا الى العلم سبيلا ، ولا وجدوا الى النجاة محيصا ، فجمعوا كرها واضطرارا على الدعوة الاولى فرقا وخوفا . فأصعقهم وأماتهم ، يعني انهم لم يكونوا نالوا شيئا من العلم ، ولا وقفوا على شيء من الحكمة . فلانقطاعهم عن بلوغ العلم (٣) وحقيقة حكمته ، ومقامهم في جهلهم وغيهم كانوا بمنزلة من مات وفارقت روحه جسده . فلما نالتهم النفخة الثانية التي هي الدعوة العلمية بمعرفة القائم وحده بالاستجابة الى دعوة (٤) امام الزمان ، والاقتباس من مواده التي هي حياة الارواح . وأما روح القدس ، فلما سميت باسم القدس اذ هي روح خاصة تخرج من جسم امام ماض (٥)

(١) هذه الجملة قد خطت في هامش الاصل وتبدو كعنوان لما يليها .

(٢) الاولة في الاصل .

(٣) القلم في الاصل .

(٤) مكررة في الاصل .

(٥) ماضي في الاصل .

وتتصل (٦) باسم الامام الآتي ، فهي حال ما ينقل في الاجسام الظاهرة ، كالذي يبدّل (٧) لباس الثياب الحسنة النفيسة وهو في حاله (٨) لا يتبدل . ولو تدبروا أمرهم لعلموا غيّهم (٩) من رشد غيرهم ، فأنابوا الى ربهم واستقالوا من ذنبهم ، واتبعوا الحق وأهله ، وردوا أمورهم الى ولاة أمره ، ففازوا بتسليمهم له، وصاروا من حزبه (١٠) ، فوقفوا من علم الصور ونفخته على معرفة حقيقية (١١) . اذ (١٢) الصور ما يتصور في نفوس أهل الحقائق ، العارفين بالله رب الخلائق ، مما يأتيهم من مواد العلوم الحكمية والحكم الملكوتية والتأويلات النيّرة فيعلمونها بصورة العقل ، فيكون ذلك مستجنا في صدورهم (١٣) في حدّ القوة . فسمّي صورة لتصوّره (١٤) في الصدور ، ما لم يظهره اللفظ فيكون في حد [الفعل] (١٥) ، كما ان النطفة في ظهر الرجل مكنونة في حد القوة ما لم تظهرها الحركة بالمجامعة فتخرج بتلك الحركة من حد القوة الى حد الفعل . كذلك ما يتصور في النفوس من العلم والحكمة بالمواد التأيدية هو في حد القوة يقع عليه اسم الصورة ، فاذا لفظ به وتكلم به ، وخرج من نطق الى سمع كان فعلا ، يسمى حينئذ خلقا بعد أن كان صورة . فكلما تصور في النفوس فهو في حد القوة ما دام مستجنا ، فاذا نطق به صار فعلا أخرج من اسم الصور الى اسم الخلق . فكان قوله

---

(٦) ويتصل في الاصل .

(٧) يتبدل في الاصل .

(٨) حالة في الاصل .

(٩) غيبهم في الاصل .

(١٠) حربهم ، في الاصل .

(١١) حقيقته ، في الاصل .

(١٢) اذا ، في الاصل .

(١٣) صدارهم ، في الاصل .

(١٤) التصورة ، في الاصل .

(١٥) القوة في الاصل . ولكن السياق يفرض ما أثبتنا . نلاحظ عابرين مدى تغلغل المصطلحات الارسطوطاليسية المتداولة آنذاك منذ ما يزيد على نصف قرن .

« ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » (١٦) عني به النفخة الثانية التي يجمع الخلائق لمحشرهم (١٧) ، فأراد بالصور امام الزمان عليه السلام ، ونفخته اقامة دعوته (١٨) بالحقيقة التي هي الدعوة الثانية التأويلية ، التي يجتمع الناس اليها . وهم عباد مخصوصون (١٩) محجوبون (١٩) عن الصعقة لنفخ الصور . ثم قال « ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » (٢٠) ، فأصعقهم في النفخة الاولى ثم أقامهم ينظرون في النفخة الثانية (٢١) . تدبر أيها المستمع هذه المعاني والاشارات ، وأجل فكرك فيما (٢٢) رمزته (٢٣) لك ، ولا تكن من الغافلين الذين تمر على آذانهم صفحا فهم لا يفقهون . فأصل (٢٤) الظاهر المعروف من الباطن ، وعلمه من (٢٥) الحق وحكمه (٢٦) . المقيمون على الظاهر وظلمه ، والمتّبعون للباطل وجهله يروون فيما يزعمون ان الصور قرن طوله من مشرق (٢٧) الارض الى مغربها ، فيه ثقوب (٢٨) بعدَ أنفاس الخلائق أجمعين . فاذا كان يوم القيامة ، أخذه اسرافيل فينفخ فيه ، فيخرج له صوت يصعق منه كل شيء ، ويموتون حتى لا يبقى أحد . ثم يتجلى الله الى دار الدنيا بلا زوال ، فلا يرى أحدا فينادي بنفسه لنفسه : « لمن الملك اليوم ؟ » (٢٩)

---

(١٦) الكهف ، ٩٩ .

(١٧) لمحشيرهم ، في الاصل .

(١٨) دعوة ، في الاصل .

(١٩) مخصوصين محجوبين ، في الاصل .

(٢٠) الزمر ، ٦٨ .

(٢١) الثاني ، في الاصل .

(٢٢) فيها ، في الاصل .

(٢٣) زمزمته ، في الاصل .

(٢٤) فأهل ، في الاصل .

(٢٥) ومن ، في الاصل .

(٢٦) وحكمة ، في الاصل .

(٢٧) المشرق ، في الاصل .

(٢٨) ثقبة ، في الاصل .

فلا يجيب أحد . ثم ينادي الثانية ، فلا يجيبه أحد . ثم ينادي الثالثة ، فلا يجيب أحد . فيردّ على نفسه بنفسه فيقول : « لله الواحد القهار » (٢٩) . ثم ينفخ اسرافيل في الصور النفخة الثانية ، فاذا هم قيام ينظرون « من الاجداث الى ربهم ينسلون » (٣٠) ، « يوم تبدّل الارض غير الارض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار » (٣١) . ولقد ضل سعيهم ، وتب عملهم ، وخزى (٣٢) أمرهم لارتكابهم الهوى ، وضلهم عن سبيل الله سبيل الهدى ، وتعرّيهم عن لباس التقوى ، وتعمّقهم في الجهل (٣٣) والعمى] .

---

(٢٩) غافر ، ١٦ .
(٣٠) يس ، ٥١ .
(٣١) ابراهيم ، ٤٨ .
(٣٢) وخز ، في الاصل .
(٣٣) جهل ، في الاصل .

[illegible]

فكرك فيما (٢٢) ربوته (٢٣) لك ، ولا [illegible]
على آذانهم صفحا فهم لا يفقهون . الأصل (٢٤)
الظاهر المعروف من الباطن ، وعلمه
من (٢٥) الحق وحكمه (٢٦) ، المحجوبون على الظاهر وظلمه ،
والمتشبثون [illegible] وحبله يرون فيما يزعمون أن [illegible]
[illegible] من مشرق (٢٧) الأرض إلى مغربها ، [illegible] (٢٨) بعد
[illegible] . فإذا كان يوم القيامة ، [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] لمن الملك اليوم ؟ (٢٩)

---

(٢١) الكهف : ٧٩ .
(٢٢) [illegible] في الأصل .
(٢٣) [illegible] في الأصل .
(٢٤) [illegible] في الأصل .
(٢٥) [illegible] الزمر : ٦٨ .
(٢٦) الثاني ، في الأصل .
(٢٧) [illegible] في الأصل .
(٢٨) [illegible] في الأصل .
(٢٩) [illegible] في الأصل .
[illegible] في الأصل .
[illegible] في الأصل .
[illegible] في الأصل .
[illegible] في الأصل .

مراجع التحقيق

اولا ـ المراجع العربية :

ـ ابن أبي أصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .

ـ أخبار مكة المشرفة ، تحقيق وستنفلد ، عن طبعة ليدن، بيروت ١٩٦٤ .

ـ الادريسي، منزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تحقيق تشرولي ، غبريالي ، ليفي دلافيدا وغيرهم ، نابولي ، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ .

ـ الازهري ، تهذيب اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ـ الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي خويه ، ليدن، الطبعة الثانية ١٩٢٧ .

ـ المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد العيني ، القاهرة ، ١٩٦١ .

ـ الاصفهاني ، حمزة ، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، بيروت ، ١٩٦١ .

ـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق كارل تورنبرغ ، ليدن ، ١٨٦٥ .

ـ أبو نعيم ، ذكر أخبار أصبهان ، تحقيق ديدرنغ ، ليدن ، ١٩٣١ .
ـ ابن بطوطة ، رحـــلة ابن بطوطة ، تحقيق كاترمير ، باريس ، ١٨٥٤ .
ـ بدوي ، عبد الرحمن ، مذاهب الاسلاميين ، بيروت ، ١٩٧١ .
ـ البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخاليــة ، تحقيق زاخاو ، ليبزغ ، ١٨٧٨ .
ـ التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، تحقيق محمــد الزهري الغمراوي ، القاهرة ، ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ .
ـ ابن جبير ، رحلة ، بيروت ، ١٩٥٩ .
ـ ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٧ هـ .
ـ الجوهري ، تاج اللغة وصحاح العربيــة ، تصحيح نصر الهوريني ، القاهرة ، ١٢٨٢ .
ـ الجوبري ، كتاب المختار في كشف الاسرار ، ١٨٨٤ .
ـ ابن حوقل ، المسالك والممالك ، تحقيق دي خـــويه ، ليدن ، ١٨٧٣ .
ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق الدكتور احســان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .
ـ ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبدالواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٥ . كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .
ـ الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق فؤاد السيد ، الكويت ، ١٩٦١ .
ـ الروحي ، أبو الحسن ، بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ، القاهرة ، ١٩٠٩ .
ـ الزبيدي ، تاج العروس ، القاهرة ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧ .
ـ ابن سنان ، ثابت ، تاريخ أخبـــار القرامطة ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، بيروت ، ١٩٧١ .

ـ سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة ، تحقيق هانز فون مزيك ، فيينا ، ١٩٢٩ .
ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
ـ الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق أحمد فهمي محمد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
ـ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٧٩ ـ ١٨٩٨ .
ـ ابن العمراني ، كتاب الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السمرائي ، ليدن ، ١٩٧٣ .
ـ عمارة ، نجم الدين ، تاريخ اليمن ، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
ـ كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، تحقيق عمر السعيدي ، دمشق ، ١٩٧٢ .
ـ ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة كولان وليفي برفنسال بالاستناد الى طبعة دوزي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ .
ـ الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، تصحيح نصر الهوريني ، القاهرة .
ـ القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، تحقيق وستنفلد ، ويسبادن ، ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ .
ـ ابن القيسراني ، الانساب المتفقة ، تحقيق دي يونغ ، ليدن ، ١٨٦٥ .
ـ المعري ، أبو العلاء ، اللزوميات ، بيروت ، ١٩٦١ .
ـ ابن المعتز ، ديوان ، بيروت ، ١٩٦١ .
ـ المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق باربييه دي مينار ، باريس ، ١٨٧٤ .
ـ المقريزي ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠ هـ .

اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الـدكتور جمال الدين الشيـال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

ـ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٧٧ .

ـ الميداني ، مجمع الامثال ، تحقيق محمـد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ١٩٧٢ .

ـ ابن النـديم ، الفهرست ، طبعـة فلوغل ، ليبزغ ، ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ .

ـ ابن هاني ، ديوان ، بيروت ، ١٩٦٤ .

ـ الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق البرت كنعان ، بيروت ، ١٩٦١ .

ـ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، تحقيق وستنفـلد ، ليبزغ ، ١٨٦٦ .

ثانيا ـ المراجع الاجنبية :

Burckhardt , J. L. , Travels in Arabia , London , 1829 .

Burton , R. F. , Personal Narrative of a Pilgrimage to el - Medinah and Meccah , London , 1856 .

Dozy , R. , Histoire des Musulmans d'Espagne , Nouvelle édition revue et mise à jour par E. Levi - Provençal , Leide , 1932 .

Reinaud , J. T. , Fragments Arabes et Persans inédists relatifs à l'Inde , Paris , 1845 .

Sourdel , Dominique , Le Vizirat Abbasside de 749 à 936 , Damas , 1959 - 1960 .

Wuestenfeld , F. , Geschichte der Fatimiden Chalifen , Gottingen , 1881 .

فهرس الاعلام والفرق والاماكن

١ ــ الاعلام

ــ أ ــ

— ب —

— ت —

— ج —

- ح -

- خ -

- د -

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ظ ـ

ـ ع ـ

ــ غ ــ

ــ ق ــ

ــ ك ــ

— م —

– ن –

– هـ –

– و –

– ي –

٢ ـ الفرق

ـ أ ـ

ـ ب ـ

– م –

– ن –

– و –

– ي –

٣ ـ الاماكن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ر ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

- ف -

- ق -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس المحتويات

تصويب : الحاشية رقم (١٤٥) ص ١٠١ ينبغي أن تقرأ (١٤٤) وقس على ذلك .

طبعت على مطابع دار الغد ـ بيروت ـ شارع سوريا ـ تلفون ٢٣.٥١٢

هذا الكتاب

إن أول معالجة مركزة ودقيقة لتاريخ القرامطة تمت على يد مستشرق هولندي هو « دي خويه » عندما نشر في العام ١٨٦٢ « رسالة عن قرامطة البحرين » .. ثم طورها بعد ذلك الى كتاب شامل . وقد أستند في بحثه الى مصادر تاريخية مخطوطه في معظمها ، وتطلّب منه ذلك جهداً شاقاً لا تقلل منه معرفة صاحبه الوثيقة باللغة العربية وألفته الطويلة بجزء كبير من مخطوطاتها التاريخية .

وقد قام المترجم بعملية تحقيق ليصدر الكتاب بدقة تتناسب مع المصادر التي أصبحت مطبوعة الآن .

وغني عن البيان إن هذا الكتابُ يعتبر المرجع الأول لكل دراسة تاريخية عن القرامطة ، نضعه أمام القارىء العربي كشفاً لجزء مغمور ومتجاهل من تاريخ الحركات الأجتماعية والفكرية والسياسية في تراثنا .

« الناشر »

الثمن : ١٤ ل . ل . او ما يعادلها